التاريخ يشهد بعصمة القرآن العظيم

تاريخ بني إسرائيل المبكر

تأليف

الدكتور لؤي فتوحي
الأستاذة الدكتورة شذى الدركزلي

دار الحكمة
لندن

❑ التاريخ يشهد بعصمة القرآن الكريم ـ تاريخ بني إسرائيل المبكر

❑ تأليف: الدكتور لؤي فتوحي/ الأستاذة الدكتورة شذى الدركزلي

❑ الطبعة الأولى: ٢٠٠٢م ــ ١٤٢٢هـ

❑ الناشر: دار الحكمة ــ لندن

❑ ISBN 1 898209 28 6

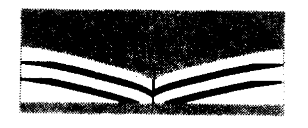
88 Chalton Street, London, NW 1, 1 HJ

Tel: 0207 / 3834037 Fax: 0207 / 3830116

E-mail: al_hikma_uk@yahoo.co.uk

DAR AL-HIKMA

Publishing and Distribution



88Chalton Street , London NW1 IHJ Tel :0207-3834037 Fax : 0207 -383 0116

التاريخ يشهد بعصمة القرآن العظيم

تاريخ بني إسرائيل المبكر

تأليف

الدكتور لؤي فتوحي   الأستاذة الدكتورة شذى الدركزلي

صدرت الطبعة الإنكليزية لهذا الكتاب عام ١٩٩٩

دار الحكمة

لندن



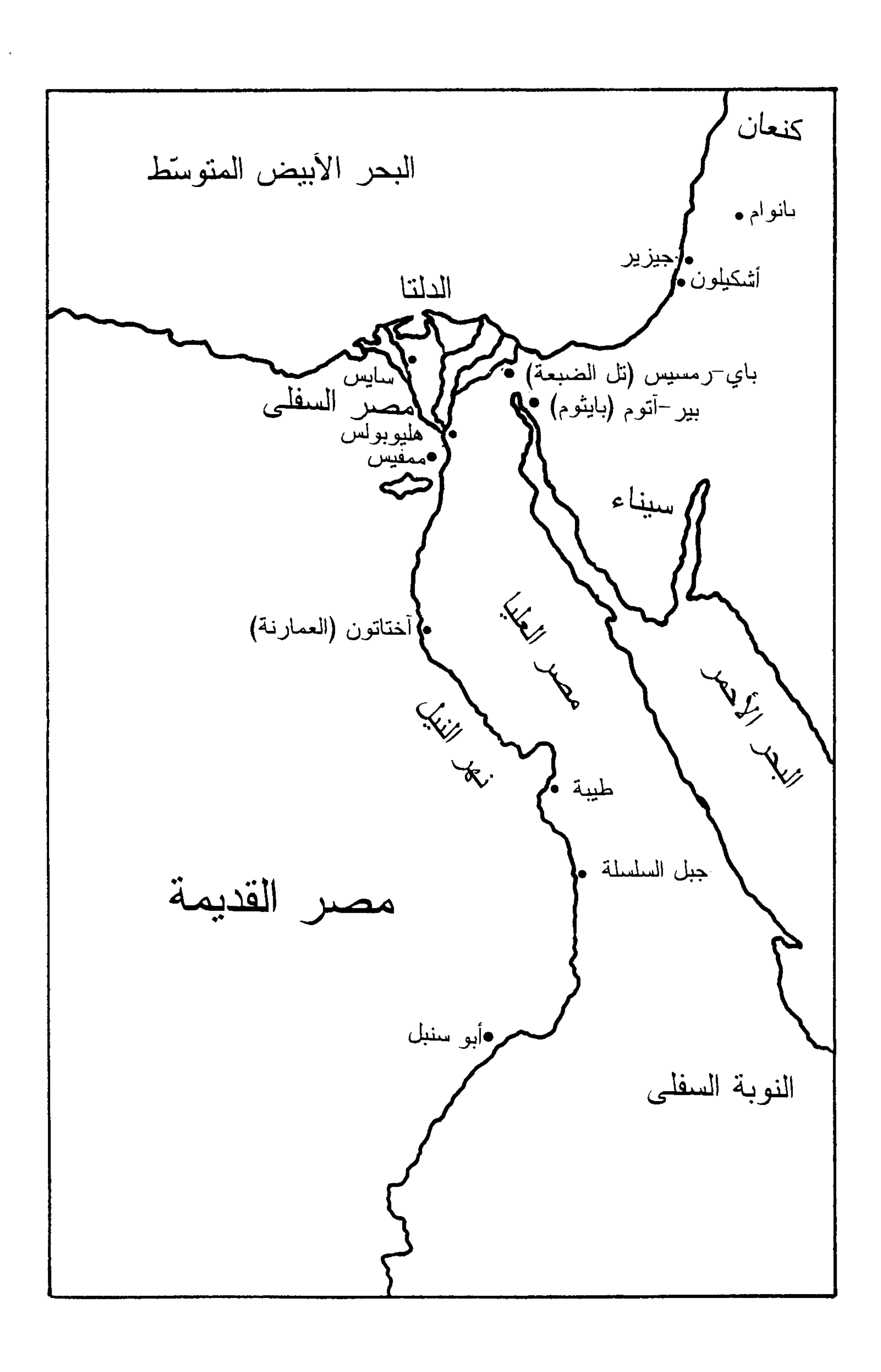
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
(النمل: ٧٦)

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا
(النساء: ٨٢)

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (مُحمَّد: ٢٤)

إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ
وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (الأحزاب: ٥٦)



كنعان
البحر الأبيض المتوسّط
بانوام
جيزير
أشكيلون
الدلتا
باي-رمسيس (تل الضبعة)
سايس
مصر السفلى
بير-آتوم (بايثوم)
هليوبولس
ممفيس
سيناء
آختاتون (العمارنة)
مصر العليا
البحر الأحمر
نهر النيل
طيبة
جبل السلسلة
مصر القديمة
أبو سنبل
النوبة السفلى

جدول (١): السلالات الفرعونية ١١-٢٠ في مصر القديمة وتواريخ حكمها (Clayton, 1994)

السلالة Dynasty	المملكة Kingdom	التاريخ (ق.م)
الحادية عشرة	المملكة الوسطى	١٩٩١-٢١٣٤
الثانية عشرة	المملكة الوسطى	١٧٨٢-١٩٩١
الثالثة عشرة	المملكة الوسطى الثانية	١٦٥٠-١٧٨٢
الرابعة عشرة	المملكة الوسطى الثانية	غير مؤكد
الخامسة عشرة (الهكسوس)	المملكة الوسطى الثانية	١٥٥٥-١٦٦٣
السادسة عشرة	المملكة الوسطى الثانية	١٥٥٥-١٦٦٣
السابعة عشرة	المملكة الوسطى الثانية	١٥٧٠-١٦٦٣
الثامنة عشرة	المملكة الجديدة	١٢٩٣-١٥٧٠
التاسعة عشرة	المملكة الجديدة	١١٨٥-١٢٩٣
العشرون	المملكة الجديدة	١٠٧٠-١١٨٥

جدول (٢): فراعنة السلالة التاسعة عشر من المملكة الجديدة وتواريخ حكمهم (Clayton, 1994)

الفرعون	التاريخ (ق.م)
رمسيس الأول	١٢٩١-١٢٩٣
سيتي الأول	١٢٧٨-١٢٩١
رمسيس الثاني	١٢١٢-١٢٧٩
مرنبتاح	١٢٠٢-١٢١٢
أمينميسيس	١١٩٩-١٢٠٢
سيتي الثاني	١١٩٣-١١٩٩
سبتاح	١١٨٧-١١٩٣
الملكة تووسريت	١١٨٥-١١٨٧


http://kotob.has.it




http://kotob.has.it

مقدمة الطبعة العربية

أولى المسلمون منذ القدم إهتماما كبيرا بدراسة القرآن العظيم، وهو أقل ما يستحقّه كتاب الله ممن أنعم الله عليهم فأنزل كتابه إليهم ليهديهم اليه. فظهر عدد لا يحصى من الكتب والدراسات التي تناولت بالبحث مختلف جوانب كتاب الله العزيز. ومما لاشك فيه أن غالبية الباحثين بذلوا قصارى جهدهم في دراستهم للقرآن الكريم، مسخّرين كل ما كان في متناول أيديهم من معارف في خدمته. فلابد أن تكون دراسات مثل كتب التفسير التفصيلية قد تطلّبت من واضعيها بذل جهود إستثنائية هائلة، خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار محدودية الوسائل التي كانت مُتيسّرة لهم.

بالطبع، إن القرآن الكريم كتاب ديني بالدرجة الاولى. إلا أنه كتاب يستخدم في تبليغ رسالته الدينية الكثير من المعلومات المختلفة. ففي كتاب الله آيات كريمة تتناول مواضيعا، وفق تصانيف العلوم المعاصرة، طبية وفلكية وتاريخية وأنوائية، وغيرها، وكما في الآيات التالية على سبيل المثال لا الحصر:

يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (الحج: ٥).

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (يس: ٣٨).

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥). فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (سبأ: ١٦).

أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (النور: ٤٣).

لذلك فإن تفسير كتاب الله يتطلب إلماما بالكثير من العلوم المختلفة.

ولكن إذا كانت هنالك صفة لا تفارق المعارف والعلوم البشرية فهي تقدّمها المستمر. وتكفي نظرة سريعة الى تاريخ العلوم لإدراك هذه الحقيقة. وبسبب من التقدّم التكنولوجي الذي وصله العصر الحديث، وبالذات أختراع الحاسوب الذي أصبح جزءا أساسيا في مختلف الأجهزة المُستَخدَمة في شتى الأغراض، أصبح هذا التقدّم يسير بسرعة متزايدة ليس من المبالغة في شيء وصفها بالمُذهلة. فبينما إستغرق سقوط بعض النظريات القديمة قرونا في الماضي، أصبح زمن التقدم المعرفي اليوم يُقاس أحيانا بالايام. فما نتائج هذا على دراسة القرآن العظيم؟

إن القرآن العظيم هو كالشجرة الطيبة التي وصفها الله ﷻ بأنها «**تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**» (إبراهيم: ٢٥)، ومعجزات القرآن العظيم هي بعض من ثمرات هذا الكتاب الكريم التي لا تنقطع، ولذلك وصفه من أوحاه الله إليه وأرسله رحمة للعالمين ﷺ بأنه كتاب «لا تنقضي عِبَرُه ولا تفنى عجائبه». والقرآن سبق زمانه، بل أنه سابق لكل زمان. فكم من عِبَر في هذا الكتاب وعجائب لم تكشف نفسها إلا من بعد ان أتى الزمان بما يجعل الناس قادرين على رؤيتها. إنّ المعارف البشرية هي وسائل يمكن ان تؤدي الى رؤية بعض من جوانب الإعجاز الكامن في هذه الكتاب الكريم التي لم تكن سابقا ظاهرة لناظرها. فتقدّم المعارف يوفّر زوايا أخرى يُنظَر منها الى النص القرآني ويأتي بالتالي بفرص للإطّلاع على مظاهر من الإعجاز كانت من قبل خافية على العين والعقل.

فمن الذي كان يفهم مثلا عِظَم هذا القسم الإلهي: «**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ**» (الواقعة: ٧٥)؟ بل أن الله ﷻ نفسه أكّد جهل الإنسان هذا في الآية الكريمة التالية: «**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**» (الواقعة: ٧٦). ففي هذا العصر فقط ومن بعد أن تقدّمت المعرفة الفلكية، **بدأ** الأنسان في إدراك **بعض** من عظمة هذا القَسَم الذي أنزله الله قبل حوالي أربعة عشر قرنا من الزمان، في وقت كانت اعتقادات الناس مزيج من الخرافات والاساطير، ليبرهن بذلك على أن الكتاب الذي حمل هذا الخبر ذا منزلة خاصة ولا يشبه غيره من الكتب: «**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ**» (الواقعة: ٧٧). وسيبقى أدراك الإنسان لعظمة هذا القسم يزداد مع إزدياد معرفته للمسافات بين المجرات والنجوم والأجرام السماوية. إذا فلتقدّم المعرفة الانسانية تأثير كبير على فهم الإنسان لكتاب الله العزيز.

كان من النتائج الحتمية للمد المعرفي الهائل الذي شهده العصر الحديث ظهور التخصّص كلازمة من لوازم التعامل مع العلم. فإذا كان بإمكان الشخص في الماضي أن يكون موسوعيا الى حد ما في اهتماماته المعرفية فيُلِم بالعديد من العلوم المختلفة، فإن هذا لم يعد ممكنا في وقتنا الحاضر. وحتى حجم المعلومات **العامة** التي يمكن للمرء أن يلم بها هو محدود، ناهيك عن المعلومات التخصّصية.

فليس، على سبيل المثال، بإمكان فلكي اليوم أن يكون طبيبا وكيميائيا وعالم آثار في نفس الوقت. بل وعلى هذا الفلكي أن يتخصّص حتى ضمن مجاله العام، اي الفلك، فيدرس فرعا معيّنا من فروع هذا العلم الواسع.

إذا، تتطلب دراسة القرآن العظيم اليوم، اكثر من أي وقت مضى، مشاركة باحثين من أصحاب الإختصاصات المختلفة. إن هذا لا يعني بأن دراسة القرآن العظيم وتفسيره لا تتطلّب سوى معرفة عميقة بأحد فروع العلوم هذه. إذ ما فائدة دراسة الفلكي او الطبيب للقرآن العظيم إذا كان جاهلا بقواعد قراءة القرآن العظيم ومعانيه المحتملة والعلاقة بين الآيات المختلفة من الكتاب الكريم؟ إن أية محاولة خرقاء، لا تلتزم بالاصول والقواعد، لمطابقة حقائق علمية بآيات كريمة لن يكون مصيرها سوى الفشل، الذي يعني غالبا الوصول الى تفسير غير صحيح.

كما أن هنالك مسألة غاية في الأهمية يعرفها المشتغلون بالعلم أكثر من غيرهم، وهي أن النظريات العلمية والحقائق العلمية غالبا ما يكونان شيئين مختلفين. ولنأخذ مثالا توضيحيا. لقد سبق وان ذكرنا بأن العلم يعرف اليوم بأن هنالك مسافات هائلة بين النجوم. فهنالك الكثير من الوسائل، كالتلسكوبات مثلا، التي يمكن استخدامها لقياس هذه المسافات. إن دقة هذه التلسكوبات ليست بذات أهمية لأننا نتكلّم هنا عن مسافات **هائلة** بشكل عام لا عن أرقام **محدّدة**. بل وقام الأنسان برحلات الى القمر ونزل عليه، كما أرسل مركبات الى كواكب اخرى. أي أنه أختبر بعض هذه المسافات بشكل مباشر. إذا فوجود مسافات هائلة بين الأجرام السماوية هو **حقيقة علمية**. إلا أنّ هذا النوع من المعرفة التجريبية يختلف عن العلم النظري البحت، كنظريات نشوء الكواكب أو عمر الكون. فالتعامل مع هذا الاخير يتطلب الكثير من الحذر لأنه غالبا ما تتغير هذه النظريات من بعد أن تتبيّن عيوبها.

إن دراسة وتدارس وتدريس القرآن العظيم هو واجب على كل مسلم ومسلمة، كل على قدر طاقته، وهي مسؤولية يجب ان يتشرّف بحملها المسلمون. ويكفي تبيانا لعظمة الإنشغال بعلوم القرآن الإستشهاد بحديث رسول الله ﷺ «خيركم من تَعَلَّم القرآن وعَلَّمه». وبسبب من موسوعية القرآن وشموله على العديد من العلوم فإن من الضروري أن تتكاتف الجهود في دراسة هذا الكتاب الكريم. وهذا التعاون يساعد في الوصول الى فهم صحيح لكتاب الله.

إن حديث الرسول الكريم ﷺ اعلاه لا يتحدّث عن الخير في تعلّم القرآن بل وفي تعليمه أيضا. وتعليم القرآن لا يقتصر على تدارس المسلم للكتاب مع أخيه المسلم، وأنما يعني أيضا التعريف بهذا الكتاب وإيصال رسالته الى غير المسلم أيضا. إن هذه المهمة تتطلب إهتماما إستثنائيا ليس فقط

لوجود أعداد هائلة من الناس في مختلف بلاد العالم التي لا تعرف من القرآن إلا أسمه، ولكن لأن هنالك جهود تُبذَل بسخاء للمحافظة على جهل الناس بهذا الكتاب أو تشويه صورته.

لا تخفى على أحد، مسلما كان أم غير مسلم، ساكنا في بلاد المسلمين أم ساكنا في غيرها من البلاد، الحملة المُبرمجة والمستمرة التي تشنّها وسائل الاعلام الأمريكية والغربية على الإسلام. وبسبب المكانة التي تحتلها امريكا، وبدرجة أقل أوربا، في نظر بقية العالم فإنّ هذه الحملة قد أنتقلت الى أجهزة الإعلام في مختلف دول العالم غير الاسلامي. فما تردده الصحف او أجهزة الإذاعة والتلفزيون الامريكية والاوربية لا يلبث أن يصبح خبرا تتلاقفه أجهزة الاعلام في بقية دول العالم التي ترى في ذلك التقليد الأعمى دليلا على «مواكبتها للركب الحضاري».

إن من أبشع مظاهر المهزلة التي تمثّلها هذه الحملة العشواء هو أنها حملة غاية في الضحالة الفكرية ضد نظام فكري غاية في التعقيد والعمق. ويكفي هذه الحملة عاراً أنها تُقاد بشكل رئيس من قبل أجهزة إعلام الإثارة والتسلية الرخيصة التي ليس لها أصلا أي إهتمام بأي شيء فكري جاد. فهذه صحف ومجلات ومحطات راديو وتلفزيون ومواقع على شبكة الأنترنيت تمتلئ بالمعلومات التي تستهدف تشويه صورة الإسلام. إن من حق وسائل الإعلام بالتأكيد نقل الخبر والتعليق عليه. كما أن من حقّها بكل تأكيد أن تنتقد المُمارسات الخاطئة التي تُرتَكَب تحت إسم الإسلام. إلا أن التمييز بين الإسلام كفكر وبين ممارسات بعض من أنتحل إسم الإسلام غطاءا لأهداف لا علاقة لها بدين الله ليس بالأمر العسير الذي يتطلب مَلَكة خاصّة. لقد ظُلِم الإسلام من قِبَل من لا يعرف من حقيقته شيء.

قد تبدو هذه الحملة الظالمة من صنع مجموعة صغيرة من الجهلة من عامة الناس لتلبية حاجة مجتمع الجهلة الأكبر من العموم الذي يرون في رسالة الإسلام خطرا على مصالحهم وأنماط حياتهم. إلا أن الحقيقة المؤسفة هي أنه على الرغم من أن معظم ضحايا هذه الحملة هم من عامة الناس من مستهلكي الإعلام الرخيص اللاملتزم، فأنّ إدارة هذه الحملة هي في يد عقول مفكرة أدارتها وتديرها بذكاء ودهاء كبيرين. بل أنّ لهذه الحملة أمتدادات عميقة داخل النخبة المفكّرة في المجتمع الغربي، وتحديدا المجتمع الأكاديمي.

خلافا للحملة الشعبية لتشويه الإسلام، فإن الحملة الفكرية الأكاديمية على القرآن العظيم غير معروفة لمعظم الناس من غير المشتغلين بالبحوث الأكاديمية. إن إحد أشكال الحملة الأكاديمية ضد القرآن العظيم هو الدراسات التي تُنشَر للنيل من كتاب الله وإلصاق الإتّهامات به من دون أي وجه حق. ويكفي دليلا على بُعد هذه الحملة عن كل موضوعية ضحالة مستوى معظم هذه الدراسات. إلا

أننا فوجئنا خلال دراستنا للبحوث الأكاديمية المنشورة عن موضوع هذا الكتاب بشكل آخر من أشكال هذا **الإضطهاد الفكري** للقرآن العظيم وهو تجاهل الباحثين الغربيين بشكل كامل للقرآن الكريم. فبينما تجد الباحث الغربي غارقا الى أم رأسه في محاولة تفسير ما يقوله كتاب العهد القديم عن تاريخ بني إسرائيل المبكّر وأيجاد مخرج للتناقضات الداخلية التي يحفل بها، وبينما تراه يعالج بشكل دقيق كل ما له صلة من إكتشافات آثارية، فإنه ليس بأقل من ذلك حرصا على أهمال القرآن العظيم! لقد أجتهد الباحثون الغربيون في تاريخ بني إسرائيل المبكر في منع القرآن العظيم من أن يصبح مصدرا للبحث مع غيره من مصادر بحوثهم. وهذا هو في الواقع ما دفعنا الى نشر هذا الكتاب باللغة الأنكليزية قبل العربية وذلك لكسر هذا الحصار الظالم على كتاب الله العزيز. إن مشكلة الباحثين الذين أهملوا القرآن العظيم عمدا لا تقتصر على أنهم لا يعرفون بأن القرآن العظيم هو كتاب فريد يختلف عن غيره من الكتب، بل أنهم لا يريدون أن يعرفوا ذلك.

إن الجواب المطلوب على الحملة **الأكاديمية** غير النزيهة لتجاهل القرآن هو قيام الباحثين المسلمين بإدخال كتاب الله في المجال الأكاديمي بإعتماده مصدرا للمعلومات في البحوث الأكاديمية. إننا نأمل أن يكون كتابنا هذا خطوة على هذا الطريق.

لقد إشتكي رسول الله ﷺ إلى مُرسِله ﷻ قومه الذين تجاهلوا الكتاب الذي أرسله به: «**وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**» (الفرقان: ٣٠)، إلا أنه لم يهن ولم يضعف في تبليغ الرسالة. ويكفي المسلمين هذا مددا وحافزا على تبليغ كتاب الله الى كل مكان، ولن يخيب سعي خادم نور القرآن بل الخيبة هي مصير من يسعى لإخفاء النور بالظلمة: «**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**» (الصف: ٨).

مقدمة الطبعة الأنكليزية

كانت إقامة بني إسرائيل في مصر، ومن ثم خروجهم منها فإستقرارهم بعد ذلك في فلسطين، من أهم الأحداث التي أحتفى بها كتاب العهد القديم[1]. فالتاريخ المروي في العهد القديم هو بشكل رئيس تاريخ بني إسرائيل الذين يصفهم ذلك الكتاب بأنهم «شعب الرب المختار» والمركز الذي تتمحور حوله خطط الرب للإنسانية جمعاء. لذلك ليس غريبا أن تُعطى هذه الأهمية الاستثنائية لإقامة بني إسرائيل في مصر وخروجهم منها ومن ثم إستقرارهم في فلسطين، إذ ان هذه الأحداث تمثل ولادة أمّة بني إسرائيل.

لم يهتم عموم الناس فحسب من اليهود والمسيحيين بإقامة بني إسرائيل في مصر، فالخروج، فالإستقرار في فلسطين، وإنما جذبت كل حلقة من هذه الحلقات من مسلسل تاريخ بني إسرائيل اهتمام الباحثين المتخصّصين الذين درسوا كلا منها بالتفصيل. كما نُشرت ولا تزال تُنشر آلاف الكتب والمقالات، العامة والأكاديمية التخصّصية، ونُظِّمَت وتُنَظَّم اللقاءات والمؤتمرات الثقافية لمناقشة كل تفاصيل الاقامة في مصر والخروج منها والاستقرار في كنعان. ويمكن تقسيم إهتمام الباحثين بحلقات مثلث الحوادث هذا الى نوعين: إهتمام ديني لاهوتي وآخر تاريخي. أما اهتمامنا في هذا الكتاب فسيتركّز على الجانب التاريخي لهذه الحوادث.

بينما يهتم اللاهوتيون بالدلالات الدينية لمسلسل الأحداث هذا، ينصب إهتمام المؤرخين بشكل أساسي على القيمة التاريخية لهذه الأحداث، ولكافة حوادث العهد القديم الأخرى ايضا طبعا. بعبارة أخرى، خلافا للاهوتيين، لا يهتم المؤرّخون بالدلالات الدينية لهذه الأحداث، ولكن فيما اذا كانت قد وقعت فعلا، وإن كانت قد حصلت فعلا، هل حدثت كما وُصفت في العهد القديم. وبينما ليس للدراسات اللاهوتية دلالات على تاريخية هذه الاحداث، فإن للدراسات التاريخية لهذه الوقائع نتائج على لاهوتيّتها لأنه لا يمكن أن تكون لحادثة ما اهمية دينية ما لم تكن حادثة تاريخية فعلا، أي قد حصلت حقا.

تلقّى البحث في تاريخية مسلسل أحداث الإقامة-الخروج-الإستقرار زخما مستمرا، بدء في أواخر القرن التاسع عشر، متمثّلا في البيانات المتزايدة الناتجة من البحوث والتحريات الآثارية في

---

[1] «العهد القديم» Old Testament هو الكتاب الذي يعتبره اليهود والنصارى كتابا إلهيا وينسبون بعض اجزاءه الى موسى واجزاءه الاخرى الى انبياء اخرين.

مصر وفلسطين والأردن بصورة خاصة وفي الشرق الأوسط بشكل عامة. ولم يعد المؤرخون مضطرون إلى الإعتماد فقط على رواية العهد القديم التي تتناول تاريخ تلك الحقبة وعلى كتابات يهودية أخرى من تعليقات وتفسيرات على رواية العهد القديم. فقد وجد المؤرخون المهتمون بتاريخية أحداث العهد القديم في اللقيّات الآثارية مصادر تاريخية موضوعية مستقلة تماما عن العهد القديم. فبدأت بذلك مرحلة تمحيص رواية العهد القديم على ضوء البيانات الجديدة. مثّل هذا في نظر الكثيرين بداية فرع جديد تماما في البحث الأكاديمي هو «علم آثار العهد القديم» Biblical archaeology. بعبارة أخرى، كان العلماء في السابق مضطرين الى الإعتماد بشكل كلي على العهد القديم بينما يوجد الان حجم متزايد من معلومات التحريات الآثارية المُستخلَصة من مصادر مستقلة عن العهد القديم.

إلا ان إهتمام الباحثين هذا بالمعلومات من خارج العهد القديم، على هيئة لقيّات آثارية، يتناقض تماما مع إصرارهم على إهمال مصدر معلومات مستقل عن العهد القديم يعود تاريخه الى الثلث الأول من القرن السابع للميلاد: القرآن العظيم. صحيح أن القرآن العظيم ليس كتاباً تاريخياً تقليدياً كالعهد القديم وأنه يذكر معلومات مختصرة فقط عن تاريخ بني إسرائيل القديم. الا انه يحتوي مع ذلك على معلومات مهمة كما ونوعا. بالإضافة الى هذا، فإن القرآن العظيم يقدّم نفسه على أنه كتاب موحى من الله تعالى خالق هذا الكون ومؤرّخه المثالي العالم بكل شيء، مبيّنا بأنه مستقل تماما عن كافة أشكال الموروثات التراثية، المكتوبة والشفهية، التي كانت متداولة في عصر نزوله بين الناس. كما يشير القرآن الكريم الى أن العهد القديم ليس بمصدر ينطق بالحق، وبالتالي فإن معلوماته التاريخية لا يمكن الوثوق بها. بالنظر الى النتائج المهمّة المترتّبة على هذه الإدّعات، يتوقع المرء بأنه لابد وأن يكون القرآن العظيم قد حظي بإهتمام ودراسة مؤرخي حادثة خروج بني إسرائيل من مصر، وكذلك الباحثين في مجالات اخرى، لتحديد ما إذا كان فعلا أكثر مصداقيّة من العهد القديم حين يُقارَن ما ورد فيه بالأدلة من مصادر خارجية. إلا ان هذا لم يحصل.

ترينا الكتابات الأكاديمية عن واقعة الخروج تشبّث الباحثين بيأس بكل شظية من فخاريات قديمة تم أستخراجها من مواقع آثارية، أو جدلهم حول قراءة أو ترجمة بضع كلمات في كتابات قديمة تكاد بالكاد أن تبين وذلك لإثبات فكرة أو أخرى. ومع ذلك فقد أهمل هؤلاء الباحثون القرآن العظيم تماما. وبينما تقرأ الصفحات تلو الصفحات من البحوث والكتب الأكاديمية عن الخروج متوقّعا العثور على إشارة الى الرواية القرآنية عن هذه الحادثة والحوادث ذات العلاقة، تكتشف بأن توقعك لم يكن في محله. ثم تُقلِّل توقّعاتك الطموحة لتقصرها على الامل بالعثور على شيء يفسّر هذه الحالة الغامضة

ويشرح سبب هذا الصمت العالمي عن الرواية القرآنية. ولكن حتى هذه الامنية المتواضعة لا تتحقق. قد تجد بعض الإشارات الى مصادر يهودية قديمة متعلّقة بالعهد القديم نفسه، إلا أن الشيء الوحيد الذي تجده عن الرواية القرآنية هو هذا الصمت المُطبَق.

هنالك فرضيتان فقط لا ثالث لهما يمكن ان تفسّرا هذا الصمت **الأكاديمي** تجاه القرآن العظيم والإعتماد التام على رواية العهد القديم لتاريخ بني إسرائيل القديم. الفرضية الأولى هي أن العهد القديم يمثّل رواية حق للأحداث، وبذلك فإن أي مصدر آخر يأتي بما يناقض العهد القديم لا يمكن ان يحظى بمكانته، وليست هنالك حاجة اليه ويجب بالتالي أن يُهمَل. إلا إن عصمة العهد القديم المزعومة هذه لم تعد أمراً مقبولاً على الاطلاق في نظر دارسي هذا الكتاب. لذلك، يجب إهمال هذه الفرضية. لم يبق لنا إذا سوى الفرضية الثانية وهي النظر الى القرآن على أنه مشتق من العهد القديم، وبالتالي لا يمكن إعتماده كمصدر مستقل عنه. وفعلا، حين يُكسر الصمت عن القرآن العظيم في بعض الحالات النادرة فإن هذا لا يحدث الا للإشارة الى أن القرآن الكريم ليس سوى نسخة محورة عن العهد القديم!

إن هذه الفرضيّة الإتّهاميّة التي تقف وراء الإهمال التام للقرآن العظيم في بحوث حوادث الخروج هي قديمة قِدَم القرآن العظيم نفسه. فعندما كان القرآن العظيم لا يزال يوحى الى الرسول محمد ﷺ، ظهرت ادعاءات، وهو أمر ذكره القرآن الكريم نفسه، بأن الرسول ﷺ لم يكن يتلقّى وحيا من الله وإنما كان يتلقى علما من شخص له معرفة بكتب اليهود والمسيحيين. ولم تفقد هذه النظرية جاذبيتها على مر القرون وبقيت كامنة في أذهان الكثير.

يشير باحثو العهد القديم الى تشابهات بين القرآن العظيم والعهد القديم، حيث يعتبر الكثيرون منهم هذا كافيا للأستنتاج بأن القرآن العظيم مشتق من العهد القديم. إن نظرة سريعة إلى القرآن العظيم تبين فعلا وجود تشابهات مع العهد القديم. ولكن القرآن العظيم نفسه يشير ضمنيّا إلى أن العهد القديم مشتق جزئيا من كتاب إلهي أصيل هو «التوراة»، ولذلك فإن وجود تشابهات هو امر متوقع بالتأكيد. بالإضافة الى ذلك فإن هذه التشابهات جد محدودة وأن الإختلافات بين الكتابين هي أكبر بكثير، كماً ونوعاً. إن هذه العبارة الاخيرة تنطبق أيضا على رواية القرآن العظيم ورواية العهد القديم عن تاريخ بني إسرائيل. لذلك فإن المنحى الصحيح في تقييم الرواية القرآنية لتاريخ بني إسرائيل هو تمحيصها بشكل دقيق، وأن يُخصَّص لها ولو جزء يسير من الوقت والجهد الذين مُنِحا بسخاء للعهد القديم والذين لم يكن لهما على مر السنين الطويلة، وكما سيوضح هذا الكتاب، سوى مردود ضئيل. لو فعل المهتمون بتاريخ الخروج ذلك لوجدوا في الرواية القرآنية قصة متماسكة ومتناسقة الاجزاء وفي

توافق تام مع الأدلة من المصادر الخارجية. كما كان ذلك سيجنّبهم الإرتباك الهائل الذي تخلقه تناقضات رواية العهد القديم في ذهن قارئها.

إن هدف هذا الكتاب هو البرهنة على النقاط الثلاث التالية. أولا، لما كان التماسك هو صفة للنص القرآني بشكل عام، فإن الرواية القرآنية للخروج لا تحتوي على أي تناقض داخلي[٢]. ثانياً، يخلو القرآن الكريم تماما من إدعاءات العهد القديم، أو إية إدعاءات آخرى، تخالف أدلة من مصادر خارجية. بعبارة اخرى، لا توجد آية قرآنية كريمة واحدة تتناقض مع حقيقة تاريخية ثابتة ومؤكدة. ثالثا، يكشف القرآن العظيم عددا من الحقائق عن الخروج توضّح بدون لبس شخصية الفرعون الذي شهد حادثة الخروج. إن المعنى الضمني للبرهنة على هذه النقاط هو ببساطة أن هذا القرآن وحي من المؤرخ الحق، الله ﷻ.

من الضروري التأكيد على ان كتابنا هذا لا يتبع التقليد الشائع بين الباحثين في محاولة عقلنة المعجزات وعرضها على انها أحداث عادية لإقناع القارئ غير المؤمن أوالمشكِّك بصدق حدوثها. إن هذا الكتاب يضادد بشدة هذا الأسلوب الرامي الى التلاعب بالحقيقة لجعلها ملائمة لأذواق الناس وعقولهم بدلا من محاولة تغيير تلك العقول والأذواق لتتقبل المعجزة. ولا عجب في ذلك، حيث أن الهدف الاساسي لهذا الكتاب هو تسليط المزيد من الضوء على حقيقة أن القرآن هو أعظم معجزة في كل الأزمان. إن هذا الكتاب يهدف الى تحديد السياقات والخلفيات التاريخية التي حدثت فيها المعجزات. من الصحيح القول بأن التاريخ يتشكّل بصورة أساسية من أحداث عادية وطبيعية، إلا أن المعجزات أيضا قد أسهمت بشكل مؤثّر في قيادة التاريخ الى ما أصبح عليه، وستبقى تسهم في صنع التاريخ. إن عبور النبي موسى ﷺ مع بني إسرائيل البحر كان إحدى هذه المعجزات التي بدونها كان تاريخ العالم سيكون مختلفا تماما عما هو عليه اليوم.

إن صورة خروج بني إسرائيل والأحداث المصاحبة التي سيتم وصفها في هذا الكتاب مبنيّة بشكل كامل على رواية القرآن العظيم. وتبعنا في تفسير النص القرآني قاعدة «القرآن يفسر بعضه بعضا». ولما كان هدف الكتاب الرئيس هو إبراز الرواية القرآنية لإقامة بني إسرائيل في مصر ومن ثم خروجهم منها، والى حد ما إستقرارهم لاحقا في فلسطين، فلن يكون هنالك تركيز على كشف **كل** ما موجود من تناقضات داخلية في العهد القديم وما يحتويه من تناقضات مع أدلة من مصادر خارجية، وانما سيقتصر أهتمامنا على تلك التناقضات التي لها علاقة بنقاش الكتاب.

---

[2] يُستعمَل تعبير «تناقض داخلي» في هذا الكتاب للاشارة الى اي تناقض بين الاجزاء المختلفة للنص الواحد، فيما أستُخدِمت صيغ مختلفة للإشارة الى حالات تناقض النص مع حقائق مبرهنة مستقلّة عنه، أي من مصادر خارجية.

فيما يلي ملاحظات عامة عن تنسيق الكتاب. لقد حرصنا على ذكر المراجع الكاملة حيثما شعرنا بوجود ضرورة لذلك. قمنا كذلك بإستخدام خط خاص للآيات القرآنية الكريمة يختلف عن الخط المستعمل لنص الكتاب، كما ميّزنا نصوص العهد القديم بخط مائل. وأستخدمنا خطاً غامقاً للتأكيد على بعض الكلمات او العبارات في النص.

فيما يلي نبذة مختصرة عن محتويات الكتاب. يقدّم الفصل الأول رواية الخروج كما وردت في العهد القديم، ثم يناقش بعضاً من تناقضاتها الداخلية. اما الفصل الثاني فيقارن بين رواية العهد القديم لقصة إقامة بني إسرائيل في مصر وخروجهم منها مع أدلّة من مصادر خارجية لإكتشاف السياقات التاريخية لقصة العهد القديم. كما يبيّن الفصل هوية فرعون الخروج، أي وقت الخروج، من خلال بعض المعلومات في العهد القديم، مع الإشارة الى وجود معلومات أخرى متناقضة في مواقع آخر من ذلك الكتاب. ثم نأتي الى الفصل الثالث الذي يمثّل مقدمة عامة عن القرآن العظيم وعن محتوياته وأسلوبه. ويتضمّن الفصل الرابع دراسة نقدية لطبيعة العهد القديم وتاريخه. ويحتوي الفصل على عرض مختصر لتاريخ تطور نظرة الباحثين الغربيين الى العهد القديم، تتبعه دراسة مستفيضة عن ظاهرة العهد القديم على ضوء ما ورد في القرآن العظيم. كما يتناول هذا الفصل كتاب العهد الجديد، الذي يقدّسه المسيحيّون، حيثما كانت هنالك ضرورة. ويهتم باقي الكتاب بهدفه الرئيس وهو دراسة التاريخ المبكر لبني إسرائيل كما وصفه القرآن العظيم، ومقارنة الوصف القرآني مع الحقائق التاريخية الموثوقة. يتطرق الفصل الخامس الى المرحلة الأولى لإقامة بني إسرائيل في مصر، اي دخول بعض من يشير اليهم العهد القديم بتعبير «الآباء» وهم الأنبياء يعقوب ﷺ واولاده، حيث يتم تحديد تاريخ ومكان دخولهم الى مصر.

يتضمّن الفصل السادس مُلخّصاً للرواية القرآنية لقصة موسى ﷺ مع الاستشهاد بالنصوص القرآنية من اربع من السور الكريمة التي تضمنت اطول سرد لهذه القصة. اما الفصل السابع فيحلّل النصوص القرآنية لقصة موسى، ويبيّن لأول مرة بأن القرآن العظيم قد حدّد وبشكل لا يقبل اللَبس شخصية فرعون الخروج. يعتمد هذا التحديد على كشف الوحي القرآني المُذهِل قبل حوالي أربعة عشر قرنا لمعلومات لم يتم إلا في العصر الحديث معرفة إنطباقها بشكل دقيق على هذا الفرعون. كما يحدّد هذا الفصل أيضا التاريخ الدقيق للخروج. ثم يشرح الفصل الثامن الصورة القرآنية للخروج ويبيّن، مرة أخرى، توافقها المُذهل مع الأدلة الموثوقة من مصادر خارجية. ويحدّد هذا الفصل التاريخ الدقيق لدخول بني إسرائيل الى الأرض المُقدّسة. ثم يدرس الفصل التاسع قصتي ولادة النبيين موسى وعيسى في كل من القرآن العظيم والعهدين القديم والجديد. ومرة أخرى تتجلّى

التناقضات بين روايات العهدين القديم والجديد والحقائق التاريخية الثابتة بينما نرى اتفاق هذه الحقائق الواضح مع الرواية القرآنية. اما الفصل العاشر والأخير فيتناول بالبحث المشاكل التاريخية المرتبطة بإسمي «عبري» و «نصراني». وهنا أيضاً يكشف النص القرآني بدقة إعجازية حقيقة هذين الاسمين وخلفيّتيهما التاريخيّتين، على عكس المعلومات الخاطئة في العهدين القديم والجديد. ويحتوي القسم الأخير من الفصل العاشر على مناقشة لمصطلح «مسلم» ودلالاته. ثم يلخّص الإستنتاج بعض النقاط الرئيسة التي وردت في الكتاب.

إننا نأمل أن يبدأ هذا الكتاب نقاشاً جادّاً للنص القرآني عن إقامة بني إسرائيل في مصر وخروجهم منها ثم إستقرارهم في فلسطين. نحن نعتقد بقوة بأننا برهنّا في بحثنا على ضرورة تقديم المزيد من المساهمات حول هذا الموضوع، وغيره من أجزاء القرآن العظيم. إن أحدى الرسائل التي يحملها هذا الكتاب هي: سواء نُسِي، أُهمِلَ، أو هُجِرَ، سيبقى القرآن العظيم موجودا وستتجلى قوة حجّته مع مرور الزمن وتطور العلوم والمعارف الإنسانية.

١

قصة العهد القديم لخروج بني اسرائيل من مصر وتناقضاتها الداخلية

١-١ الخروج في العهد القديم

ينتهي «التكوين»، وهو السفر أو الكتاب الأول في كتاب العهد القديم، بقصة إستقرار النبي يعقوب ﷺ وأبنائه في مصر، حيث كان إبنه النبي يوسف ﷺ قد أستقرّ قبل ذلك بسنين عديدة. وتبدأ قصة النبي موسى ﷺ مع بداية السِفر الثاني، المُسمّى بـــ «الخروج»، وتستمر لتشغل الأسفار الثلاثة التالية: «اللاويّين» و «العدد» و «التثنية». وتشكّل هذه الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم ما يُسمّى بـــ «أسفار موسى الخمسة» أو «الأسفار الخمسة» Pentateuch، أو «التوراة» كما يسميها اليهود.

بينما يشمل سفر التكوين، بصورة رئيسة، تاريخ بعض الأفراد المقدَّسين والمُهمّين من الانبياء الذين يُشار اليهم بتعبير «الآباء»، وهم أنبياء الله ابراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وأبناؤه الإثنا عشر، يهتم الخروج وما تليه من أسفار بنسل النبي يعقوب المتمثّل في أُمّة «بني إسرائيل»، حيث يمثّل «اسرائيل» الإسم الذي أُطلِقَ على النبي يعقوب لاحقا.

سيهتم هذا الكتاب بالسفر الثاني فقط من الأسفار الخمسة الاولى من العهد القديم. وفي الواقع أن ما ذُكِرَ في سفر الخروج من احداث ذات صلة بموضوع كتابنا هذا لا يمثّل سوى جزءاً صغيراً من ذلك السفر. لذلك، فستقتصر الاقتباسات التالية على ما له علاقة ببحثنا.

هكذا يبدأ سِفر الخروج:

وهذه أسماء بني إسرائيل الذين جاءوا الى مصر. مع يعقوب جاء كل إنسان [فرد منهم][٣] وبيته

[3] إن الترجمة العربية للعهدين القديم والجديد المتوفّرة لنا والتي استخدمناها في هذا الكتاب هي ترجمة سمث وفان دايك Smith and Van Dyke التي تعود الى عام ١٨٦٥م. في هذه الترجمة الكثير من الركاكة، كما تحتوي على أخطاء

[وعائلته]. رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون وبنيامين ودان ونفتالي وحاد وآشير. وكانت جميع نفوس الخارجين من صلب يعقوب سبعين نفساً. ولكن يوسف كان في مصر. ومات يوسف وكل أخوته وجميع ذلك الجيل. وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرا جدا وأمتلأت الأرض منهم.

ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف. فقال لشعبه هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا. هلم نحتال لهم [عليهم] لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون الى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون [ويخرجون] من الأرض [البلاد]. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم. فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس. ولكن بحسبما أذلوهم هكذا [رغم هذا الذل] نموا وأمتدوا. فأختشوا [فخاف المصريون] من بني إسرائيل. فأستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف. ومرّروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل. كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفا [إستخدم المصريّون بني إسرائيل بلا رحمة].

وكلّم ملك مصر قابلتَي العبرانيات اللتين إسم إحداهما شِفرة وأسم الأخرى فوعة. وقال حينما تولّدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسي [اي كراسي الولادة]. إن كان إبنا فأقتلاه وإن كان بنتا فتحيا. ولكن القابلتين خافتا الله ولم تفعلا كما كلّمهما ملك مصر. بل إستحيتا الأولاد. فدعا ملك مصر القابلتين وقال لهما لماذا فعلتما هذا الأمر وإستحييتما الأولاد. فقالت القابلتان لفرعون إن النساء العبرانيات لسن كالمصريات. فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة. فأحسن الله الى القابلتين. ونما الشعب وكثر جدا. وكان إذا خافت القابلتان الله أنه صنع لهما بيوتا [بسبب خوف القابلتين من الله رزقهما الله بعائلة خاصة بهما]. ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلا كل ابن يولد تطرحونه في النهر. لكن كل بنت تستحيونها (الخروج، ١: ١-٢٢).

بعد هذه الإشارة المقتضبة الى الحالة البائسة لبني اسرائيل المضطهدين في مصر، يباشر العهد القديم بسرد قصة موسى، النبي الذي كان مكتوبا له أن يصبح محرّر بني إسرائيل من عبودية واضطهاد فرعون، بدءا بولادته:

وذهب رجل من بيت لاوي وأخذ [تزوّج] بنت [من قبيلة] لاوي. فحبلت المرأة وولدت إبناً. ولما رأته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر. ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد أخذت له سفطا من البردي وطلته بالحمر والزفت ووضعت الولد فيه ووضعته بين الحلفاء على حافة النهر. ووقفت أخته من بعيد

قواعدية كثيرة إلى الحد الذي يجعل الكثير من مقاطعها صعبة الفهم أو ذات معنى خاطئ، وهو أمر يمكن التأكد منه بمقارنتها بترجمة ذلكما الكتابين في لغات اخرى. لذلك أرتأينا إضافة كلمات أو عبارات، بين أقواس مربعة، إلى النص لتوضيح المعنى في بعض الحالات.

لتعرف ماذا يفعل به.

فنزلت ابنة فرعون الى النهر لتغتسل وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر. فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمَتها وأخذته. ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبي يبكي. فرقّت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين. فقالت أخته لإبنة فرعون هل أذهب وأدعو لك إمرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد. فقالت لها ابنة فرعون اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أم الولد. فقالت لها ابنة فرعون إذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطي أجرتك. فأخذت المرأة الولد وأرضعته. ولما كبر الولد جاءت به الى ابنة فرعون فصار لها ابنا. ودعت اسمه موسى وقالت إني أنتشلته من الماء.

وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج الى إخوته لينظر في أثقالهم [ليطلع على أشغالهم الشاقة]. فرأى رجلا مصريا يضرب رجلا عبرانيا من إخوته. فالتفت الى هنا وهناك ورأى أن ليس أحد [لم يكن يره أحد] فقتل المصري وطمره في الرمل. ثم خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان. فقال للمذنب لماذا تضرب صاحبك. فقال من جعلك رئيسا وقاضيا علينا. أمفتكر أنت [أتفكر] بقتلي كما قتلت المصري. فخاف موسى وقال حقا قد عُرِفَ الأمر. فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى. فهرب موسى من وجه فرعون وسكن في أرض مديان وجلس عند البئر (الخروج، ٢: ١-١٥).

ثم يخبرنا العهد القديم بعد ذلك كيف ساعد موسى سبع فتيات في سقي ماشيتهن في مدين، وهو أمر أدى الى دعوة والد الفتيات لموسى الى بيته وتزويجه إحداهن، صفّورة، التي ولدت له إبناً. وهنا يذكر العهد القديم خبراً ذا دلالة خاصة كما سنرى لاحقا: «*وحدث في تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات*» (الخروج، ٢: ٢٣).

يتحدث سِفر الخروج في الفصل او الإصحاح التالي عن تكلم الله مع موسى:

وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه [حماه] كاهن مديان. فساق الغنم الى وراء البرية وجاء الى جبل الله حوريب. وظهر له ملاك الرب حوريب. وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عُليقة [شجيرة]. فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تحترق. فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم. لماذا لا تحترق العليقة. فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه من وسط العليقة وقال موسى موسى. فقال ها أنذا (الخروج، ٣: ١-٤).

فقال الرب إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخّريهم. إني علمت أوجاعهم. فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم [وأخرجهم] من تلك الأرض الى أرض جيدة وواسعة. الى أرض تفيض لبنا وعسلا. الى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين

والفرزيين والحوّيين واليبوسيين. والآن هوذا صراخ بني إسرائيل قد أتى إليَّ ورأيتُ أيضاً الضيقة التي يضايقهم بها المصريون. فالآن هلم فأرسلكَ الى فرعون وتُخرج شعبي بني إسرائيل من مصر (الخروج، ٣: ٧-١٠).

ثم يتكلم العهد القديم عن بعض معجزات موسى:

فأجاب موسى وقال ولكن هاهم لا يصدقونني ولا يسمعون لقولي. بل يقولون لم يظهر لك الرب. فقال له الرب ما هذه في يدك. فقال عصا. فقال إطرحها الى الأرض. فطرحها الى الأرض. فصارت حية. فهرب موسى منها. ثم قال الرب لموسى مد يدك وأمسك بذنبها. فمد يده وأمسك به. فصارت عصا في يده. لكي يصدقوا أنه قد ظهر لك الرب إله آبائهم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب.

ثم قال له الرب أدخل يدك في عبك. فأدخل يده في عبه. ثم أخرجها وإذا هي بيضاء مثل الثلج. ثم قال له رد يدك الى عبك فرد يده الى عبه ثم أخرجها من عبه وإذا هي قد عادت مثل جسده. فيكون إذا لم يصدقوك ولم يسمعوا لصوت الآية الأولى أنهم يصدقون صوت الآية الأخيرة. وإذا لم يصدقوا هاتين الآيتين ولم يسمعوا لقولك أنك تأخذ من ماء النهر وتسكب على اليابسة فيصير الماء الذي تأخذه من النهر دما يابسا (الخروج، ٤: ١-٩).

ثم يذكر العهد القديم أن موسى أشتكى الى الله من بطئه في الكلام وثقل في لسانه ورجاه أن يعينه بشخص آخر، فغضب الرب على موسى لهذا السبب وأخبره أنه سيرسل أخاه هارون معه ليتكلم الى الناس نيابة عنه.

بعد ذلك عاد موسى الى والد زوجته وطلب موافقته لكي يعود الى قومه في مصر. وهنا يؤكد العهد القديم، ولكن بشكل ضمني هذه المرة، بأن فرعون كان قد مات، لأن الرب أخبر موسى أن كل من كان يريد قتله قد مات:

فمضى موسى ورجع الى يثرون حميه وقال له انا اذهب وارجع الى اخوتي الذين في مصر لأرى هل هم بعد أحياء. فقال يثرون لموسى اذهب بسلام.

وقال الرب لموسى في مديان أذهب إرجع لمصر. لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك. فأخذ موسى إمرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع الى أرض مصر. وأخذ موسى عصا الله في يده (الخروج، ٤: ١٨-٢٠).

ثم نأتي الى تفاصيل أول مواجهة لموسى وهارون مع فرعون، حيث طلبا من فرعون السماح لقومهما للقيام برحلة الى الصحراء تستغرق ثلاثة أيام فقط:

وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليعيّدوا لي في البرية. فقال فرعون من هو الرب حتى أسمع لقوله فأُطلق إسرائيل. لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه. فقالا إله العبرانيين قد ألتقانا. فنذهب سفر ثلثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا. لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف. فقال لهما ملك مصر لماذا يا موسى وهارون تبطلان الشعب من اعماله. إذهبا الى أثقالكما. وقال فرعون هوذا الآن شعب الأرض كثير وأنتما تريحانهم من أثقالهم.

فأمر فرعون في ذلك اليوم مسخري الشعب ومدبريه قائلا لا تعودا تعطون الشعب تبنا لصنع اللِّبن كأمس وأول من أمس. ليذهبوا هم ويجمعوا تبنا لأنفسهم. ومقدار اللِّبن الذي كانوا يصنعونه أمس وأول من أمس تجعلون عليهم. لا تنقصوا منه. فإنهم متكاسلون لذلك يصرخون قائلين نذهب ونذبح لإلهنا. ليثقّل العمل على القوم حتى يشتغلوا به ولا يلتفتوا الى كلام الكذب (الخروج ٥: ١-٩).

بعد تفصيله لمعاناة بني إسرائيل في محاولتهم تحقيق مطالب الفرعون القاسية، وإشارته الى تحميلهم موسى ذنب زيادة معاناتهم هذه، يذكر العهد القديم، وبلغة لا لَبَس فيها، بأن موسى قام بدوره بتوجيه اللوم الى الله! فيما يلي الفقرات المقصودة:

فرأى مدبروا بني إسرائيل أنفسهم في بليَّة إذ قيل لهم لا تنقصُوا من لبِنكم أمر كل يوم بيومه. وصادفوا موسى وهرون واقفين للقائهم حين خرجوا من لدن فرعون. فقالوا ينظر الرب إليكما ويقضي. لأنكما أنتنتما رائحتنا في عيني فرعون وفي عيون عبيده حتى تعطيا سيفا في أيديهم ليقتلونا. فرجع موسى الى الرب وقال يا سيد لماذا أسأت الى هذا الشعب. لماذا أرسلتني. فإنه منذ دخلت الى فرعون لأتكلم بإسمك أساء الى هذا الشعب. وأنت لم تخلص شعبك (الخروج ٥: ١٩-٢٣).

ثم نقرأ الجملة التالية: «*وكان موسى ابن ثمانين سنة وهرون ابن ثلاث وثمانين سنة حين كلّما فرعون*» (الخروج، ٧: ٧) التي سنشير الى دلالاتها لاحقا.

ويصف العهد القديم أول معجزة قام بها موسى أمام فرعون لإقناعه بأنه مُرسَل من الله وأن على فرعون السماح له بإخراج بني إسرائيل في رحلة الصحراء القصيرة:

وكلّم الرب موسى وهرون قائلا. إذا كلمكما فرعون قائلا هاتيا عجيبة تقول لهرون خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعبانا. فدخل موسى وهرون الى فرعون وفعلا هكذا كما أمر الرب. طرح هرون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعبانا. فدعا فرعون أيضا الحكماء والسحرة. ففعل عرّافو مصر بسحرهم كذلك. طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين. ولكن عصا هرون إبتلعت عصيهم. فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب (الخروج، ٧: ٨-١٣).

ثم يتحدث العهد القديم عن قيام موسى بمعجزات اخرى على شكل عشر كوارث تَمكّن سحرة فرعون من محاكاة أول إثنتين منها. هذه الكوارث هي تحويل ماء النيل الى دم، خروج أعداد هائلة من الضفادع من الماء وتغطيتها لأرض مصر، تحويل تراب مصر الى بعوض هاجم البشر والحيوانات، هجوم الذباب على قصر فرعون وبيوت حاشيته ومصر بشكل عام، موت كل الماشية التي تعود للمصريين، ظهور بثور متقيحة على البشر والحيونات، سقوط البَرَد على جميع ارض مصر باستثناء المنطقة التي كان يسكنها بنو اسرائيل، هجوم اسراب الجراد على ارض مصر وقضائهم على ما بقي من المحاصيل التي لم يأت عليها البَرَد، تغطية مصر بالظلام لمدّة ثلاثة ايام متتالية، وموت الأبكار من مواليد المصريين ومن مواليد حيواناتهم.

خلال الكوارث التسع الأول التي ضربت بلاده وشعبه بقسوة، أظهر فرعون درجات مختلفة من التنازل الا انه لم يرضح أبدا لجميع ما طلبه موسى. بعد الكارثة الرابعة: «*فدخلت ذُبّان كثيرة الى بيت فرعون وبيوت عبيده. وفي كل أرض مصر خربت الأرض من الذُبّان*» (الخروج، ٨: ٢٤)، أقترح فرعون ان يسمح لبني إسرائيل تقديم قرابينهم في مصر بدلا من الصحراء، ولكن موسى رفض هذا الإقتراح. بعد ذلك، وعندما هدد موسى فرعون بجلب أسراب جراد لتلتهم المتبقي من المحاصيل التي كان البَرَد قد أتى على معظمها ولتملأ بيوت المصريين، سأل فرعون موسى عمن سيذهب للتعبد في الصحراء، أجابه موسى: «*نذهب بفتياننا وشيوخنا. نذهب ببنينا وبناتنا بغنمنا وبقرنا*» (الخروج، ١٠: ٩). ولكن بسبب شكوكه في نوايا بني إسرائيل وراء طلبهم مغادرة مصر مع ممتلكاتهم، عرض فرعون السماح بمغادرة الرجال فقط من بني إسرائيل، إلا أن موسى رفض هذا العرض أيضاً.

بعد كارثة الظلام، عندما جعل موسى الظلام يعم مصر ثلاثة أيام، دعا فرعون موسى مرة أخرى الى قصره ليعرض عليه اقتراحا أفضل هذه المرة: «*إذهبوا أعبدوا الرب. غير أن غنمكم وبقركم تبقى. أولادكم أيضاً تذهب معكم*» (الخروج، ١٠: ٢٤). إلا أنّ موسى رأى ان هذا الطلب لا يلبي ما كان يريد. ثم يشير العهد القديم أخيرا الى أنه بعد الكارثة الأخيرة، حين قُتِل ليلا المواليد الأبكار للمصريين ولحيواناتهم دون بني اسرائيل، وافق فرعون لفرط يأسه على كل مطالب موسى: «*قوموا اخرجوا من بين شعبي أنتما وبنو إسرائيل جميعا. واذهبوا أعبدوا الرب كما تكلمتم. خذوا غنمكم وبقركم كما تكلمتم واذهبوا. وباركوني أيضاً*» (الخروج، ١٢: ٣١-٣٢).

يشير العهد القديم الى ان بني اسرائيل، وإتباعا لأمر الرب، «*سلبوا المصريين*» امتعة قبل مغادرتهم مصر بآلافهم الكثيرة، مُنهين بخروجهم هذا ٤٣٠ سنة من الإقامة في تلك الأرض:

وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى. طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين.
فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس الى سكوت نحو ست مئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد. وصعد معهم لفيف كثير أيضاً مع غنم وبقر ومواش وافرة جدا (الخروج، ١٢: ٣٥-٣٨).

وأما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربع مئة وثلاثين سنة. وكان عند نهاية أربع مئة وثلاثين سنة في ذلك اليوم عينه أن جميع أجناد الرب خرجت من أرض مصر (الخروج، ١٢: ٤٠-٤١).

يقول العهد القديم بأنه بعد سماحه بخروج بني اسرائيل مع موسى عاد فرعون فغيّر رأيه مرة أخرى وندم على قراره. لذلك قاد جيشا من العربات والفرسان والجنود وطارد بني اسرائيل فلحق بهم عندما كانوا قد خيّموا عند شاطئ البحر[4]. عندما رأى بنو اسرائيل جيش فرعون خافوا وأرتعبوا وبدأوا يلومون موسى على إخراجهم من مصر، فيما ذكّرهم موسى بوعد الله لهم وطلب منهم أن لا يفقدوا الأمل بربهم. هنالك رفع موسى عصاه، بأمر من الله، ومد يده فوق البحر فانقسم البحر ومُدّت أرض يابسة ليعبر عليها بنو اسرائيل:

ومد موسى يده على البحر. فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء. فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم. وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم. جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه الى وسط البحر (الخروج، ١٤: ٢١-٢٣).

فقال الرب لموسى مُدّ يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم. فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح الى حاله الدائمة والمصريون هاربون الى لقائه. فدفع الرب المصريين في وسط البحر. فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر. لم يبق منهم ولا واحد. وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم.
فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين. ونظر [ورأى] إسرائيل المصريين أمواتا على شاطئ البحر (الخروج، ١٤: ٢٦-٣٠).

---

[4] إن اسم البحر بالعبرية هو «يام سوف» والذي يعني «بحر الاعشاب»، إلا إن هذا المصطلح غالبا ما يُتَرجَم الى «البحر الاحمر».

وبعد خروجهم من مصر، بقي بنو اسرائيل في البراري لمدّة أربعين عاماً عقاباً لهم من الله على شكواهم المستمرة منه (الأعداد، ١٤: ٢٦-٣٥). أما موسى فتوفي وله من العمر ١٢٠ عاماً (التثنية، ٣٤: ٧). بعد وفاة موسى تكلم الله مع مساعده، يشوع بن نون، وأمره بأخذ بني اسرائيل الى الأرض التي خصصها لهم، وبهذا الحدث يبدأ سِفر يشوع.

١-٣ تناقضات داخلية في رواية الخروج في العهد القديم

ليس هدف هذا القسم تقييم دقة ما ورد في العهد القديم عن خروج بني إسرائيل بالاستعانة بالمعلومات المتوفرة في مراجع خارجية، ولكن الغاية هنا هي الإشارة الى بعض نقاط الضعف الواضحة والتناقضات الداخلية في رواية العهد القديم نفسها المتعلقة بموضوع هذا الكتاب.

نأتي أولا على إدعاء العهد القديم «*وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرا جدا وامتلأت الأرض منهم*» (الخروج، ١: ٧). تتّضح هذه المقولة أكثر عندما يذكر العهد القديم بأن عدد بني اسرائيل من الرجال فقط كان في وقت الخروج حوالي ٦٠٠,٠٠٠ (الخروج، ١٢: ٣٧). وتكرر ذكر هذا الرقم نفسه مرة أخرى في سِفر الأعداد عند وصف موسى وهو يجادل ربه:

> *فقال موسى ست مئة الف ماش هو الشعب الذي انا في وسطه. وانت قد قلت اعطيهم لحما لياكلوا شهرا من الزمان. ايذبح لهم غنم وبقر ليكفيهم ام يجمع لهم كل سمك البحر ليكفيهم (الأعداد، ١١: ٢١-٢٢).*

يذكر العهد القديم ما يُفترَض بأنه العدد المضبوط لبني إسرائيل حين يشير الى تعداد للنفوس أُخِذ في صحراء سيناء «*فكان جميع المعدودين من بني إسرائيل حسب بيوت آبائهم من ابن عشرين سنة فصاعدا كل خارج للحرب في إسرائيل [الذين هم بعمر صالح للخدمة العسكرية] كان جميع المعدودين ست مئة الف وثلاثة الاف وخمسمئة وخمسين*» (الأعداد، ١: ٤٥-٤٦)، ما عدا اللاويين، اي احفاد «لاوي» احد أبناء يعقوب[5]. يعني هذا العدد الكبير من الرجال بأن عدد بني إسرائيل الكلي، من رجال ونساء وأطفال، الذين غادروا مصر مع موسى كان بين مليونين الى ثلاثة ملايين. بالرغم من أن هذا العدد

---

[5] إن العدد الكلي لكل ذكور اللاويين من الذين يبلغون من العمر شهرا واحدا او اكثر كان ٢٢,٠٠٠ وفقا الى الأعداد (٣ : ٣٩) او ٢٢,٣٠٠ إذا قمنا بإضافة عددهم في كل قبيلة من قبائل اولاد لاوي الثلاثة: ٧,٥٠٠ (الأعداد، ٣: ٢٢)، ٨,٦٠٠ (الأعداد، ٣: ٢٨) و ٦,٢٠٠ (الأعداد، ٣: ٣٤). في بعض المخطوطات الاغريقية الرقم الثاني هو ٨,٣٠٠ بدلا من ٨,٦٠٠ مما يجعل حاصل الجمع ٢٢,٠٠٠ ايضا.

الهائل لم يشكّل مشكلة لكتّاب العهد القديم، فقد بقي مشكلة يصعب حلها لمفسّري العهد القديم المحدثين (Houtman, 1993: 231-234). فقد أشار البروفسور كورنليس هوتمان، أستاذ دراسات العهد القديم في الجامعة اللاهوتية في كامبن في هولندة، الى أن الموثوقية والقيمة التاريخيّة لعدد البضعة مئات من الآلاف قد رُفِضتا منذ عام ١٨٦٢ من قبل جَي. و. كولينسو J. W. Colenso أحد مؤسسي نقد العهد القديم المعاصر (Houtman, 1993: 70). بل أن الألماني ه. س. رايماروس H. S. Reimarus سخر بقرن قبل ذلك من العدد ٦٠٠,٠٠٠ (Hayes, 1977: 50). تكمن مشكلة هذا العدد في كونه بؤرة لعدد من التناقضات في العهد القديم، بما فيها تعارضه مع مجموع الافادتين التاليتين من العهد القديم: اولا، إن عدد أحفاد يعقوب، ماعدا زوجات اولاده، الذين استقروا في مصر كان سبعيناً (التكوين، ٤٦: ٢٦-٢٧؛ الخروج، ١: ٥)؛ ثانيا، إن بنو إسرائيل عاشوا في مصر ٤٣٠ سنة بالضبط (الخروج، ١٢: ٤٠-٤١). أي أن عدد بني إسرائيل إرتفع خلال ٤٣٠ سنة من أقل من مائة الى ما بين مليونين الى ثلاثة ملايين نسمة!

حاول البعض من باحثي العهد القديم تبرير هذه الزيادة في عدد بني إسرائيل بالاستنجاد بأدّعاءات فوق اعتيادية لكتّاب قدماء أدّعوا بأن بيئة مصر الطبيعية تسهم في خصوبة البشر حتى ان حَمْلا واحدا كان يمكن ان ينتج سبعة أطفال! كما نسبت كتابات الحاخامات مثل هذه الخصوبة الى نساء بني إسرائيل في مصر. مع ذلك فقد لاحظ هوتمان بأنه ليس واضحا من العهد القديم فيما اذا كان كتّابه قد رأوا في «مصر أرضا ملائمة بشكل خاص لإنتاج أمة عظيمة في مدّة قصيرة»، وأن كل ما يمكن استنتاجه من سِفر التكوين هو ان «مصر كانت أرضا مكنت الآباء الأوائل من العيش رغم المجاعة فلم يفنى بنو إسرائيل بشكل مبكر». كما لاحظ هوتمان أيضا بأن كتّاب العهد القديم رأوا في زيادة نفوس بني إسرائيل «تحقيق لوعد» الله الى بني إسرائيل (Houtman, 1993: 232). الا أن هذا التبرير الديني طبعا لا يُغني عدد بني إسرائيل المذكور في العهد القديم عما يفتقده من أساس تاريخي.

بسبب إدراكهم لأستحالة صحة العدد ٦٠٠,٠٠٠، أقترح بعض الباحثين بأن هذا العدد لم يُقصَد به أن يكون تحديدا دقيقا لعدد رجال بني اسرائيل وإنما عددا رمزيا يُستَخدَم في العهد القديم للاشارة الى عدد كبير غير محدّد (Houtman, 1993: 70-71). الا ان هذا الإقتراح في الواقع يجلب مزيدا من المشاكل دون أن يحل المشكلة الأصلية، وهناك عدة أسباب تحتّم رفضه كلّيا. أولا، يؤكد هذا التفسير في جوهره إدعاء العهد القديم غير المقبول بأن بني إسرائيل كانوا أمة كثيرة العدد، ويشكّك فقط في عددهم المضبوط. ثانيا، يذكر العهد القديم في مختلف اجزاءه مختلف الارقام التي تقل بكثير

عن ٦٠٠,٠٠٠ وبالتالي كان يمكن لكتّاب العهد القديم إستخدام أي من هذه الارقام إن لم يقصدوا الرقم ٦٠٠,٠٠٠ على وجه التحديد. ولننظر بالذات الى سفِر الأعداد الذي اكتسب اسمه من احتواءه على تعدادات واحصاءات لنفوس بني اسرائيل قبل انهائهم لمخيمهم في صحراء سيناء. إذ نجد في ذلك السفِر أعدادا تقل عن ٦٠٠,٠٠٠، تتراوح بين ٢٢,٠٠٠ (الأعداد، ٣: ٣٩) و ١٨٦,٤٠٠ (الأعداد، ٢ :٩). ثالثا، يحتوي سفِر الأعداد على تعداد نسل كل من الأسباط الإثني عشر والمجموع الكلي لذلك هو ٦٠٣,٥٥٠ (الأعداد، ١: ١-٤٦). لذلك فإن كتّاب العهد القديم لابد وأن يكونوا قد قصدوا فعلا العدد ٦٠٠,٠٠٠ والذي هو ببساطة تقريب لما يُفتَرَض بأنه العدد المضبوط ٦٠٣,٥٥٠. فإذا رُفِض هذا الرقم بإعتباره مبالغة، فيجب كذلك رفض كافة الأرقام الأخرى التي تكوّن ذلك العدد المذكورة في سفِر الأعداد. في هذه الحالة سننتهي الى رفض الأعداد المذكورة في العهد القديم جُملَةً، ولن يكون هنالك أي فرق على قدر تعلّق الامر بمصداقيّة العهد القديم فيما إذا رفضنا الارقام لأنها رمزية أو لأنها مُبالَغ فيها بصورة غير معقولة. إذ تشير كلتا الحالتان الى لاموثوقية العهد القديم.

هناك ايضا عدد من عبارات العهد القديم التي تشير صراحة الى أن عدد بني إسرائيل كان في الواقع أقل من عدد أمم أخرى، الامر الذي يعطي الإنطباع المختلف تماما بأنه اما ان بني اسرائيل لم يكونوا ٢-٣ ملايين كما يشير عدد الــ ٦٠٠,٠٠٠ من الرجال أو أن أمة بهذا الحجم في ذلك الزمان لم تكن تمثّل أمة كثيرة العدد! فيما يلي بعض من هذه العبارات:

> *متى أتى بك الرب إلهك الى الارض التي انت داخل اليها لتمتلكها وطَرَدَ شعوبا كثيرة من امامك الحثيين والجرجاشيين والاموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين سبع شعوب اكثر واعظم منك. ودفعهم الرب الهك امامك وضربتهم فانك تحرّمهم. لا تقطع لهم عهدا ولا تشفق عليهم (التثنية، ٧: ١-٢).*

> *ليس من كونكم اكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم لانكم اقل من سائر الشعوب (التثنية، ٧: ٧).*

> *إن قلت في قلبك هؤلاء الشعوب اكثر مني كيف اقدر ان أطردهم (التثنية، ٧: ١٧).*

> *إسمع يا إسرائيل. أنت اليوم عابر الأردن لكي تدخل وتمتلك شعوبا أكبر وأعظم منك ومدنا عظيمة ومحصنة الى السماء (التثنية، ٩: ١).*

يطرد الرب جميع هؤلاء الشعوب من امامكم فترثون شعوبا اكبر واعظم منكم (التثنية ١١: ٢٣).

إن المشكلة التي يمثلها العدد ٦٠٠,٠٠٠ لها دلالات تتجاوز مسألة مدى تجانس نص العهد القديم لتمس مظاهر عديدة من رواية الخروج في العهد القديم، كما سنرى لاحقاً.

هنالك إدعاء آخر في العهد القديم أشار عدد من الباحثين الى تناقضه مع العدد المزعوم لبني اسرائيل وقت خروجهم من مصر، وذلك هو أن قابلات نساء بني إسرائيل كانتا إثنتين فقط (Hyatt, 1971: 60). فنساء شعب تعداد رجاله ٦٠٠,٠٠٠ يحتجن بالتأكيد الى أكثر من قابلتين فقط! أضِف الى هذا أن العهد القديم يوحي بأن نساء بني اسرائيل كن حمولات وولودات بصورة غير إعتيادية. وقد لاحظ البروفسور مارتن نورث ايضا بأن رغبة فرعون في منع نمو وتكاثر بني إسرائيل عن طريق قتل مواليدهم من الذكور ووجود قابلتان فقط تعنيان بأن «بنو اسرائيل عاشوا متجاورين في مصر، وأن عددهم لم يكن قد تزايد بعد بشكل كبير» (Noth, 1962: 23). إن الإدّعاء بأن عدد بني اسرائيل تراوح بين مليونين الى ثلاثة ملايين والإدّعاء بأن حاجتهم كانت الى قابلتين فقط هما إدّعاءان لا يمكن التوفيق بينهما.

كما لاحظ باحثون آخرون أن إدعاء العهد القديم بأن المدّة الكلية التي عاشها بني إسرائيل في مصر كانت ٤٣٠ سنة يتناقض مع نصوص أخرى من ذلك الكتاب (Noth, 1962: 100). فيما يلي كلمات الرب الى إبراهيم في سِفر التكوين:

فقال لأبرام [لابراهيم] آعلم يقينا أنَّ نسلَك سيكون غريبا في أرض ليست لهم ويُستعبدون لهم. فيذلونهم أربع مئة سنة. ثم الأمة التي يُستعبدون لها أنا أدينها. وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة. وأما أنت فتمضي الى آبائك بسلام وتدفن بشيبة صالحة [تعمر طويلا]. وفي الجيل الرابع يرجعون الى ههنا. لأن ذنب الأموريين ليس الى الآن كاملا (التكوين، ١٥: ١٣-١٦).

أولا، لقد تغيّر الرقم هنا من ٤٣٠ الى ٤٠٠ سنة. لقد قلّل بعض الباحثين من أهميّة هذا التناقض على اساس أن الرقم ٤٠٠ هو تقريب للرقم الاكثر دقة ٤٣٠ (أنظر مثلاً Kitchen, 1966: 53). أما لِمَ يوجد تقريب للأعداد، عموما، ولِمَ يتم تقريب ٣٠ عاما في مدّة ٤٣٠ سنة فقط، خصوصا، فيبقيان سؤلان بلا إجابة. بالإضافة الى ذلك فإن العهد القديم يؤكد بأن الخروج حصل بعد إنتهاء ٤٣٠ سنة بالضبط ولحد اليوم، «*وكان عند نهاية أربع مئة وثلاثين سنة في ذلك اليوم عينه*» (الخروج، ١٢: ٤١)، قاطعا الطريق امام اية قراءة حرة لهذا الرقم. ثانيا، يدّعي العهد القديم بأن هذه الأربعمئة سنة الكاملة تُمثل أربعة أجيال فقط. وقد لاحظ هنري هارت ميلمان منذ عام ١٨٢٩ أن هذا يشكّل تناقضا واضحا

في رواية العهد القديم (Hayes, 1977: 57). وتتكرّر الإشارة الى الأجيال الأربعة في الإصحاح السادس من الخروج (١٤-٢٦) مبيّنة بأن موسى من الجيل الرابع بعد يعقوب، حيث يدّعي العهد القديم هنا بأن موسى هو إبن عمرام إبن قهات ابن لاوي إبن يعقوب حفيد إبراهيم. ولكن كما لاحظ الباحثون (أنظر مثلاً Hyatt, 1971: 140)، بينما «*الجيل الرابع*» هنا هو نسبة الى يعقوب فإن «*الجيل الرابع*» في سفر التكوين (١٥: ١٦) هو نسبة الى إبراهيم! أي بعبارة اخرى، هنالك فرق جيلين بين ذِكرَي «*الجيل الرابع*». لذلك فإن رفض أدعاء العهد القديم بإن إقامة بني اسرائيل استغرقت ٤٠٠-٤٣٠ سنة وتقبّل فرضيّة الأجيال الأربعة، كما يفعل نوث (Noth 1962: 100)، لا يحل المشكلة. ويخلص هوتمان في نقاشه للمشاكل التي تثيرها سلسلة النسب عند أخذها بنظر الاعتبار مع معلومات اخرى من العهد القديم، بضمنها طول إقامة بني اسرائيل في مصر، الى الإستنتاج بإن مادة العهد القديم قد تم اقتباسها من مصادر مختلفة:

> عندما يستعرض المرء التفسيرات المتعددة للتناقضات المُلاحظة لابد من الاستنتاج بأن هذه التفسيرات مصـطنعة. يـبدو من الأفضل الإعتراف ببساطة بأن الأسلوب الذي أستخدمه المؤلِّف في إستعمال المواد التي بحوزته من المراجع المختلفة أدى الى عرض غير متوازن أو منسجم دائما (Houtman, 1993: 514).

لابد هنا من ملاحظة أن إدعاء العهد القديم بأن موسى كان ينتمي الى الجيل الرابع ليعقوب، أو حتى لإبراهيم، يجعل إدعاء العهد القديم الآخر بأن عدد رجال بني اسرائيل كان ٦٠٠,٠٠٠ عندما غادروا مصر بدون معنى. إن الإدعاء الذي يدحض نفسه هنا هو أن نسل أقل من مئة شخص نما الى ما بين ٢-٣ مليون خلال أربعة أجيال فقط، وهو تناقض سبق للباحثين ملاحظته (أنظر مثلاً Houtman, 1993: 512). إن إحدى التفسيرات التي أستُخدِمت لتوفيق التناقض أعلاه هو إقتراح أن الكلمة العبرية **دور** dôr لا تعني «جيل» بالمعنى اللغوي الحديث لهذه الكلمة. لذلك، محاولا البرهنة على أن اقتراحه بأن **أربعة دور** تساوي في الواقع أربعمئة سنة ليس مجرد محاولة للتوفيق بين نصوص متناقضة، يشير البروفيسور كينيث كيتشن، أستاذ المصريات في جامعة ليفربول البريطانية، الى أنّ كلمة **دارو** dāru، وبالتالي كلمة **دور** العبريّة، يمكن أن تعني في المراجع الأوغاريتيّة والمراجع الأشوريّة المبكّرة فترة طولها ثمانين سنة أو أكثر (Kitchen, 1966: 54). ولكن حتى لو كان هذا تعريفا ممكنا لكلمة **دور** فإنه لا يفسّر إشارة العهد القديم الى **أربعة** وليس، على سبيل المثال، **خمسة** أجيال، خصوصا وأن عدد السنوات هو ٤٣٠. إن هذه المحاولة التفسيرية تعني ضمنيّاً أيضا

بأن إشارة الخروج (٦: ١٤-٢٦) الى أن موسى هو من الجيل الرابع من نسل يعقوب هي محض صدفة.

كما يلغي كيتشن التناقض في الخروج (٦: ١٤-٢٦) بإقتراحه بأن هذه الفقرات لا تعطي النَسَب الكامل لموسى، الا انه في الواقع ليس هنالك اي مبرر لهذا الإقتراح سوى طبعا محاولة التوفيق بين التناقضات. بالاضافة الى كل هذا، فإن مشكلة أية محاولة توفيق كهذه هو القبول غير المُبَرَّر لرقم ما في العهد القديم ورفض غيره. فلِمَ، على سبيل المثال، تُعتَبَر **الأربعة دور** تساوي ٤٠٠ ولكن ليس الرقم الآخر في العهد القديم، اي ٤٣٠؟ بل لِمَ يتم إعتبار **أربعة دور** مساوية لأي من هذين الرقمين أساسا؟ لم لا تساوي ٣٥٠ أو ٤٥٠ سنة، على سبيل المثال، طالما كانت أرقام العهد القديم غير دقيقة أساساً؟

إنطلاقا من إدّعاءه المبالغ فيه حول الإنفجار السكاني لبني إسرائيل، ينص العهد القديم على أن فرعون أتخذ إجراءا متطرّفا ضد بني إسرائيل وذلك بإستعبادهم في اعمال سخرة لوقف الزيادة في عددهم. إلا ان هنالك تناقض هنا. لقد كان هدف فرعون النهائي من السيطرة على عدد بني اسرائيل هو منعهم من التحول الى قوة فاعلة قد تساند يوما ما أعداءه وبالنهاية «*يصعدون [يخرجون] من الأرض*» (الخروج، ١: ١٠). أي ان خوف فرعون لم يكن من مساندة بني اسرائيل لأعداءه ولكن من تركهم البلاد. وهذا طبعا يتضمّن بأن بني اسرائيل كانوا أصلاً مستعبَدين وأن فرعون لم يرد أن يخسر خدماتهم. مع ذلك يخبرنا العهد القديم في الجملة التالية بأنه لكي يمنع فرعون حدوث ذلك فإنه قرر أستعبادهم: «*فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم*» (الخروج، ١: ١١)! أي أن ما يدّعيه العهد القديم هنا ببساطة هو أن بني اسرائيل كانوا اساسا **عبيدا** في مصر ولذلك فإن فرعون لم يوافق على مغادرتهم مصر فحاول السيطرة على عددهم **بإستعبادهم!** كما أن كون بني اسرائيل اساسا مُستعبَدين لا ينسجم مع إدعاء العهد القديم بأن فرعون أراد تحديد عددهم، لأن من البديهي ان مالك العبيد يبغي زيادة عددهم لا تقليله. بالاضافة الى كل هذه التناقضات فإن من الصعب تفسير أعتقاد فرعون أن إستخدام بني اسرائيل في العمل القسري سيوقف زيادة عددهم.

لما فشل هذا الأسلوب في تحديد النسل فشلا ذريعا، مؤديا الى نتائج عكسية تمثّلت في زيادة عدد بني اسرائيل، كما ينص العهد القديم بجلاء، لجأ فرعون الى اكثر الاجراءات تطرّفا بإعطاءه الاوامر بقتل كل الذكور، دون الاناث، من المواليد الجدد لبني إسرائيل. على خلاف الاقتراح بأن فرعون يمكن ان يكون قد لجأ الى الاستعباد لتقليل عدد بني اسرائيل والذي هو أدّعاء سخيف، فإن من المعقول جدا أن نتوقع من حاكم عديم الرحمة اللجوء الى المذابح للسيطرة على الإنفجار السكاني

لشعب لا يثق به. إلا ان الأسلوب الساذج والأخرق الذي نفّذ به فرعون خطة القتل، كما جاء في العهد القديم، يجعل الرواية بشكل عام تبدو مجرّد خيال.

يخبرنا العهد القديم بأن فرعون أستدعى قابلتي «بني إسرائيل» وأمرهما بقتل الذكور من المواليد الجدد **لبني جلدتهما** من بني اسرائيل! بالاضافة الى هذا، فإن من غير المعقول ان تقوم القابلتان بقتل كل ذكر من المواليد الجدد الذين تُساعِدان في ولادتهم، وهو شيء يفترض انهما كانتا ستقوما به وسط عوائل أولئك المواليد! إن هذه الخطة تنسب الى فرعون سذاجة لا يمكن تصديقها. إن إستجواب فرعون للقابلتين عن سبب عدم قتلهما للذكور من مواليد بني اسرائيل الجدد يبيّن بوضوح بأنه لم يكن هناك جنود مصريون يصاحبون القابلتين ليقوموا بمهمة القتل وان القابلتين نفسيهما كانتا من المفروض أن تقوما بتنفيذ امر فرعون الوحشي.

وكأن هذه الصور عن فرعون ساذج الى درجة لا تُصدَّق لم تكفِ، يأتي العهد القديم بصورة اخرى يظهر فيها فرعون وهو يصدّق تبرير القابلتين لفشلهما في قتل البنين من المواليد الجُدد عندما أخبرتاه: «*إن النساء العبرانيات لسن كالمصريات. فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة*»! من الصعب أن يفكّر المرء بعذر أوضح سخفاً من هذا، وهو عذر يمكن الاعتراض عليه من عدة أوجه، إلا أن رواية العهد القديم تشير ضمنياً الى قبول فرعون بهذا العذر وعدم تفكيره حتى في طرح السؤال البديهي عن ضرورة وجود القابلات أصلا إذا. يعتقد البروفسور فيليب هيات أن إجابة القابلتين لا يجوز إعتبارها تاريخيّة:

> إن العــذر الذي قدّمته القابلتان يدخل ضمن التراث الشعبي (الفولكلور)، وهو يهدف الى تبيان تفوق النساء العبريّات. وكنقطة واقعية، فمن الممكن ان النساء العبريّات كُنَّ أقوى وأصح من نساء الطبقات الراقــية المصـــريّات، إلا أن من غير الممكن أنهنَّ كُنَّ اقوى واصح من كل النساء المصريات. إن هاهنا لمحة فكاهة (Hyatt, 1971: 61)

ويطرح هوتمان أيضاً رأيا مماثلاً:

> إن أخذ إجابة النسوة بجدية هو منحى خاطئ. فالرواية لا تعطي معلومات عن اسلوب التوليد بين بني اسرائيل في مصر. إن الكاتب يهدف الى القول بأن المرأتين خدعتا ملك مصر بخلقهما لقصة خيالية (Houtman, 1993: 257-258).

علينا أن لا ننسى هنا أيضا أن فرعون لم يكن وحده في البلاط، فلابد انه كان محاطا بحاشية ومستشارين. لذلك فلابد أن السذاجة التي تفوق الخيال التي يعزيها العهد القديم الى فرعون كانت

صفة لكل من كان يحيط به أيضاً. إن أقل ما يمكن قوله عن هذه القصة هو انها غاية في المبالغة. وهنالك مؤشر آخر على عدم المصداقيّة التاريخيّة لرواية العهد القديم وهو ما يسميه هوتمان بـ «جو القرية» في القصة حيث نجد، على سبيل المثال، أن فرعون نفسه على إتصال **مباشر** مع قابلتي بني اسرائيل وكان يتبادل معهما الحديث (أنظر أيضاً Rogerson & Davies, 1989: 354).

إن إدّعائي العهد القديم بأن فرعون أمر بقتل كل الذكور من مواليد بني إسرائيل الجدد وأنه أستعبد بني إسرائيل يناقض أحدهما الآخر، لأن الإدعاء الأول يجعل الثاني مستحيلاً (Houtman, 1993: 261). ولما كان العهد القديم ينص على أن عدد بني اسرائيل كان في الأصل كبيرا، وبالتالي مصدرا للخطر، وأن فرعون أراد إفناء بني اسرائيل، فإن هوتمان يثير أيضا التساؤل المنطقي عن سبب تفكير فرعون في قتل الذكور من المواليد الجدد فقط دون البالغين.

كما أشار الباحثون أيضا الى تناقضات في الإشتقاق اللغوي لإسم «موسى» في العهد القديم. فالعهد القديم يدعي أن الإسم الذي أطلقته إبنة فرعون على الطفل يعني بالعبرية «*أنا سحبته من الماء*». إلا ان هذا الإدعاء رُفِض لأسباب عديدة. أولاً، إن هذا الادعاء يوحي بأن الأميرة المصرية كانت تعرف العبرية (Hyatt, 1971: 65). وثانياً، إن هذا التفسير اللغوي يعتمد على تشابه في الصوت وليس إشتقاقا لغويا سليما فإسم «موسى»، الذي صيغته العبرية هي «موشي»، يمكن أن يكون صيغة مبني للمعلوم للفعل العبري «مشح» والذي يعني «يُخرِج من»، بينما التفسير في العهد القديم يتطلب صيغة مبني للمجهول للفعل. بعبارة أخرى، إن المرء يتوقع ان يُسمّى الطفل «الذي يُخرَج أو يُنتَشَل من» وليس «الذي يخرُج من» (Houtman, 1993: 289; Noth, 1962: 26). إن تحليل أصل الإسم في العهد القديم يعكس سوء فهم لمعنى الجذر المصري الذي أشتُقَّ منه اسم موسى (Thompson, 1977: 155). وعلى عكس رواية العهد القديم، يتفق الباحثون على أن أسم موسى هو مصري وليس عبري، حيث أنه تصغير لإسم مصري جزئه الأول كان إسم إله. كأمثلة على هذه الاسماء هنالك أحموس، توتحموس، أمينمسيس، رمسيس. لقد كانت مثل هذه الأسماء تستخدم بكثرة في مصر خلال فترة حكم المملكة الجديدة (١٥٧٠-١٠٧٠ ق.م). ويعلّق نوث قائلا بأن «شعب إسرائيل القديم لم يعرف بأن موسى هو في الواقع اسم مصري، وانه تصغير لأسماء مصرية مثل أحموس، توتحموس ...الخ. إن راوي الخروج (٢: ١-١٠) لم يعرف ذلك أيضاً، وإلا لم كان سيغفل عن إقتناص فرصة تفسير غرابة الإسم على أنه نتيجة لتبني الطفل وتسميته من قبل إبنة فرعون» (Noth, 1962: 26).

أن إسم والد زوجة موسى في مدين يمثل تناقضاً آخر في العهد القديم. فهو يسمى رَعوئيل في

الخروج (٢: ١٨)، و«*يثرون ..... كاهن مدين*» في الخروج (٣:١؛ ٤: ١٨؛ ١٨: ١)[6]، و«*حوباب بن رَعوئيل المدِياني*» في الأعداد (١٠: ٢٩)، و«*القَيني*» في القُضاة (١: ١٦)، و«*حوباب*» الذي هو أحد القينيّين في القُضاة (٤: ١١). يشير هيات الى ان هذه المتغيّرات للإسم تُنسَب عادة الى حقيقة أن «الموروثات التراثية التي تشير الى والد زوجة موسى تعطيه أسماء مختلفة، فتعرفه بالمديني مرة والقَيني مرة أخرى» (Hyatt, 1971: 67). وهذا ما يراه كيتشن، مثلاً، حول هذه المسألة (Kitchen, 1966: 123). فالقينيّين يُعتبرون عادة فرعا من المدينيّين أو أنهم عشيرة لها أرتباط ما بالمدينيّين. ولكن مع ذلك، فإن من البديهي أن والد زوجة موسى لا يمكن ان يكون «*رعوئيل*» و«*حوباب بن رعوئيل*» في نفس الوقت. إن في رواية العهد القديم إلتباس واضح.

وتجدر الإشارة الى نقطتين أخرتيين في النص التالي:

فمضى موسى ورجع الى يثرون حميه وقال له أنا أذهب وأرجع الى إخوتي الذين في مصر لأرى هل هم بعد أحياء. فقال يثرون لموسى إذهب بسلام.

وقال الرب لموسى في مديان إذهب إرجع إلى مصر. لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك. فأخذ موسى إمرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع الى أرض مصر. وأخذ موسى عصا الله في يده (الخروج، ٤: ١٨-٢٠).

أولاً، من الصعب فهم سبب إحجام موسى عن كشف الهدف الحقيقي لرحلته الى مصر لوالد زوجته، خصوصا وأن مهمته ما كانت على الاطلاق سرّية. فبدلا من إخبار والد زوجته بأنه عائد الى مصر تنفيذا لأمر الله لإخراج بني إسرائيل من مصر، إدّعى موسى ان نيته من العودة كانت «*لأرى هل هم بعد أحياء*» (الخروج، ٤: ١٨).

ثانيا، إن كون الفعل المُستَخدَم في عبارة «*وقال الرب لموسى*» في الخروج (٤: ١٩) في صيغة الماضي، «*قال*»، وليس في صيغة الماضي التام، «كان قد قال»، يعكس تناقضا واضحا في رواية العهد القديم. إذ ينص العهد القديم في فقرات سابقة على أنّ الله كان قد أمر موسى بالذهاب الى مصر لتحرير شعبه وأن موسى ذهب الى والد زوجته ليطلب منه الاذن بمغادرة مصر، ثم يعود الكتاب لينص بعد قليل على أن «*وقال الرب لموسى في مديان إذهب إرجع إلى مصر. لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك*» (الخروج، ٤: ١٩). يعتقد هيات (Hyatt, 1971: 85) بأن سبب هذا لابد أن يعود الى حقيقة أن الفقرة ١٩ من الإصحاح الرابع من الخروج هي من مصدر مختلف لنص

---

[6] وفقا لبعض المخطوطات العبرية فإن الأسم هو «جيثر» في الخروج (٤: ١٨).

العهد القديم. لقد حاولت بعض الترجمات الانكليزية الحديثة إخفاء هذا التناقض بترجمة الفعل المُستَخدَم في الخروج (٤: ١٩) خطأ الى صيغة الماضي التام، كما في نسخة New International Version للعهد القديم.

يبدو ان عمر موسى وقت مغادرته مدين متوجها الى مصر هو الاخر من المواضيع التي وقع فيها العهد القديم في التباس. إذ يذكر العهد القديم «*وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج الى إخوته لينظر في أثقالهم [ليطلع على أشغالهم الشاقة]*» (الخروج، ٢: ١١)، حيث انتهى به الأمر الى قتل احد المصريين. وفي اليوم التالي حاول موسى قتل احد ابناء بني اسرائيل ثم كان ذهابه الى مدين بعد ذلك مباشرة هربا من فرعون الذي أراد معاقبته على فعلته تلك (الخروج، ٢: ١-١٥). ويذكر العهد القديم بوضوح أيضا بأن موسى تزوج بعد فترة قصيرة من وصوله الى مدين وذلك حين ساعد الفتيات السبع اللاتي دعاه والدهنَّ الى بيته وعرض عليه تزويجه من إحداهن، صفورة (الخروج، ٢: ١٦-٢٢). ثم هناك مقطعان يوحيان بأن أبناء موسى كانوا صغاراً عندما غادروا مدين مع أبويهم متوجهين الى مصر: «*فأخذ موسى إمرأته وبنيه وأركبهم على الحمار ورجع الى أرض مصر*» (الخروج، ٤: ٢٠)، «*وحدث في الطريق في المنزل [في نزل على الطريق] أن الرب إلتقاه وطلب أن يقتله. فأخذت صفورة صوّانة وقطعت غرلة إبنها ومست رجليه [رجلي موسى]. فقالت إنك عريس دم لي*»[7] (الخروج، ٤: ٢٤-٢٥). فالعبارة الاولى تعني ضمنيّا بأن إبني موسى كانا صغيرين ولذلك أركبهم مع أمّهما على الحمار، وكذلك تعني العبارة الثانية بأن أبن موسى كان لايزال طفلا صغيرا. إذن لابد ان موسى كان شابا في مقتبل العمر عندما وصل الى مدين حيث بقي لبضع سنين قبل ان يغادرها متوجها الى مصر ليقابل فرعون. ومع ذلك فإن الخروج (٧ :٧) يذكر بشكل واضح بأن عمر موسى كان «*ثمانين عاما*» عندما غادر مدين. وهذا أيضا مذكور بشكل ضمني في التثنية (٣٤: ٧) الذي ينص على ان عمر موسى كان «*مائة وعشرين عاما عندما توفي*»، حيث كانت وفاته بعد إنتهاء الأربعين عاما من التيه مع بني إسرائيل في البرية بعد مغادرتهم مصر (الأعداد، ١٤: ٣٣-٣٤)، ذلك ان العهد القديم يذكر بشكل صريح بأنه بعد وفاة موسى مباشرة إنتهت مدّة الأربعين عاما حيث أمر الرب يشوع خادم موسى بقيادة بني إسرائيل والدخول الى الأرض الموعودة (يشوع، ١: ١). في سِفر اليوبيلات[8] (٤٨: ١) ايضا هنالك أدعاء بأن موسى بقي في مدين لمدّة «*إثنين وأربعين عاما*».

---

[7] إن سبب ظهور هاتين الفقرتين في هذا السياق لا يزال غامضاً، وكذلك هو معنى كل منهما.

[8] اليوبيلات هو أحد الأسفار الاربعة عشر Apocrypha التي ليست جزءا من العهد القديم العبري، ولذلك لا يعترف بها البروتستانت من المسيحيين، والموجودة في الترجمة اليونانية للعهد القديم Septuagint (التي يُعتَقَد انها كتبت حوالي

وهكذا يتّضح إحتواء العهد القديم على نصوص لا يمكن التوفيق بينها حول عمر موسى حين غادر مدين.

هناك أيضاً تناقضات آخرى في رواية العهد القديم للمعجزات التي منحها الله لموسى. فمثلاً لا توجد إشارة الى أن موسى عرض تحويل يده السليمة الى مصابة بالجذام بعد إنكار فرعون للمعجزة الأولى، وهي تحويل العصا الى ثعبان، بالرغم من أن الله كان قد أخبره بأنها ستكون معجزته الثانية (الخروج، ٤: ٦-٨). كما أنّ الادّعاء بأن السحرة المصريين استطاعوا محاكاة أول أثنتين من الكوارث الإعجازية العشرة، وهما تحويل ماء النيل الى دم (الخروج، ٧: ٢٢) وإخراج اعداد هائلة من الضفادع من الماء وتغطيتها لأرض مصر (الخروج، ٨: ٧)، يتناقض مع حقيقة أن الله منح هاتين المعجزتين لموسى ليريهما لفرعون كمعجزات خارقة للعادة يمكن الاتيان بها بقدرة الله فقط.

أشار بعض الباحثون الى تناقض آخر، وإن كان أقل أهميّة، تتضمّنه قصة ولادة موسى. فبداية القصة (الخروج، ٢: ١-٢) تبيّن بأن موسى كان الطفل البكر لوالديه، الا اننا نجد لاحقا أختا له أكبر سنا تظهر في الصورة (Hyatt, 1971: 63-64; Noth, 1962: 25). كما يدّعي الخروج (٧: ٧) بأن هارون كان يكبر موسى بثلاث سنوات.

---

٢٧٠ ق.م من قبل إثنان وسبعون مترجما) والترجمة اللاتينية Vulgate (التي أعدها القديس جيروم في أواخر القرن الرابع للميلاد).

٣

التاريخ وقصة الخروج في العهد القديم

٣-١ العهد القديم وعلم الآثار

من الطبيعي ان تُستخدم اللقط الآثارية التي يتم العثور عليها في مواقع أحداث العهد القديم والتي تعود الى أزمان تلك الاحداث في تمحيص مصداقيّة ما ورد في ذلك الكتاب من تفاصيل. ومن الممكن أن تكون لهذه الآثار القدرة على أن تخبرنا فيما اذا كانت روايات معينة في العهد القديم هي سجلات دقيقة لأحداث وشخصيات تاريخيّة، أو أنها دقيقة جزئيّا فقط، او انها محض أساطير وخيالات لا تمت للتاريخ الحقيقي للعالم بصلة. إن هدف هذا الفصل هو مقارنة ما زوّدتنا به أبحاث علم الآثار من معلومات مع روايات العهد القديم للوصول الى ما يمكن إستنتاجه من هذه المقارنة. ولكن قبل البدء بهذه المهمة، من الضروري الإشارة الى سوء استخدام معيّن لعلم الآثار عند دراسة تاريخيّة أحداث العهد القديم. إذ أنّ سوء فهم الطبيعة الحقيقية لدلالات هذه اللقط الآثارية على تراث العهد القديم يمكن أن يؤدي الى إستنتاجات خاطئة.

إن الحقيقة الأساسية التي يجب إبتداءاً التأكيد عليها وتوضيحها تماما هي انه عندما لا يكون لدى علم الآثار ما يقوله حول إدّعاء تاريخي ما، سواء في العهد القديم أو غيره من المصادر، فإن ذلك يجب أن **لا** يُعتبَر نوعا من الدحض لمصداقيّة ذلك الادّعاء. بعبارة أخرى، **إن عدم وجود دليل ليس دليلا بحد ذاته**، أي إن **غياب الدليل على وقوع الحادث ليس دليلا على عدم وقوعه**. ولذلك فإن عدم العثور على دليل آثاري على حدث ما لا يعني عدم وقوعه. الا ان هذه الحقيقة قد أُهملت مرارا وتكرارا من قبل الباحثين. إن عدم وجود إشارة من مصادر من خارج العهد القديم الى شخصيات وأماكن وأحداث مذكورة فيه قد تم إتّخاذه **دليلا** على ان تلك الشخصيات والاحداث ليست واقعية وأنها قد خُلِقَت من قبل كُتّاب العهد القديم. إن الحقيقة التي يجب ادراكها هي أن ما يُعثَر عليه من خلال التحريات والحفريات الآثارية لا يعتمد فقط على ان ما يُبحَث عنه ينتمي حقا الى الماضي وإنما على عوامل عديدة أخرى، مثل ما اذا كان المرء يبحث في الموقع الصحيح، ما اذا كانت

المنطقة التي تم حفرها هي كبيرة بصورة كافية ليمكن الحصول منها على لُقى مفيدة، ما اذا كان الموقع قد حُفِر الى عمق كاف للوصول الى آثار تلك الحقبة الزمنية، وقبل كل ذلك، فيما اذا كانت البقايا مدار البحث لم تكن قد أندثرت أصلا بسبب عوامل التعرية التي يمكن ان تمحو كل اثر لها. لذلك فإن فشل الحفريات الآثارية في العثور على دلائل لا يعني، في معظم الأحوال، شيئا بشأن تاريخيّة أو لاتاريخيّة الشخصيّات والأماكن والأحداث المعنية. وهناك فعلا العديد من الأمثلة حول معاملة الباحثين لسجلات تاريخيّة بكثير من الشك والريبة لمدّة طويلة بسبب عدم وجود آثار تدعم تلك السجلات قبل ان تكشف الحفريات لاحقا آثار تؤيّدها.

إذن، فإن عدم العثور، حتى الآن، على دليل مستقل **ومباشر** يشهد على وجود شخصيات تاريخيّة مهمة ورد ذكرها في العهد القديم مثل الأنبياء إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى يجب أن لا يُفسَّر على أنه دليل على عدم وجودهم أصلاً.[٩] لهذا فإن البروفسور كيتشن على حق في شكواه بأنه «مرارا وتكرار نجد في دراسات العهد القديم الإشارة الى [عبارات مثل] "إن التاريخ لا يعرف شخص مثل"، على سبيل المثال، إبراهيم أو موسى، أو "[إن التاريخ لا يعرف] حوادث" كالمعارك المذكورة في الفصل الرابع عشر من سفر التكوين، مثلا»، مؤكّدا على الطبيعة المُضلِّلة لمثل هذه المقولات التعميميّة التي لا تعكس «جهل "التاريخ" بتلك الشخصيّات ولكن جهل الشخص الذي يقوم بهذا الإدعاء». ويعطي كيتشن عددا من الأمثلة للتأكيد على عدم إكتمال المعرفة الحالية بشأن التاريخ القديم للشرق الأدنى، محذرا من التسرع في التوصل الى إستنتاجات غير ناضحة عن الشخصيّات الواردة في العهد القديم التي لا توجد إكتشافات آثارية تدعم وجودها (Kitchen, 1977: 48).

من الممكن بطبيعة الحال تشخيص تناقضات داخلية في رواية العهد القديم لأحداث معينة، كما بيّنا في الفصل الأول، إلا أن عيوب العهد القديم هذه لا تقول شيئا حول تاريخيّة تلك الأحداث. في مثل هذه الحالات يمكن القول بثقة بأنه لا يمكن أن يكون كلا من إدعائين متناقضين صحيحا، ولكن تقرير ما اذا كان أحدهما صحيح، وإن كان الأمر كذلك فأيهما، يتطلب المزيد من المعلومات، حتى إن كان أحد الادّعائين أكثر توافقا مع أحداث أخرى في العهد القديم. وعلى سبيل المثال، فقد شاهدنا في الفصل السابق بأن من المحال أن يكون بني إسرائيل قد سكنوا مصر لمدّة ٤٣٠ سنة من عهد دخول يعقوب وبنيه الى مصر حتى مغادرة أحفاده مع موسى، من جهة، وأن يكون عدد من غادر

[9] لن نتطرّق في هذا الفصل الى القرآن العظيم لدعم أو دحض ما ورد في العهد القديم ولكن سنأتي إلى ذلك في الفصول التالية.

مصر مع موسى من الرجال قد بلغ ٦٠٠,٠٠٠، من جهة أخرى. من الواضح أن أحد الرقمين **على الأقل** لابد أن يكون غير صحيح. صحيح أن الرقم ٤٣٠ يبدو أقل تناقضا مع بيانات أخرى في العهد القديم إلا أن هذا لا يخبرنا اي الرقمين، ان كان احدهما كذلك، هو تاريخي أو على الأقل قريب بشكل معقول من الحقيقة. إن الوصول الى مثل هذا الإستنتاج يحتاج دليلا من مصادر من خارج العهد القديم.

بناءاً على ما تقدم، يقارن هذا الفصل رواية العهد القديم لحادثة الخروج مع المعلومات التي كشفتها التنقيبات الآثارية لتمحيص ما إذا كانت هذه المعلومات تدعم ما ورد في العهد القديم أم تدحضه. من الطبيعي أننا لن نبني اي استنتاج على غياب دلائل آثارية.

٣-٢ علم الآثار وإقامة بني إسرائيل في مصر

من الضروري أن نبيّن بوضوح تام من البدء بأنه **لا** يوجد في أي من النصوص والمصنوعات artifacts المصرية القديمة ما يشير الى يوسف أو موسى والى قصصهما، منذ دخول بني إسرائيل الى مصر الى خروجهم منها لاحقا. فقد التزمت مصر الصمت المطبق عن تلك الأحداث، حيث فشل الآثاريون خلال ما يزيد عن قرن من التحريات الآثارية في مصر وفلسطين في الكشف عن أي دليل **صريح ومباشر** يدعم أو يؤيد تاريخ بني إسرائيل في مصر. ولكن لنتذكّر هنا بأن غياب السجلات التاريخيّة المستقلّة والاكتشافات الآثارية التي تسند الروايات المذكورة في العهد القديم أو غيره من الكتب لا يمكن إعتماده تلقائياً «كدليل سلبي» ضد تاريخيّة هذه الأحداث، أي كدليل على لاتاريخيّتها.

الا انه ليس بأمر غير متوقع أن نجد أن غياب أية إشارة مصرية، سواء على شكل نص او مصنوعة، إلى الأحداث المذكورة في العهد القديم قد أُعتُبِر من قبل الكثير بأنه يلقى شكوكا كثيرة حول مصداقيّة رواية العهد القديم، إن لم يدحضها كليا. يصح القول، كما شاهدنا في القسم السابق، بأن هناك دائما إحتمالا نظريا، بغض النظر عن ضآلته، لوجود بعض الأدلة التي ترقد في مكان ما تحت التراب بأنتظار من يكتشفها. الا إن الباحثين يرون ان هناك أسبابا قويّة تدعوهم ليكونوا أقل تفاؤلا بظهور مثل هذه الأدلة النصيّة او المصنوعاتية الآثارية فيما يخص تاريخ بني إسرائيل في مصر بالذات. لذلك فإن هناك سببا اقوى في هذه الحالة الخاصّة بالذات لتبنّي نظرة أن غياب دليل مستقل لا يعني ضمنياً بأن رواية العهد القديم غير تاريخيّة. وهذا ما سنوضّحه فيما يلي.

بخصوص تاريخ يوسف، يميل المؤرخون الى الإعتقاد بأن قصته وقعت في شمال مصر خلال إحتلالها من قبل أقوام غير مصريّة، ساميّة، معروفين بالهكسوس (١٦٦٣-١٥٥٥ ق.م). إن غياب

الإشارة في السجلات المصرية الى يوسف ودخول بني إسرائيل الى مصر يمكن إيعازها بسهولة الى ندرة السجلات الخاصة بفترة حكم الهكسوس بصورة عامة والذي يعود بدوره الى عاملين. أولا، ضعف تأثير الهكسوس على مناطق ما وراء الدلتا والمناطق الشمالية من مصر. ثانيا، بسبب من كرههم لأن يكونوا تحت حكم أجنبي، اراد المصريون نسيان تلك الحقبة غير السارة من تاريخهم، فقاموا بحملة قويّة لتدمير وإزالة النُصُب التي أقامها الهكسوس (Clayton, 1994: 94-95). هذا ما تخبرنا التحريات الآثارية عن حدوثه بقلم وليم دنفر، أستاذ أنثروبولوجي وعلم آثار الشرق الأدنى في جامعة أريزونا الامريكية:

> تُميِّز نهاية تلك الفترة [حوالي ١٨٠٠-١٥٠٠ ق.م] مستويات تدمير هائلة في كل موقع تم إكتشافه لحد الآن، وهو ما يرتبط بدون شك بطرد الهكسوس في بداية حكم كاموس آخر ملوك السلسلة السابعة عشرة[10] (في حدود ١٥٤٠ ق.م) وأستمرّت مع أعقابه في بداية السلسلة الثامنة عشرة (Dever, 1977: 89).

أما صمت مصر المطبق عن موسى وبني إسرائيل قبل الخروج فيمكن تفسيره جزئيا بالوضع الحالي لبقايا مدينة باي-رمسيس[11]، حيث كان بنو إسرائيل مُستَخدَمين كعمال سُخرة وفقا للعهد القديم. فهذه المدينة التي حُفرت جزئيا فقط بحثا عن الآثار هي الآن مجرد خرائب مسوّاة بالتراب كما أن أبنيتها الصخرية اختفت او أُعيد استعمالها في اعمال بناء اخرى من قبل فراعنة لاحقين. ويشير كيتشن الى ان المدينة التي كانت يوما مزدهرة لا يمكن إعادة تصورّها الان إلا من خلال أجزاء غير متكاملة من الآثار ومن خلال أوصافها في الكتابات، ويذهب الى تشبيه باي-رمسيس بمدينة القدس خلال حكم سليمان، مؤكدا على أن «أبنيتها الباهرة قد أختفت كلياً؛ كما فُقِد كذلك أرشيفها الضخم، حيث لم يتبقى سوى حفنة من السجلات على أوعية الخمور التقليدية إضافة الى سلسلة من الأختام». ويخلص كيتشن الى الاستنتاج بأنه «ليس بالمُستغرَب إذن ان لا توجد اية مُدوَّنة

---

[10] قسّم مانيثو Manetho، الكاهن الاكبر لهليوبولس خلال القرن الثالث قبل الميلاد، تاريخ مصر الى سلالات في قوائم الملوك التي أعدّها والتي وصلت الينا عن طريق كتابات بعض المؤرخين المسيحيين مثل يوسيبيوس القيساري Eusebius of Caesarea (توفي في حوالي ٣٤٠ م). ويعترف المؤرخون اليوم بثلاثين سلالة تغطي الفترة من توحيد مصر في حوالي ٣١٠٠ ق.م الى وفاة اخر فرعون مصري الاصل، نيكتانيبو الثاني، في حوالي ٣٤٣ ق.م.

[11] تحتوي الكتابة الهيروغليفية المصرية على صور-أشارات للحروف الساكنة فقط ولكن ليس لحروف العلة، ولذلك فإن نفس الكلمة تُكتَب عادة بصيغ إملائية مختلفة في المصادر الحديثة. لقد استخدمنا في هذا الكتاب الصيغ الإملائية الاكثر إستعمالا للأسماء.

مصرية عن بني إسرائيل في عبوديّتهم بالقرب من باي-رمسيس؛ إن كل هذه المعلومات، وبيقين شبه تام، قد فُقِدَت الى الأبد» (Kitchen, 1977: 77).

هنالك عامل آخر يجدر ذكره وهو إن صراع موسى مع فرعون لم يكن سوى سلسلة هزائم مُهينة للأخير، بدءا بالكوارث التي ضربت شعب فرعون وإنتهاءا بخروج بني إسرائيل الذي أدى الى هلاكه وجيشه. لذلك فإنه مجرّد أمر طبيعي أن لا نجد في النصوص المصرية للفراعنة المتبجحّين أية إشارة الى هذه الأحداث والذل الذي تعرَّض له فرعون ذلك الزمان على يد رجل من بني إسرائيل.

بالاخذ بنظر الاعتبار الأسباب أعلاه لغياب اي ذكر ليوسف وموسى في المدوّنات المصريّة القديمة المتوفّرة، فإن صمت مصر هذا لا يشكّل على الاطلاق «دليلا سلبياً» على لاتاريخيّة هاتين الشخصيّتين المحوريّتين أو الأحداث المرتبطة بهما.

٣-٢ تعيين تاريخ الخروج وفقا للعهد القديم

لما كنا نفتقد وجود اي دليل مصري **مباشر** يشهد لقصتي يوسف وموسى في العهد القديم فعلينا إذا الإعتماد على ما يمكن ان نسميه بأدلة **ظرفية**. مثل هذه الأدلة، إذا كانت فعلا موجودة، يمكن أن تسند رواية العهد القديم. لنبدأ أولا بإستعراض مختصر لقصة يوسف وذلك لإرتباطها الشديد بقصة موسى.

لقد بيّنا سابقا بأن الباحثين الذين يقبلون بشكل أو بآخر رواية العهد القديم عن يوسف يميلون الى الإعتقاد بأن يعقوب وأبناءه عاشوا في الجزء الشمالي من مصر. وهناك العديد من التفاصيل في رواية العهد القديم عن يوسف يمكن استخدامها في ربط إستقرار بني إسرائيل الاوائل بمنطقة الدلتا الشرقية. أولا، هنالك ارسال يعقوب لأبناءه الى مصر لشراء الحبوب بسبب المجاعة التي ضربت كنعان ومن ثمّ هجرتهم اللاحقة مع عوائلهم الى مصر المزدهرة. وفقا للعهد القديم، عندما سُئِلوا من قبل فرعون مصر عن سبب قدومهم للعيش في مصر، أجاب أخوة يوسف «*جئنا لنتغرب في الارض. إذ ليس لغنم عبيدك مرعى. لأن الجوع شديد في أرض كنعان*» (التكوين، ٤٧: ٤). إن أهميّة هذا الجزء من رواية العهد القديم عن استقرار يعقوب وأبناءه وعوائلهم في مصر تكمن في توافقه مع الحقيقة المُثبَتة تاريخيا من أنه كان كثيرا ما يُسمَح لرعاة من الساميين بالدخول الى الدلتا الشرقية خلال فترات المجاعات. فبردية أناستاسي السادسة[12]، التي يُعتَقَد ان مصدرها مدينة ممفيس، تتضمّن

---

[12] أُستُعمِلت برديّات اناستاسي اصلا كدفتر تعلّم الكتابة لطالب المدرسة بإستخدام نماذج من رسائل. جاءت تسمية هذه

تقريرا من مسؤول مصري على الحدود الشرقية لمصر يتحدّث عن دخول بدو (شاسو) آسيويين من إيدوم الى دلتا النيل هاربين من الجفاف وباحثين عن مراعي، وذلك خلال حكم الفرعون مرنبتاح حوالي نهاية القرن الثالث عشر ق.م. أما نص هذا التقرير الذي يجعل واقعيّة رواية العهد القديم تبدو راجحة جدا فهو كما يلي:

> رسالة أخرى الى [سيد]ي، للفت [الانتباه. نحن] سمحنا لقبائل البدو من إيدوم بعبور قلعة مرنبتاح حوتب-هير-مآت، حياة، رخاء، وصحة! التي هي [في] تجيكو الى بحيرات بير-آتوم لمر[ن]بتاح حوتب-هير-مآت اللاتي هن [في] تجيكو، لنحافظ على حياتهم وحياة قطعانهم، بفضل كا العظيمة لفرعون - حياة، رخاء، وصحة-، الشمس الطيبة لكل أرض، في السنة الثامنة، الأيام [الكبيسة]، [مولد] سيث. لقد جعلتهم يجلبون نسخة من *التقرير* الى [المكان الذي] فيه سيدي، *بالإضافة الى* أسماء أخرى لأيام عندما كانت قلعة مرنبتاح حوتب-هير-مآت- حياة، رخاء، وصحة- التي هي في تجيكو، قد تُعبَر ... (*ANET*, 1950: 259).

هنالك دليل نصّي مصري قديم آخر يرجّح فرضية أن بني أسرائيل الاوائل أستقرّوا في الدلتا الشرقية. يوجد هذا الدليل في وثيقة تُعرَف بـ «نصائح أيبوير» Admonitions of Ipuwer حيث نقرأ عن: «رجل ذو شخصية يلتزم الحداد بسبب ما حدث في البلاد.. الأجانب أصبحوا ناسا[١٣]، في كل مكان.... »، حيث يستنكر النص تمصير الساميين من بدو الصحراء (*ANET*, 1950: 441). إن هذا أيضا يذكّر بإستقرار يعقوب واولاده في الدلتا الشرقية.

أما بدء إستقرار بني إسرائيل في مصر، فيرى الباحثون أن تاريخه يعود الى الفترة التي كانت فيها الدلتا الشرقية تحت حكم الهكسوس الذين أستلموا الحكم بعد السلالة الرابعة عشرة حوالي عام ١٦٦٣ ق.م، جاعلين سلطة الفراعنة مُقتَصِرة على طيبة. إن «أمراء الصحراء»، وهو معنى كلمة «هكسوس»، كانوا من الساميّين. تدّعي السجلات المصرية المتأخرة بأن الهكسوس سيطروا على الصحراء الشرقية ومناطق دلتا مصر عن طريق غزو اشترك فيه عدد كبير من الناس. إلا أن الباحثين يشيرون الى انه كان هنالك تدفّقا مستمراً من المهاجرين الساميّين الى مصر قبل سيطرة الهكسوس على المنطقة بزمن طويل. هنالك دليل على هذا التغلغل على شكل أسماء ساميّة مسجّلة

البرديّات من اسم القنصل السويدي في مصر «سنيور اناستاسي» Signor Anastasi الذي اشترى منه المتحف البريطاني هذه البرديّات في عام ١٨٣٩.

[13] وفقا لبرتشارد (Pritchard, 1950: 441)، فإن «مصطلح "رجال، بشر، ناس" أستُعمِل من قبل المصريين للاشارة الى انفسهم، بخلاف جيرانهم من الاجانب الذين لم يكونوا يُعتبَرون [في نظرهم] أُناس حقيقيون».

على ستيلي[14] stele من المملكة الوسطى[15] وفي قوائم الخدم. فمثلا هناك وثيقة من السلالة الثالثة عشر (منتصف القرن الثامن عشر ق.م) تتضمن قائمة بأسماء ثمانين خادماً لعائلة واحدة من طيبة وتبيّن بأن أكثر من أربعين من هؤلاء الخدم هم اسيويين (*ANETS*, 1968: 553-554). هناك أيضاً رسومات من السلالة الثانية عشرة (١٩٩١-١٧٨٢ ق.م) لآسيويين في مقبرة النبيل خنومحوتب الثاني في بني حسّان في مصر الوسطى (Clayton, 1994: 94). ووفقا لوليم دنفر، فإن الحفريات قرب عاصمة الهكسوس في أفاريس قد «سلّطت الضوء على تجمّع من مواد فلسطينية الطابع» يعود الى حوالي ١٨٠٠ ق.م مشيرا الى أن «الوجود الآسيوي في مصر بدأ في وقت مبكر جدا وربما كان تغلغلا سلميا في البداية» (Dever, 1977: 88). كما أكّد تومسن أيضاً على أن تأثير الساميّين في الدلتا الشرقية واضح على طول تاريخ مصر، وأشار الى أن «النصوص واللُقط الآثارية من المملكة الوسطى تبيّن بشكل ملحوظ "مصرنة" آلهة ساميين» (Thompson, 1977: 156).

تزايدت تدريجيا سلطة هؤلاء المستوطنين من متكلمي اللغة السامية، وفي أواخر القرن الثامن عشر ق.م بدؤا بمد نفوذهم الى ما وراء معقلهم في أفاريس والتي تقع حاليا في تل الضبعة (Clayton, 1994: 94). من المرجّح ان يكون الفرعون سيقينير تاو (المتوفي بحدود ١٥٧٤ ق.م) من السلالة السابعة عشرة هو الذي بدأ الحملة العسكرية لطرد الهكسوس من مصر، وربما توفي في إحدى تلك المعارك كما توحي الجراح الرهيبة على جمجمته المُحنَّطة. ثم أكمل إبنه ووريثه كاموس (١٥٧٣-١٥٧٠ ق.م) حملة تحرير مصر السفلى. ولكن لما كان كاموس لم يحكم أكثر من ثلاث سنوات فقط، فإن أخيه ووريثه أحمس الأول (١٥٧٠-١٥٤٦ ق.م)، أول فراعنة السلالة الثامنة عشرة، هو الذي قاد المعارك التي أنهت حكم الآسيويين وأعادت توحيد مصر. لقد حدّد الكاهن والمؤرخ المصري مانيثو خمسة ملوك هكسوس دام حكمهم ١٠٨ سنوات (او ١٠٣ سنوات في

---

[14] الستيلي هي بلاطة او دعامة حجرية تحتوي على كتابات او نقوش.

[15] يجمع باحثو المصريّات المعاصرون السلالات الفرعونية في حقب أطول. تُعرَف الحقب الثلاث الرئيسة بـــ «المملكة القديمة» (٢٦٨٦-٢١٨١ ق.م) التي تشمل السلالات ٣-٦، «المملكة الوسطى» (٢٠٤٠-١٧٨٢ ق.م) التي تشمل السلالتين الحادية عشر والثانية عشر، و «المملكة الجديدة» (١٥٧٠-١٠٧٠ ق.م) التي تشمل السلالات ١٨-٢٠. تنتهي المملكات الثلاثة بثلاث فترات انحطاط تُعرَف بـــ «الحقب الوسطى» وهي على التوالي «الحقبة الوسطى الاولى» (٢١٨١-٢٠٤٠ ق.م) التي تشمل السلالات ٧-١٠، «الحقبة الوسطى الثانية» (١٧٨٢-١٥٧٠ ق.م) التي تشمل السلالات ١٣-١٧، و «الحقبة الوسطى الثالثة» (١٠٦٩-٥٢٥ ق.م) التي تشمل السلالات ٢١-٢٦. وتنتهي الحقبة الاخيرة هذه بما يُعرَف بـــ «الفترة المتأخرة» (٥٢٥-٣٣٢ ق.م) التي تشمل السلالات ٢٧-٣١. وكان فراعنة السلالة الحادية والثلاثين من الفرس.

نسخة اخرى من قائمة مانيثو). إلا انه يجب التأكيد على ان اللادقة التي تحيط بتاريخ حكم الهكسوس هي من الكبر بحيث انه ليس فقط مدّة حكم كل ملك غير معروفة بالضبط بل حتى عدد هؤلاء الملوك أيضاً.

إن حقيقة أن الهكسوس لم يكونوا مصريّين ولكن ساميّين يُعتَبَر عاملا سهّل هجرات ساميّين الى الدلتا الشرقية. كما لاحظ الباحثون أن «إرتقاء شخص غير مصري مثل يوسف الى مكانة بارزة[16] هو أكثر احتمالا أن يكون قد حدث تحت حكم الهكسوس منه تحت حكم حكّام "محليين"» (Thompson, 1977: 151).

هنالك ملاحظة أخرى يمكن أن تكون هامة تخص إستخدام الإسم «يعقوب» من قبل الهكسوس، حيث ان اسم الملك الهكسوسي الثاني هو يعقوب-هير. وينفي الباحثون كل ترابط بين إسم الملك الثاني يعقوب-هير وإحتمال إستقرار النبي يعقوب في الدلتا الشرقية خلال تلك الفترة (أنظر مثلاً Kempinski, 1985). من الجدير بالملاحظة أن الإسم يعقوب مثل أسماء «عمورية ناقصة إعرابيا» أخرى ذكرت في العهد القديم، كيوسف وإسحق وإسماعيل وإسرائيل، يعود أصلها الى الألف الثالث ق.م (Kitchen, 1977: 68). ولكن بالرغم من أن إسم يعقوب كان قيد الإستخدام قبل عصر النبي يعقوب بكثير فإن من المُستبعد ان ظهوره كأسم لثاني ملوك الهكسوس كان محض صدفة. ومن الواضح أنه إذا كان فعلا لإسم ملك الهكسوس الثاني علاقة ما بإسم يعقوب والد يوسف فإن قصة يوسف لابد ان تكون قد حدثت خلال حكم ذلك الملك الذي دام بين ٨ او ١٨ سنة، أو على الارجح خلال حكم سلفه ومؤسس الحكم الهكسوسي، شيشي، الذي دام حكمه بين ١٣ أو ٢٣ سنة. إن عدم الدقة في التواريخ يعود الى قلة المعلومات التاريخيّة المتوفرة حاليا.

كما شخّص كيتشن عنصرين أخرين في قصة يوسف في العهد القديم توحيان بحصول حوادث هذه القصة في بداية أو منتصف الألف الثاني ق.م. أولهما، ينص العهد القديم على أن ثمن بيع اخوة يوسف له كعبد للتجار المديَنيّين كان عشرين شيكل[17] من الفضة (التكوين، ٣٧: ٢٨)، حيث كان هذا فعلا معدّل سعر العبد في القرن الثامن عشر ق.م. ثانيهما، إطلاق مصطلح «ساريس» بمعناه القديم

---

[16] هذا ما يقوله العهد القديم عن تولّي يوسف لمنصب رفيع في مصر:

ثم قال فرعون ليوسف أنظر. قد جعلتك على كل ارض مصر. وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف. وألبسه ثياب بوصٍ ووضع طوق ذهب في عنقه. وأركبه في مركبته الثانية ونادوا أمامه اركعوا. وجعله على كل ارض مصر. وقال فرعون ليوسف أنا فرعون. فبدونك لا يرفع أنسان يده ولا رجله في كل ارض مصر (الخروج، ٤١: ٤١-٤٤).

[17] يعادل عشرون شيكل حوالي ٢٠٠ غرام.

كـ «موظف رسمي» وليس بمعناه المتأخر كـ «خصي» على فوطيفار المتزوّج. وفوطيفار هو رئيس الحرس الذي أشترى يوسف من التجار المديَنيّين الذين جاءوا به الى مصر (التكوين، ٣٧: ٣٦). ويخلص كيتشن الى أن سيرة حياة يوسف تنسجم مع ظروف العصر في أواخر السلالة الثالثة عشرة الى أوائل السلالة الخامسة عشرة (Kitchen, 1977: 74).

ليس هنالك الكثير مما يمكن قوله بشأن مكان وزمان إستقرار إسرائيل وبنوه وعائلاتهم. ولكن للأسباب التي سبق ذكرها، وبشكل اكثر أهميّة لمتطلبات تحديد تاريخ حادثة الخروج اللاحقة، تبقى فترة حكم الهكسوس وعاصمتهم في الدلتا الشرقية هما الاكثر ترجيحا عند الباحثين على أنهما الزمان والمكان اللذين شهدا دخول بني إسرائيل الى مصر.

أما عن تاريخ الخروج، فإن أول إشارة في العهد القديم توحي بسياق تاريخي محتمل لهذه الحادثة هي ذكر الفصل الأول في سِفر الخروج لإستخدام بني إسرائيل كعمال سُخْرة في بناء مدن الخزن لفرعون «بايثوم ورمسيس». أما الاولى، فقد ورد ذكرها بصيغة **بير-آتوم** «في عدة نصوص من الحقبة الرمسيسية[18] الى الحقبة المسيحية، كما انها مذكورة بالإرتباط مع مدينة "تكو" (التي تقابل مدينة سُكّوث في العهد القديم (الخروج، ١٢: ٣٧))، التي كانت هي الاخرى مدينة موجودة في الحقبة الرمسيسية» (Thompson, 1977: 153). يشير أحد هذه النصوص، وقد تقدّم ذكره (*ANET,* 1950: 259)، الى «بحيرات بير-آتوم لمر[ن]بتاح حوتب-هير-مآت اللاتي هن [في] تجيكو». من الممكن ان يكون موقع مدينة بايثوم التي ذُكِرت في العهد القديم هو ما يُسمى حاليا بـــ «تل المسخوطة» او «تل الرتابة» القريب منها. أما مدينة **رمسيس** التي يذكرها ذلك الكتاب ايضا فمن المعروف اليوم أنها المدينة المصرية القديمة « باي-رمسيس أ-ناختو»، التي يعني اسمها «مقاطعة أو بيت رمسيس عظيم بالإنتصارات»، والتي أصبحت **مكان إقامة** فراعنة العصر الرمسيسي في منطقة **الدلتا**. وموقع هذه المدينة الحالي هو «تل الضبعة» في أفاريس في الدلتا الشرقية قرب «القناطر» الحديثة (van Seters, 1966: 127-151). لقد كان آخر فراعنة السلسلة الثامنة عشرة حوريمحيب (١٣٢١-١٢٩٣ ق.م) أول من أهتم بالعاصمة القديمة التي طُرِد منها الهكسوس، حيث جدد بناء معبد الاله المحلي، سيث. ثم قام بعد ذلك سيتي الأول (١٢٩٣-١٢٧٩ ق.م)، ثاني فراعنة السلالة التاسعة عشرة، ببناء قصر صيفي في المدينة. إلا إن إبنه وخلفه رمسيس الثاني (١٢٧٩-

---

[18] من بين فراعنة السلالتين التاسعة عشر والعشرين (١٢٩٣-١٠٧٠ ق.م) الثماني عشر كان هنالك احد عشر فرعونا يدعى كل منهم «رمسيس»!

١٢١٢ ق.م)[١٩] كان هو الذي بنى باي–رمسيس، جاعلا قصر والده في مركز المدينة الجديدة. أراد رمسيس الثاني لمدينته الجديدة أن تكون اكثر بهاءاً من ممفيس وطيبة، او على الاقل في مستواهما، وهو فعلا ما حصل. بل انه اتّخذ باي–رمسيس عاصمته.

لقد وصلت إلينا فعلا كتابات مصرية قديمة تشير الى مدينة باي–رمسيس كمدينة خزن، كما هي موصوفة في سِفر الخروج. فمثلا هناك أغنية تمجّد المدينة الجديدة كما يلي:

جلالــته– حياة، رخاء، صحة!– بنى لنفسه قلعة إسمها «عظيم بالإنتصارات». إنها تقع بين جاهي[٢٠] ومصــر. ومملوءة غذاء ومؤونة. إنها مثل الهيرمونتيز[٢١]، وحياتها تشبه حياة ممفيس. الشمس تشرق على أفقها وتغرب فيه. ترك كل الرجال مدنهم وأستقروا في ربوعها. غربها هو بيت آمون، جنوبها هــو بيــت سيث، تظهر عشتار في شرقها وأوتو في شمالها[٢٢]. القصر الذي فيها يشبه أفق السماء (*ANET*, 1950: 470).

وهذا مثال آخر في هيئة رسالة من أحّد الكتّاب الى رئيسه:

لقد وصلتُ الى بير–رمسيس، ووجدتها في حالة جيدة [جدا جدا]، منطقة جميلة لا مثيل لها، على نمط طيبة. إن [رع] بنفسه [هو الذي أسّسها].

إنّ مكــان الســكن مــريح للعــيش ؛ حقلها مملوء بكل شيء جيد؛ إنها مملوءة في كل يوم بالمؤونة والأغذية، بركها مليئة بالأسماك، *وبحيراتها* مليئة بالطيور. مروجها مخضوضرة بالحشيش، وضفافها تحمــل الــتمور؛ بطيخها متوفر بكثرة على الرمال.... مخازن حبوبها مملوءة جدا بالشعير وحنطة العلف الى مستوى يصل قريبا من السماء. والأبصال والكُرّاث *للأكل* وخس الحديقة والرمان والتفاح والزيــتون وتين البساتين، خمر *كا* المصري الحلو، العسل الفائق، سمك *ويج*–أحمر من قنوات مدينة

---

[19] يختلف الباحثون قليلا حول التواريخ الجوليانية **الدقيقة** لفترات حكم الفراعنة، حيث يقترح بعض الباحثين تواريخا أقدم او أحدث من التواريخ التي يقترحها غيرهم. وعلى سبيل المثال، فإن التواريخ المذكورة اعلاه لحكم رمسيس الثاني هي وفقا لما يُعرَف بـــ «الجدول الزمني الواطيء low chronology» والذي يُستَعمَل من قبل الباحثين اكثر من «الجدول الزمني المتوسط middle chronology» و «الجدول الزمني العالي high chronology». أما تاريخ حكم رمسيس الثاني وفقا للجدولين الاخيرين فهو (١٢٩٠–١٢٢٣ ق.م) و (١٣٠٤–١٢٣٧ ق.م) على التوالي. وبهدف التجانس، فقد أتّبعنا في هذا الكتاب جدول زمني واحد وهو ذاك الذي اتّبعه كلايتون (Clayton, 1994).

[20] مركزها الساحل الفينيقي ولكنها تمتد الى داخل فلسطين.

[21] مركز عبادة ديني قديم جنوب طيبة.

[22] آمون، سيث، عشتار وأوتو هي أسماء آلهة.

السكن، *التي* تعيش على زهور اللوتس، سمك-*بدين* من مياه-*هاري*...
يوجـــد ملح في شي-هار، *وقناة هير* فيها معدن النطرون. سفنه تغادر وتعود للرسو لكي تصل مؤن وأغذية كل يوم... (*ANET*, 1950: 471).

من هذه الأوصاف، وخصوصا الإشارة الصريحة الى «مخازن حبوبها» المملوءة، يتّضح ان باي-رمسيس كانت فعلا مدينة خزن كما وُصفت في العهد القديم. ويُعتقد ان رمسيس الثاني إستخدم المدن-المخازن لضمان وجود مؤن جاهزة لجيشه حين اشتراكه في حملات حربية في سوريا وفلسطين (Yurco, 1997: 54).

بالرغم من أن إسم فرعون لا يُذكر إطلاقا في العهد القديم، فإن إشارة العهد القديم الى إستعباد بني إسرائيل في بناء مدينة باي-رمسيس يعني ضمنيّاً بأن رمسيس الثاني هو الفرعون الذي إستعبدهم. إن وصف العهد القديم لمدينة باي-رمسيس بأنها مدينة خزن هو وصف دقيق بشكل ملحوظ. مع ذلك، فإن ذكر إسم مدينة باي-رمسيس في العهد القديم لا يخلو من مشاكل. فبالرغم من أن الاشارات الى إسم المدينة باي-رمسيس في الخروج (١: ١١؛ ١٢: ٣٧) والأعداد (٣٣: ٣، ٥) لا تشكّل اية معضلة، فإن هذا لا ينطبق على ذكر هذا الأسم في التكوين (٤٧: ١١): «*فأسكن يوسف أباه وإخوته وأعطاهم ملكاً في أرض مصر في أفضل الأرض في أرض رعمسيس كما أمر فرعون*». مشكلة هذا النص هي أن يوسف عاش في مصر قبل بناء باي-رمسيس بزمن طويل! إلا ان أحد التفسيرات الممكنة لهذا الأمر هو أنّ أستخدام الاسم باي-رمسيس في التكوين (٤٧: ١١) كان ببساطة خطأً حدث لأن النص وُضِع بعد فترة طويلة من زمان الحادثة التي يصفها ولأن مؤلِّف سِفر التكوين هو غير كاتب أو كتّاب نصوص العهد القديم الأخرى التي تذكر مدينة باي-رمسيس. إن هذا الإحتمال بالذات يمكن أن يفسّر المشكلة الاخرى التي لاحظها بعض الباحثين (مثل Redford, 1992:260) وهي إشارة العهد القديم الى المدينة بتسمية «رعمسيس» بدلا من الإسم المصري الكامل لها وهو «باي-رمسيس». سواء متعمِّدين أم بشكل عفوي، فقد قام منقحو العهد القديم، في مفارقة تاريخيّة، بتسمية المدينة المصرية التي عاش فيها يعقوب وأبناءه بإسم «رمسيس» لأنهم استقروا في نفس المكان الذي سكنته الأجيال اللاحقة من بني إسرائيل وعملت فيه كعبيد في بناء مدينة باي-رمسيس.

هنالك جزء آخر مهم من رواية العهد القديم ذو صلة بتأريخ الخروج هو الإشارة الى **إستعباد** بني إسرائيل في أعمال بناء. توجد نصوص (*ANETS*, 1968: 553-554) تدلّل على أن المصريين استخدموا عبيدا من الساميين منذ منتصف القرن الثامن عشر ق.م، الامر الذي كان مقدَّرا له أن

يستمر طيلة الألف وخمسمائة سنة اللاحقة. ويؤكّد البروفسور دونالد ريدفورد Donald Redford، أستاذ دراسات الشرق الأدنى في جامعة تورنتو، بأنه بينما يصحّ القول بأن «المملكتين القديمة والوسطى كانتا حساستين من ناحية حاجتهما للأيدي العاملة، والتي كان يمكن توفيرها فقط عن طريق نقل أجانب بالقوة إلى ضفاف النيل، فإن إمبراطورية المملكة الجديدة كانت هي التي أنتجت أكبر عدد من الأسرى وعمال السخرة الآسيويين في مصر» (Redford, 1997: 59). ومن بين فراعنة المملكة الجديدة كان رمسيس الثاني هو الذي باشر بأضخم مشاريع البناء التي تطلبت أعدادا كبيرة من العمال. في الواقع، كان رمسيس الثاني أكبر البنّائين من فراعنة مصر على مر الأزمان، حيث غطت الأبنية التي شيّدها كل الأراضي المصرية. لذلك فإن من الطبيعي أن نستنتج أنه لابد ان يكون رمسيس الثاني قد لجأ الى عمال السُخرة أكثر من كافة اسلافه وخلفه. ورد أحد الامثلة عن عدد العمال الذين أُستخدموا في مشاريع بناء رمسيس الثاني في كتابات على الصخور الرملية في مقالع جبل السلسلة تبيّن بأنه تم استخدام ما لا يقل عن ٣٠٠٠ عامل في قطع الصخور الخاصة للرميسيوم Ramesseum، وهو المعبد–المقبرة الضخم الذي شيّده رمسيس الثاني على الضفة الغربية للنيل في طيبة (Clayton, 1994: 153). كما ان هناك كتابات تتحدث بصراحة عن إستخدام عمّال سخرة في مشاريع البناء الضخمة لرمسيس الثاني. فمثلا في العام الثامن والثلاثين من حكمه، عيّن رمسيس الثاني نائبا إسمه «سيتاو» كان نشطا جدا في جمع عمّال سخرة لمشاريع البناء التي أشرف عليها وفي جمع الأموال. في ما يلي اقتباسا من مذكرات سيتاو الشخصية المكتوبة على ستيلي في أبي سمبل (Kitchen, 1982: 138):

> لقد عرف سيدي مرة أخرى ما أستحقه... فعُيِّنتُ كنائب النوبة... أدرتُ العبيد بالآلاف وعشرات الألاف، ومئات الآلاف من النوبيين، [أعدادا] بدون حدود. جلبت كل مستحقّات أرض كوش مُضاعفة، جعلت [الناس] يأتون [صاغرين]، كما لم يفعل نائب من قبل منذ عام صفر. إيرم أعطت الجزية، .. ورئيس أكوياتا مع زوجته وأطفاله وكل جمعه..
>
> ثم [كُلِّفت ببناء معبد] رمسيس الثاني في مقاطعة آمون، الذي يُنفَّذ في الجبل الغربي كعمل خالد، مليء بالكثير من الناس من أسرى جلالته، مخازنه مملوءة بالمؤونة المتراكمة [الى السماء..]. قمت بشكل كامل [بإعادة] بناء معابد أرباب أرض كوش هذه التي كانت قد تحولت الى خرائب، والتي يتم تحديثها تحت الإسم العظيم لجلالته، المحفور عليها الى الأبد.

ويؤشّر كيتشن أيضا بأن هنالك ستيلي لضابط الجيش راموس تشهد بصحة أدّعاء سيتاو أعلاه بشأن إستعباد أسرى في بناء معبد رمسيس الثاني في وادي السبوا (Kitchen, 1982: 138):

السنة ٤٤:- أمر جلالته الواثق، نائب النوبة، سيتاو، بمعية أفراد من مرافقي رمسيس الثاني، «عسى أن يحمي آمون إبنه»، بأن يجمع أسرى من أرض الليبيين ليبني في معبد رمسيس الثاني في مقاطعة آمون، كذلك أمر (الملك) الضابط راموس لتجبيش (؟) قوة - وهكذا راموس.

هنالك معلومات آخرى من العهد القديم ذات أهميّة في تأريخ الخروج نجدها في النص التالي:

فأمر فرعون في ذلك اليوم مُسخري الشعب ومدبريه قائلا لا تعودوا تعطون الشعب تبنا لصنع اللبِن كأمس وأول من أمس. ليذهبوا هم ويجمعوا تبنا لأنفسهم. ومقدار اللبِن الذي كانوا يصنعونه أمس وأول من أمس تجعلون عليهم. لا تنقصوا منه. فإنهم متكاسلون لذلك يصرخون قائلين نذهب وننبح لإلهنا. ليثقل العمل على القوم حتى يشتغلوا به ولا يلتفتوا الى كلام الكذب. فخرج مسخرو الشعب ومدبروه وكلموا الشعب قائلين هكذا يقول فرعون لست أعطيكم تبنا. إذهبوا أنتم وخذوا لأنفسكم تبنا من حيث تجدون. إنه لا ينقص من عملكم شيء. فتفرق الشعب في كل أرض مصر ليجمعوا قشا عوضا عن التبن. وكان المسخرون يعجلونهم قائلين كملوا أعمالكم أمر كل يوم بيومه كما كان حينما كان التبن. فضرب مدبروا بني إسرائيل الذين أقامهم عليهم مسخرو فرعون وقيل لهم لماذا لم تكملوا فريضتكم من صنع اللبن امس واليوم كالامس واول من امس. فاتى مدبروا بني اسرائيل وصرخوا [توسلوا] الى فرعون قائلين لماذا تفعل هكذا بعبيدك. التبن ليس يعطى لعبيدك واللبن يقولون لنا اصنعوه. وهوذا عبيدك مضروبون. وقد اخطا شعبك فقال [فرعون] متكاسلون انتم متكاسلون. لذلك تقولون نذهب ونذبح للرب. فالآن أذهبوا أعملوا. وتبن لا يعطى لكم ومقدار اللبن تقدمونه (الخروج، ٥: ٦-١٨).

إن الإشارات الى إستخدام عمال السخرة من بني إسرائيل للتبن في صنع طابوق البناء، وشحة التبن في بعض الأوقات وفرض حصص انتاجية محدّدة ورد ذكرها كلها في كتابات مصريّة. في المعبد-المقبرة للوزير رخمير من السلالة الثامنة عشرة في طيبة يوجد منظر عن صناعة الطابوق يظهر فيه عمال ساميّون وليس مصريّين فقط. إن إستعمال القش والتبن مع الطين في صناعة الطابوق جاء بعد أن بيّنت الخبرة بأن ذلك ينتج طابوقا أفضل (Kitchen, 1977: 77). في هذه الحقبة، كانت المعابد تُبنى عادة من الحجر بينما تُبنى باقي المباني بما فيها القصور والمخازن ومساكن العسكريين والإداريين من طابوق الطين (Yurco, 1997: 46).

هناك أيضا كتابات مصرية تشير الى إستخدام نظام الحصص الانتاجية والى شحة القش. ففي بردية أناستازي الثالثة من مدينة ممفيس في أواخر القرن الثالث عشر نقرأ ما يلي: «الناس يصنعون الطابوق في بك الخاص بهم ويجلبونهم للعمل في الدار. إنهم يكملون الحصة الانتاجية الخاصة بهم

يوميا. إنني لا أتراخى بشأن العمل في الدار الجديد» (*LEM*, 1954: 106). أما بردية أناستازي الرابعة فتحتوي الشكوى التالية من أحد المسؤولين: «إنني باقي في كينكينينتو، بدون تجهيزات، ولا يوجد رجال لعمل الطابوق ولا قش في المناطق المجاورة. الأشياء التي جلبتها من متطلبات العمل تلاشت [بالرغم] من عدم وجود حمير لسرقتها» (*LEM*, 1954: 188). بالإضافة الى هذين النصين يمكن إضافة ملاحظة كينيث كيتشن بأنه: «من السنة الخامسة من عهد رمسيس الثاني (حوالي ١٢٨٦/١٢٧٥ ق.م)، كان عدد الطابوق يُسَجّل على لفيفة من الجلد توجد الآن في متحف اللوفر. بالأضافة الى أشياء أخرى، نقرأ عن أربعين رئيس إسطبل عُيِّن لكل منهم حصة ٢٠٠٠ طابوقة (أي ٨٠ ألف للكل). وتبيّن الأرقام المتتالية المُضافة أمام إسمائهم مع مقدار "الحصّة المُستَهدَفة" التقدّم في الإنتاج، حيث من النادر أن يتم تحقيق الحصّة». ويشبّه كيتشن «رؤساء الإسطبل» هؤلاء بـــ «مسخري الشعب» المذكورين في العهد القديم. كما يثير الإنتباه الى حقيقة أنه «تبيّن قوائم العمل من قرية العمال في دير المدينة في طيبة الغربية أن الناس كانوا يستمتعون بأيام من العطل لمختلف لأسباب بما فيها "تقديم أضحيات كلٌ لإلهه"، مثلما طلب موسى "عطلة" لشعبه ليذهبوا للعبادة في البرّية» (Kitchen, 1977: 77-78).

يشير العهد القديم ضمنياً ايضا الى ان موسى وهارون، اللذين كانا يعيشان مع أبناء جلدتهما من بني إسرائيل، كانا يعيشان أيضا قريبا من فرعون كما يتّضح من زيارتهما له بصورة منتظمة، أو حتى يومية. وكما أكد فرانك يوركو، فإن هذا كان ممكن الحدوث في الحقبة الرمسيسية فقط حين كان مقر الفراعنة الرسمي في باي–رمسيس، والتي كانت بالقرب من موقع سكن بني إسرائيل المضطهدين. كما يؤكد يوركو أيضاً أن هذه الصورة من العهد القديم حول زيارات موسى وهارون اليومية الى فرعون تشكّل معضلة للباحثين الذين يعتقدون ان الخروج حصل في وقت يسبق ذلك بكثير، ذلك أن فراعنة السلالة الثامنة عشرة أقاموا في ممفيس التي كانت تبعد مسافة سفر ثلاثة أيام بالنهر من موقع باي–رمسيس (Yurco, 1997: 46).

أما بشأن إدعاء بعض الباحثين، الذين يرفضون تاريخيّة الخروج، بأن محرري العهد القديم في القرنين السابع والسادس ق.م اخترعوا رواية سِفر الخروج وأنها ليس لها أساس من الصحة، فيلاحظ يوركو بأنه في تلك الحقبة التي تقابل السلالة السادسة والعشرين (٦٦٤–٥٢٥ ق.م) كانت عاصمة فرعون في «سايس» التي تقع في اقصى الغرب من باي–رمسيس. كما أشار يوركو الى أنه خلال الحقبة التي كانت فيها سايس هي العاصمة لم يكن يهود مصر يُستَخدَمون كعبيد في مشاريع بناء، كما ينص سفر الخروج، بل كمرتزقة (Yurco, 1997: 46). في سياق ترجيحه لوقوع

حادثة الخروج في الحقبة الرمسيسية على غيرها من الحقب، جذب يوركو الإنتباه ايضا الى حقيقة أن «سِفر الخروج يتضمّن أسماء أشخاص – موسى، فايناس، هوفني، شفرة، وفوعة – تميّز العصر الرمسيسي، والتي كان ظهورها أقل في عصر السلالة الثامنة عشرة وأقل من ذلك في عصر السلالة السادسة والعشرين. ففي اللغة المصرية، يوجد إسما موسى وفينياس بكثرة في المصادر الرمسيسية كأسماء أشخاص» (Yurco, 1997, 46-47). بالإضافة الى ذلك، إذا أخذنا بنظر الإعتبار إستخدام العبيد في مشاريع البناء في كل مصر، يصبح من الصعب فهم سبب أن أي يكون كتّاب العهد القديم قد تخيّلوا بأن أجدادهم السابقين إستُعبدوا للعمل في مشاريع بناء باي–رمسيس وليس سايس أو أية مدينة أخرى، هذا إذا لم يكونوا فعلا قد سُخِّروا في بناء باي–رمسيس.

ويثير ملامات الإنتباه الى نقطة مهمة أخرى تؤيد الرأي القائل بأن خروج بني اسرائيل حصل في وقت ما في أواخر القرن الثالث عشر أو أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد. إذ يشير ملامات الى تكرار موسى لطلبه من فرعون «أطلق شعبي» (مثلاً في الخروج، ٥: ١؛ ٧: ١٦)، مبيّنا ان هذا يعني ان بني إسرائيل لم يكن بمقدورهم مغادرة الأرض دون موافقة فرعون، الامر الذي يتّفق تماما مع عدد من برديّات أناستازي التي تؤكد سيطرة المصريين المحكمة على حدودهم الشرقية. فقد رأينا سابقا في بردية أناستازي السادسة التي تعود الى عصر مرنبتاح، خَلَف رمسيس الثاني، بَدواً يطلبون من مسؤولين متمركزين على الجبهة الشرقية السماح لهم بدخول الدلتا. ومما له دلالة استثنائية في بردية أناستازي الخامسة التقرير التالي لمسؤول مصري كان قد أُرسِل للقبض على عبدين فارين من المقر الملكي في باي–رمسيس:

> من رئيس القوّاسين في تشيكو، كا–كيم–وير، الى رئيس القوّاسين آني ورئيس القوّاسين باكه–بتاح:
> ... أمــر آخــر، أما بعد: لقد أُرسلت من الصالات العريضة في القصر–حياة، رخاء، صحة!– في الشـــهر الثالث من الموسم الثالث، اليوم التاسع، في وقت المساء، لأطارد هذين العبدين. والآن عندما وصـــلت أسوار تشيكو في الشهر الثالث من الموسم الثالث، اليوم العاشر، أخبروني أنهم أتجهوا الى الجـــنوب ومـــروا فـــي الشهر الثالث من الموسم الثالث، اليوم العاشر. [والآن] عندما وصلت القلعة أخبرونـــي أن *الكشّاف* كان قد عاد من الصحراء [قائلا] بأنهم كانوا قد تجاوزوا القصر المسوَّر شمال مغدول لسيتي مرنبتاح – حياة، رخاء، صحة!– محبوب مثل سيث.
> عـــندما يصلك كتابي هذا، أكتب لي عن كل ما حصل لهما. من وجد آثارهما؟ أي حارس عثر على أثـــرهما؟ مـــن هم مطارديهم؟ أكتب لي عن كل ما حصل لهم وكم من الناس بعثت خلفهم (*ANET*, 1950: 259).

ويشخّص ملامات أربعة ملامح مشتركة بين بردية اناستازي الخامسة وقصة الخروج: (أ) هروب العبيدين من باي-رمسيس بحثا عن الحرية؛ (ب) مطاردة مسؤولين عسكريين مصريين للهاربين لإعادتهم الى مصر؛ (ج) إن الطريق الى سيناء الذي سلكه العبدان الهاربان هو تقريبا نفس الطريق الذي سلكه بنو إسرائيل؛ (د) وأخيراً، حصول الهروب تحت جنح الظلام (Malamat, 1997: 19-22).

والآن، لما كان من المُحتَّم ان فرعون الإضطهاد الذي سخّر بني إسرائيل في بناء باي-رمسيس كان رمسيس الثاني، وبالأخذ بنظر الاعتبار رواية العهد القديم بأن فرعون الذي استعبد بني إسرائيل كان قد مات قبل عودة موسى الى مصر من مدين مُرسَلا من قبل الله (الخروج، ٢: ٢٣)، فإن مرنبتاح (١٢١٢-١٢٠٢ ق.م)، إبن رمسيس الثاني وخليفته، لابد أن يكون هو فرعون الخروج، أي الفرعون الذي رفض السماح بخروج بني إسرائيل مع موسى لعبادة الرب في الصحراء والذي طاردهم مع جيشه بعد هروبهم من مصر. ولما كان هذا الفرعون قد توفي خلال خروج بني إسرائيل (الخروج، ١٤: ٢٨)، كما ينص العهد القديم، لا يبقى غير الإستنتاج بأن تاريخ الخروج هو نفس تاريخ وفاة مرنبتاح وإعتلاء آمينميسيس (١٢٠٢-١١٩٩ ق.م) العرش، أي عام ١٢٠٢ ق.م.

لقد رأينا حتى الآن في هذا الفصل بأنه على الرغم من عدم وجود دليل **مباشر** على إقامة بني إسرائيل في مصر وهجرتهم بعد ذلك منها، فإن هناك دلائل **ظرفية** مهمّة تشهد بتاريخيّة حادثة الخروج. إن هنالك جوانب اساسية من رواية العهد القديم تتطابق بشكل مهم مع عدد من الحقائق التاريخيّة الثابتة. يشير هذا التطابق بين العهد القديم وحقائق تاريخيّة مستقلّة عنه إلى أن فرعون إضطهاد بني إسرائيل وفرعون الخروج، اللذين يتحدث عنهما سِفر الخروج في العهد القديم، هما بالتأكيد رمسيس الثاني ومرنبتاح، على التوالي. وتبعا لذلك، فإن تاريخ واقعة الخروج هو تاريخ وفاة مرنبتاح. إلا انه يجب التأكيد هنا على ان هذا الإستنتاج يعتمد على إهمال تناقضات في العهد القديم ستُناقَش لاحقا في القسم الخامس من هذا الفصل.

٣-٤ تعيين تاريخ الخروج جزئيا وفقا للعهد القديم

من الضروري التأكيد على انه حتى الباحثين الذي يقبلون بشكل أو بآخر تاريخيّة الخروج إعتمادا على العهد القديم لا يتفقون مع كل ما ورد في تلك الرواية ولكنّهم يلتقطون من العهد القديم التفاصيل التي يرونها ملائمة لما يريدون ترويجه من أنموذج تاريخي ويرفضون ما هي غير ملائمة له. يبني معظم هؤلاء الباحثين تخميناتهم بشأن تأريخ الخروج إعتمادا على إشارة العهد القديم الى

بايثوم ورمسيس، كما بيّنا في القسم السابق. الا انهم يرفضون بشكل خاص ربط تاريخ الخروج مع نهاية عهد فرعون كما يذكر العهد القديم صراحة. إن أحد العوامل الذي من المرجح ان يكون قد أسهم في لاشعبية هذه المعلومة من رواية العهد القديم بين الباحثين هو عدم توفر سجلات تؤكد غرق فرعون وجيشه. ولهؤلاء الذين يعتقدون ان فرعون الخروج كان رمسيس الثاني أو مرنبتاح، فإن العامل المؤثر الآخر هو وجود مومياء كلا من هذين الفرعونين، إذ من غير المتوقَّع أن تُنقَذ جثة فرعون من بعد غرقه في البحر وبالتالي تُحنَّط كمومياء.

يرفض الباحثون بنفس القوة كذلك إدعاء العهد القديم موت الفرعون عندما كان موسى في مدين والذي يعني ضمنياً ان فرعون الإستعباد هو غير فرعون الخروج. بالإضافة الى رفضهم لإدّعائي العهد القديم أعلاه، قام بعض الباحثين، وبدون تبرير، بأختيار إدّعاء العهد القديم عن الكارثة الاخيرة حول إهلاك الله لكل مولود بكر للمصريين وماشيتهم (الخروج، ١١: ١٢) كأساس لتحديد تاريخ الخروج بدقة. توحي رواية العهد القديم بأن الأحداث المختلفة في كفاح موسى ضد الفرعون، بما فيها الكوارث العشرة، توالت في الحصول بوقت قصير واحدة بعد الأخرى وأن الخروج حصل بعد قتل المواليد البكر مباشرة. قد يكون رفض هؤلاء الباحثين لإدعاء العهد القديم بوفاة فرعون الإستعباد عندما كان موسى في مدين، وهو إدّعاء يقود الى الإستنتاج بأن مرنبتاح هو فرعون الخروج، له علاقة بأن إدّعاء العهد القديم حول الكارثة الاخيرة الخاصة بوفاة أبكار المصريين لا ينطبق على مرنبتاح. لقد ربط الباحثون بين هذا الادّعاء الاخير ووفاة أكبر أبناء رمسيس الثاني وولي عهده «آمين–هير–خوبشيف» الذي يُرجَّح أنه كان قد مات قبل السنة العشرين من حكم والده. وبناء على هذا الترابط فإن كيتشن، على سبيل المثال، يقترح بأن الخروج يمكن أن يكون قد حصل حوالي السنة السابعة عشرة لحكم رمسيس الثاني أو بعد ذلك بقليل (Kitchen, 1982: 71, 240)، فيما يفضل يوركو تاريخا يقع ما بين السنة العشرين والسنة الثلاثين من حكم رمسيس الثاني وهي الفترة التي يعتقد بأن وفاة «آمين–هير–خوبشيف»[٢٣] وقعت فيها (Yurco, 1997: 47-48).

وهنا بعض من مفارقة ساخرة. إذ بينما يعتمد تاريخ الخروج المُقترَح هذا على قبول رواية العهد القديم عن الكارثة الاخيرة فإنه يعتمد بنفس القوة على الرفض التام لإدعائي العهد القديم بأن رمسيس الثاني، كونه فرعون الإستعباد، مات عندما كان موسى في مدين وأنّ الفرعون الذي خلفه غرق في حادثة الخروج. إن هذا الإختيار يوفّق فعلا بين نص العهد القديم والتاريخ وذلك لعدم إنطباق رواية الكارثة الاخيرة على مرنبتاح، ولكن السؤال هنا هو لِمَ تتم محاولة توفيق رواية العهد القديم هذه لا

---

[23] سنتطرق لاحقا الى ما يعتقد يوركو بأنها دلائلا إضافية على التاريخ الذي يقترحه.

غيرها؟ فمثلا، يمكن للمرء افتراض ان إدعاء العهد القديم عن الكارثة الاخيرة المتمثلة بهلاك أبكار المصريين وحيواناتهم هو إدعاء غير صحيح، وبذلك يمكن قبول الإدعاء الآخر بأن فرعون الإستعباد مات خلال وجود موسى في مدين. إن مشكلة هذا المنهج في **الإختيار والرفض** هو عدم قدرته على تبرير تبنّي هذا ورفض ذاك من تفاصيل رواية العهد القديم في الوقت الذي يقوم فيه المنهج نفسه على التشكيك في موثوقيّة ومصداقيّة ذلك الكتاب. بشكل عام، ليس هنالك تبرير على وجه الخصوص لقيام المرء بحساب تاريخ الخروج على أساس من معلومة معينة من العهد القديم، كالكارثة الاخيرة على سبيل المثال، بينما يرفض إدعاء العهد القديم الآخر بوفاة فرعون خلال ملاحقته لبني إسرائيل. إن العهد القديم يصرّ بشكل واضح تماما على أن فرعون كان بين الموتى في البحر، بل يعرض وفاته على انها ذروة عقاب الرب. إن قبول رواية العهد القديم ولكن رفض الحادثة المحورية فيها التي تمثّل ذروة القصة هو أمر أقل ما يقال عنه أنه يفتقر إلى المنطق.

بأختيارهم لوفاة الإبن الأكبر لرمسيس الثاني لتعيين تاريخ الخروج، فإن الباحثون يعنون ضمنيّاً بأن ذكر مثل هذا الحدث في العهد القديم هو امر غير اعتيادي وبالتالي فإنه أرجح من غيره من الاحداث لأن يكون قد وقع فعلا. ولكن الحقيقة هي أنه ليس هنالك ما هو استثنائي بخصوص مثل هذه الحادثة. فوفاة صغار السن بشكل عام كان شائعاً جداً في الازمان القديمة ولذلك فليس هنالك ما هو فوق اعتيادي في وفاة أبن أثناء حياة والده. في الواقع، في حالة رمسيس الثاني بالذات الذي عاش حتى تجاوز التسعين، فإنه ليس هنالك اي مبرر للنظر الى وفاة أكبر أبناءه قبله على انه امر غير اعتيادي. إذ شهد رمسيس الثاني وفاة العديد من أبناءه وبناته الذين تجاوز عددهم المائة.

بالإضافة الى كل هذه الإعتراضات التي يمكن تقديمها على إعتماد تاريخ الوفاة المبكّرة لأكبر أبناء رمسيس الثاني في تاريخ الخروج، يبدو ان وقوع هذه الوفاة ليس امرا مؤكدا تماما اساسا! فكيتشن نفسه يبدو وكأنه يشير الى عدم وجود دليل مباشر على وفاة أكبر أبناء رمسيس الثاني وأن تلك الوفاة قد أُستنتِجت بشكل غير مباشر من حقيقة أنه بحلول السنة العشرين من حكم رمسيس الثاني فإن آمين-هير-خوبشيف لم يعد «ولي العهد» وان اللقب كان قد أنتقل الى أخيه سيث-هير-خوبشيف. من الممكن أن يكون فقدان آمين-هير-خوبشيف للقبه كولي عهد رمسيس الثاني يعود الى إستبدال رمسيس الثاني له بإبنه الآخر أثناء حياته لسبب ما وليس بالضرورة لوفاته. بالإضافة الى هذا يذكر كيتشن ما يلي: «بحلول السنة العشرين لم يعد آمين-هير-خوبشيف ولي العهد (أو لم يعد هذا إسمه) ومن الارجح أنه كان قد توفي» (Kitchen, 1982: 102). أي أن كيتشن لا يستبعد إحتمال أن آمين-هير-خوبشيف كان لا يزال حيا ولكن تحت أسم آخر. ومما يجدر ذكره هنا هو ان

آمين-هير-خوبشيف نفسه لم يكن لإسم الأصلي لإبن رمسيس الثاني البكر ولكنه الإسم الذي أختاره رمسيس الثاني ليستبدل به إسم أبنه وقت ولادته، آمين-هير-ونميف! يتّضح مما تقدم بأن تاريخ الخروج إعتمادا على الموت المزعوم للأبن البكر لرمسيس الثاني لا يمكن الوثوق به.

إن أحد مظاهر التعامل بحرّية مع رواية العهد القديم من قبل الباحثين الذين يقبلون إحتمال حصول الخروج هو **عقلنة** الحدث بنزع صفاته الإعجازية عنه. فمثلا لتفسير هروب بني إسرائيل من غير ربطه بأية معجزة، يقترح الباحث ملامات إن خروجا «فوريا»[٢٤] يمكن ان يكون قد حدث في وقت ما خلال الفترة من أواخر القرن الثالث عشر والسنين الاول للقرن الثاني عشر ق.م وهي الحقبة التي شهدت تفكّك الإمبراطوريتيين المصرية والحيثية الامر الذي يمكن ان يكون قد وفّر لبني إسرائيل، وغيرهم من الأقليات المضطهدة من أناضوليا الى مصر السفلى (الشمالية)، فرصة للفرار من مضطهديهم (Malamat, 1997: 17).

إن أحد الاهداف الواضحة لتطبيق منهج العقلنة هو معجزة عبور البحر. فقد صُوِّر شق البحر كحدث طبيعي بدلا من معجزة قام بها موسى. ففرانك يوركو، على سبيل المثال، يستشهد بنصين شعريين في سِفري الخروج (١٥) والقضاة (٥) ليوحي بإن النص الحالي لمعجزة شق البحر في العهد القديم هو مختلَق وأن النص الأصلي تحدّث عن عبور ما وصفه بأنه «بحيرة مملوءة بالبردي كالهور»؛ فعبور الأخيرة بالعربات من قبل المصريين كان صعبا بشكل استثنائي (Yurco, 1997: 45). كما أدخل عدد من الباحثين الآخرين في نماذجهم التفسيرية للخروج عاملا طبيعيا اخر، مستغلّين إستغلالا كاملا ذكر الريح في الخروج (١٤: ٢١). إذ تقدّم هيات بالإنموذج التالي: «إن ريحا شرقية قوية، على الارجح دامت لعدة أيام، جفّفت الهور بشكل كاف ليسمح للعبريين المتسلحين بشكل خفيف بالعبور؛ ثم جاءت عاصفة مفاجئة ساعدت العبريين في دحر المصريين الذي كانو مدججين بالسلاح إلا أن عرباتهم أنغرزت في الطين. من غير شك ان بعض العبريين فقدوا أرواحهم ولكن الكثير منهم نجحوا في العبور الى الصحراء» (Hyatt, 1971: 45). لم يكن هيات الأول في الجمع بين «الريح الطبيعية» و«الأهوار الضحلة» في إنموذجه التفسيري. إذ كان يوليوس فيلهاوزن Julius Wellhausen (١٨٤٤-١٩١٨) قد سبق في الاقتراح بأن بني إسرائيل خاضوا بحراً ضحلاً كان قد انحسر ماءه بسبب ريح قوية. وفي سياق إشارته الى ان شق البحر لم يكن مجرد حادثة خيالية، يذهب كينيث كيتشن الى حد القول بأن شق الريح للبحر لم يكن حتى حادثة فريدة، مستشهدا

---

[24] يعتقد بعض الباحثين بأنه ربما كان هناك اكثر من خروج واحد أو خروج مستمر إستغرق فترة طويلة تُقدَّر بسنين او حتى قرون.

بقصة شخص ما كانت له، على حد قول كيتشين، «تجربة شبيهة (ولكن ليست قاتلة) في سيارته» (Kitchen, 1977: 78-79)! لقد لاحظ هوتمان (Houtman, 1996: 270) بأن كتّاب العهد القديم القدماء لم يشعروا بحاجة لتفسير كيفية عبور بني إسرائيل البحر أثناء هبوب الرياح القوية. إلا ان ما هو اكثر غرابة من هذا هو أن هذا السؤال لم يزعج الباحثين المعاصرين الذين يتقبّلون فكرة أنشقاق البحر **طبيعياً** بواسطة الرياح وكأن ما يقترحونه هو أكثر معقوليّة من المعجزة!

٣-٥ تناقضات تاريخ الخروج في العهد القديم

في توافق مع ما ذكرنا في الفصل الأول من تناقضات داخلية في العهد القديم، ليس من المستغرب أن نجد العهد القديم يناقض نفسه ويعطي مؤشرات مختلفة بشأن تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر. لقد رأينا سابقا ان الإشارة الى إستعباد بني إسرائيل في بناء بايثوم ورمسيس يعني ضمنياً بأن مرنبتاح كان فرعون الخروج. إلا أن هناك تاريخ مختلف تماما يشير اليه ضمنيّا سِفر الملوك الأول (٦: ١) الذي ينص على أنه: «*وكان في سنة الأربع مئة والثمانين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في السنة الرابعة لمُلك [الحكم] سليمان على اسرائيل في شهر زيو وهو الشهر الثاني أنه بنى بيت الرب*». لما كان كل الباحثين متفقين على أن حكم النبي سليمان أمتد من حوالي ٩٦٠-٩٢٠ ق.م، فإن الخروج لابد أن يكون قد وقع في حدود ١٤٣٦ ق.م. إلا ان هذا التاريخ يسبق بحوالي قرنين ونصف التاريخ الذي سبقت مناقشته والمُستنتَج من معلومات اخرى من العهد القديم. إلا انه بإستثناء إدعائه بأن الخروج وقع قبل ٤٨٠ سنة من بدء سليمان في بناء معبده في سنة حكمه الرابعة، فإن سِفر الملوك الأول لا يورد أية بيانات اخرى لدعم هذا التاريخ المبكر للخروج.

من الممكن تتبع اصل إرجاع تاريخ الخروج الى القرن الخامس عشر ق.م الى المؤرخ اليهودي يوسف بن ماثياس الذي أشتهر بإسمه الروماني فلافيوس جوزيفوس (٣٧-١١٠ ق.م)، والذي ربط الخروج بطرد الهكسوس من مصر. وبقي هذا الرأي شائعاً حتى العصر الحديث عندما تحتم رفضه نتيجة ما وُجِد من لُقط آثارية تُرجِع تاريخ أوائل مستوطنات بني إسرائيل في كنعان الى القرنين الثالث عشر والثاني عشر ق.م (أنظر مثلا Dever, 1997; Weinstein, 1997)، بالاضافة الى تناقضه مع إشارة العهد القديم الى إستعباد بني إسرائيل في بناء رمسيس. لم يعد تأريخ الخروج في القرن الخامس عشر ق.م مقبولا اليوم من قبل معظم الباحثين.

بالأخذ بنظر الاعتبار البيانات في سِفر الخروج، وعلى ضوء الحقيقة المُبرهَنة بلادقّة ولاموثوقيّة الأعداد المذكورة في العهد القديم، كحالة العدد ٦٠٠,٠٠٠ الذي جرت مناقشته سابقا والذي يزعم

العهد القديم أنه كان عدد بني إسرائيل الذين غادروا مصر، فإن رفض العدد ٤٨٠ سنة الذي يزعم سفر الملوك الأول أنه طول الفترة بين خروج بني إسرائيل وبناء سليمان للمعبد يبدو استنتاجا طبيعيا. إلا انه كانت هناك محاولات للتوفيق بين المعلومات المتناقضة في سفري الخروج والملوك الأول. ففرانك يوركو مثلا، وهو من محبذي تأريخ الخروج في القرن الثالث عشر، اقترح بأنه قُصِد بالرقم ٤٨٠ اثنا عشر جيلا مدة كل جيل ٤٠ سنة. ثم اقترح إعتماد ٢٠-٢٥ سنة طولا للجيل الواحد وبالتالي تحويل الـــ ٤٨٠ سنة الى ٢٤٠-٣٠٠ سنة. ثم بالحساب العكسي للعددين الاخيرين بدءاً من عام ٩٥٨ ق.م، على اعتبار أنها السنة الرابعة من حكم سليمان، يستنتج يوركو ان الخروج حسب سفر الملوك الأول حصل بين ١١٩٨ و ١٢٥٨ ق.م، حيث يقع الحد الاخير خلال حكم رمسيس الثاني. كما يشير يوركو أيضاً الى أن هذا الإستنتاج يتفق مع تأريخ معظم الباحثين للنصين الشعريين في الخروج (١٥) والقضاة (٥)، اللذين لهما علاقة بحادث شق البحر كما ذكر سابقا، في القرنين الثالث عشر والثاني عشر ق.م (Yurco, 1997: 48-49).

بالرغم من أنه قد يبدو محسوب بشكل متقن، فإن استنتاج يوركو هو تخميني بالكامل ويفتقد الى دليل يدعمه. إذ انه مبني على إفتراض يوركو الذي يفتقر الى الدليل بأن الـــ ٤٨٠ عاما عَنَت ١٢ جيلا، وعلى محاولته غير المبررة لإعتبار إن الجيل في العهد القديم يعادل ٢٠-٢٥ سنة. كما يترك هذا المنحى الباب مفتوحا على سعته **لإعادة قراءة** الأعداد في العهد القديم بكل شكل وأسلوب. إن التناقضات في الأعداد والنصوص التي ثبت وجودها في العهد القديم تجعل من شبه الحتمي حل التناقض الذي يمثله العدد ٤٨٠ سنة بالأستنتاج بأن محرري العهد القديم ارتكبوا خطأً عند كتابتهم الرقم ٤٨٠، ولا حاجة هناك لمحاولة تبرير أو توفيق هذا التناقض بالذات أكبر من الحاجة لتوفيق العدد الهائل من التناقضات الرقميّة والنصيّة الأخرى في العهد القديم.

كما يتّضح وجود تناقضات اخرى في العهد القديم عند الاخذ بنظر الاعتبار إشارته الى عودة الجيل الرابع لأبراهيم الى أرض جدهم الكبير مع إدعاءات اخرى فيه وكما بيّنا في القسم ١-٢.

هنالك تناقض داخلي آخر في العهد القديم يتعلق بالإدعاء بأن الله قال لموسى «*إذهب إرجع إلى مصر. لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك*» (الخروج، ٤: ١٩). تشير رواية العهد القديم ضمنياً الى أن الفرعون الجديد كان جاهلا تماما بتاريخ موسى والأحداث التي أجبرته على المغادرة الى مدين. إلا ان هذا لا يمكن ان يكون صحيحاً. عندما خلف مرنبتاح، وهو الإبن الثالث عشر لرمسيس الثاني، أباه كان في العقد السادس من عمره. ولما كان حكم رمسيس الثاني قد دام ٦٧ سنة، فإن هذا يعني بأن مرنبتاح كان قد وُلد حوالي زمن إستلام ابيه الحكم. وهذا بدوره يعني بأن

مرنبتاح كان موجودا عندما جلبوا موسى طفلا ليعيش في قصر أبيه رمسيس الثاني. لذلك فإن مرنبتاح لابد وان يكون قد عرف موسى الى درجة ما، ولابد وان يكون قد عرف بقتله المصري وفراره بعد ذلك من مصر. إذن فإدعاء العهد القديم بأن كل الرجال الذين أرادوا قتل موسى كانوا قد ماتوا عندما أُمِرَ موسى بالعودة الى مصر عندما كانت تحت حكم مرنبتاح هو إدعاء مخالف للعقل. إن من غير الممكن تبرير هذا التناقض بالقول ببساطة بأن مرنبتاح لم يكن يريد قتل موسى وبالتالي فإنه غير مشمول بعبارة العهد القديم اعلاه. فالعهد القديم واضح جدا في تصوير الفرعون الذي قابل موسى بعد عودته من مدين على أنه لم يكن يعرف موسى من قبل.

لقد شاهدنا في هذا الفصل بأن في العهد القديم معلومات متناقضة بخصوص تاريخ الخروج. إلا ان بيانات العهد القديم التي تشير الى تاريخ في أواخر القرن الثالث عشر ق.م هي أكثر موثوقية بكثير من المؤشر الوحيد الى منتصف القرن الخامس عشر ق.م الوارد في سِفر الملوك الأول.

٣

مقدمة عن القرآن العظيم

٣-١ أسلوب وتركيب القرآن العظيم

قبل البدء بدراسة تقييم القرآن العظيم للعهد القديم في الفصل التالي ومن ثم عرض الرواية القرآنيّة لقصة استقرار بني إسرائيل في مصر وهجرتهم منها في بقية الكتاب، من الضروري تسليط بعض الضوء على تركيب القرآن العظيم ككتاب وعلى أسلوبه الخاص والمُميَّز في رواية التاريخ.

يتكون القرآن العظيم من ١١٤ سورة تحمل كلا منها اسما فريدا مشتقا من محتواها ورقما يشير الى تسلسلها في المصحف الشريف. وتتكون كل سورة من عدد من الآيات الكريمة، حيث تختلف السور بطولها وبعدد آياتها. فأقل عدد آيات في سورة هو ثلاث (العصر (١٠٣)، والكوثر (١٠٨)، والفتح (١١٠))، بينما تحتوي سورة البقرة على أكبر عدد من الآيات في سورة واحدة وهو ٢٨٦ آية. أما العدد الكلي للآيات الكريمة في القرآن العظيم فهو ٦٢٣٦ آية. ويتراوح طول الآيات الكريمة من حرفين او بضعة حروف الى عشرات الكلمات.

نزل القرآن العظيم على شكل مجموعات مختلفة العدد من الآيات. وبإستثناء قصار السور، تتناول آيات السورة الواحدة عادة مواضيعا متعددة. تبعا لذلك، فإن الآيات المتتالية لا تدور بالضرورة حول نفس الموضوع. كما أن الآيات في السور الطوال ليست دائما مرتّبة حسب تاريخ نزولها. فليس من غير المألوف ان نجد في بعض السور عددا من الآيات تتوسّط آياتٍ نزلت بعدها وبالعكس. فمثلا هناك العديد من السور المكّية، اي التي نزلت قبل هجرة الرسول الأعظم محمد ﷺ من مكة المكرمة الى المدينة المنورة، تتضمن آيات مدنية، اي آيات نزلت بعد الهجرة. كما لا يمثّل ترتيب السور في المصحف الشريف تسلسل نزولها الزمني. فمثلا تسلسل سورة العلق في المصحف هو ٩٦ رغم أنها تتضمن اولى الآيات نزولا، وهكذا فإن أول سورة في المصحف الشريف، وهي سورة الفاتحة، لا تمثّل أول ما نزل من سور. إن هذا الترتيب الخاص للسور وآياتها في المصحف الشريف يعد جزءاً أصيلا من القرآن العظيم نفسه. فالرسول الأعظم محمد ﷺ هو الذي أقرّ هذا

الترتيب وكما علّمه ربه ﷺ.

إن القرآن العظيم هو كتاب الطريق الى الله الذي لا اله الا هو. أُوحِيَ القرآن الكريم الى الرسول الأعظم محمد ﷺ (٥٧٠-٦٣٢ م) خلال مدّة طولها حوالي ٢٢ عاما (٦١٠-٦٣٢ م). يحتوي القرآن على قصص تاريخيّة عن الأنبياء والأمم التي عاشت قبل عصر الرسول الأعظم محمد ﷺ. إلا أنّ من الضروري أدراك أن الهدف الرئيسي للإشارات المتفرقة في القرآن العظيم الى بعض الأحداث التاريخيّة هو التأكيد على الرسائل الإرشادية التي حملتها وتحملها تلك الأحداث. لذلك فإن التأكيد ليس على سرد الحدث بطريقة تقليدية كما هو الحال في العهدين القديم والجديد[٢٥]. أي أن التركيز في القرآن ليس على التاريخ البحت بل على المغزى والدروس التي تكمن خلف الأحداث التاريخيّة. لذلك فإن القرآن العظيم يختلف جوهريا في تركيبه وأسلوبه، إضافة الى محتواه طبعا، عن العهدين القديم والجديد.

من السمات المميّزة للروايات القرآنيّة هو إختصارها النسبي. حيث نجد ان بعض التفاصيل التاريخيّة التي تحمل أهميّة كبيرة في السرد القصصي التقليدي قد تُرِكت من غير ذكر في القرآن العظيم. فعلى سبيل المثال، كثيرا ما يشير القرآن العظيم الى شخصيات ومواقع محورية من غير ذكر أسمائها. من الامثلة الملحوظة على ذلك هو إسم زوجة آدم الذي لا يُذكر إطلاقا بالرغم من تكرر الإشارة إليها في مواقع متعددة من الكتاب العزيز، وأيضا مكان ولادة عيسى. ومن المثير للأهتمام أن ملك مصر في قصة موسى هو الآخر لا يُذكر إلا بلقبه: فرعون. إن هذا يوحي بأن إسم فرعون لم يُذكر أيضا في كتاب التوراة الذي أوحاه الله الى موسى، مما يفسّر المعضلة التي أشكل على بعض الباحثين فهمها (مثل Dever, 1997: 68) في أن إسم فرعون غير مذكور في العهد القديم، ذلك أن العهد القديم قد أُشتِقَّ بشكل جزئي من التوراة، كما سنفصّل في الفصل القادم. كما لا يشير القرآن العظيم عادة الى المدّة التي أستغرقتها الأحداث.

إن بعض المعلومات التاريخيّة المذكورة بشكل تفصيلي في العهد القديم قد ترد بصورة اكثر اختصارا بكثير في القرآن العظيم. فمثلا يشير العهد القديم الى ان السعر الذي دُفع لشراء يوسف كعبد كان «٢٠ شيكلاً» (التكوين، ٣٧: ٢٨) والذي يرى كيتشن (Kitchen, 1977: 74) أنه «معدل السعر الصحيح في القرن الثامن عشر ق.م». أما القرآن العظيم فلا يحدد سعر البيع ولكن يشير فقط

---

[25] العهد الجديد New Testament هو كتاب المسيحيين المقدس ويعتبروه امتدادا للعهد القديم الذي يقدّسونه هو الآخر. يعتقد المسيحيّون بأن مؤلّفي العهد الجديد كتبوه تحت اشراف وتوجيه رباني. أما اليهود فلا يؤمنون بقدسيّة كتاب العهد الجديد.

الى ان الذين عثروا على يوسف باعوه بثمن قليل: «وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ» (يُوسُف: ٢٠).

من الممكن أن ترد تفاصيل رواية قرآنيّة معينة في عدة سور، حيث سبق وان اشرنا الى الآيات المتتالية في السورة الواحدة ليست بالضرورة مرتبطة مباشرة مع بعضها البعض. كما قد تُكرر بعض التفاصيل في أكثر من سورة. كما أنّ من سمات أسلوب القرآن العظيم في رواية التاريخ أنّ إشاراته المتكرّرة إلى حدث معين قد تأخذ أشكالا متعددة في السور المختلفة. فمثلا قد يرد حوار بين شخصيات تاريخيّة معيّنة بعدد من التعابير المختلفة بهدف إيصال **معنى** ذلك الحوار. غالبا فإن لغة ذلك الحوار لم تكن عربية القرآن أصلا، هذا إن كانت بالعربية أساسا، مثل الحوار بين موسى فرعون. إن تكرار بعض التفاصيل التاريخيّة في سور مختلفة قد يتضمّن تركيزا على مظاهر مختلفة في تلك الحوادث. لذلك فإن بناء صورة متكاملة وشاملة لأية قصة في القرآن العظيم يتطلب جمع تفاصيل تلك القصة من مختلف السور التي ترد فيها.

فيما يلي آيتين كمثال على ما تقدّم: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥). وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦)» (إِبْرَاهِيم: ٥-٦). من الملاحظ أن الآية الأولى التي تشير الى بدء دعوة موسى تليها مباشرة آية تشير الى تذكير موسى لبني إسرائيل بتخليص الله لهم من فرعون وقومه، مع غياب تام لأية تفاصيل عن الحقبة الزمنية البينية، أي بين بدء دعوة موسى وبين الخروج. إن هذه المعلومات البينية موجودة بدرجات مختلفة من التفصيل في سور أخرى.

من الضروري لفت الانتباه الى إن أحدى سمات اسلوب القرآن العظيم غير التقليدي في رواية القصة التاريخيّة هو ذكره احيانا لحادثة قديمة وسط أحداث أخرى أحدث منها لغرض التأكيد على مسألة معينة. في مثل هذه الحالات لا يرتبط ذكر هذه الأحداث مع بعضها بواسطة «ثم» أو «فـ» اللتين تفيدان في تأكيد التسلسل التاريخي للأحداث، ولكن ترتبط الأحداث عادة بـ «إذ»[٢٦] التي تعني «عندما» والتي تُستخدم في القرآن العظيم لبدء الإشارة الى حدث ما في الماضي، وكما في المثال التالي:

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا

---

[26] من الضروري تمييز هذه الكلمة عن «إذا» التي تُستعمل مع حوادث في الحاضر او حوادث تكرارية الحدوث.

كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨). إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩). قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠). وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١). وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (الأعراف: ١٤٢).

في هذه المجموعة من الآيات الكريمة نجد أن الحدث الأقدم، وهو إنقاذ الله لبني إسرائيل من فرعون، يُذكَر وسط أحداث وقعت لاحقا بعد الخروج، تذكيرا لبني إسرائيل بخطيئتهم بالطلب من موسى أن يختار لهم إله يعبدوه بدل الله الذي أنقذهم من عذابهم في مصر. كما تذكر الآية ١٤٢ نفسها حدثين بتسلسل زمني معكوس، إذ من الواضح أن موسى عيّن أخاه هارون نائباً له قبل ذهابه لموعده مع الله.

إن أسلوب القرآن العظيم الخاص في عرض الأحداث التاريخيّة لا يغيّر حقيقة أن كل المعلومات القرآنيّة معروضة على أنها بيانات وقائعية تصف أحداثا حقيقية كما وقعت بالضبط. لذلك يمكن مقارنة المعلومات التاريخيّة المذكورة في القرآن العظيم مع بيانات تاريخيّة موثّقة.

كما سنبيّن بشكل اكثر تفصيلا في القسم ٤-٢، فإن كون العهدين القديم والجديد مبنيّان جزئياً على كتابين إلهيين أصيلين هما التوراة والإنجيل[27] بالإضافة الى بعض التعاليم الأصيلة لأنبياء بني إسرائيل يعني بالضرورة وجود تشابه بين النص القرآني، الذي هو أيضاً كتاب إلهي، وبعض فقرات العهدين القديم والجديد. إلا ان الفروق بين الرواية القرآنيّة وما يقابلها في العهدين القديم والجديد هي فروقات أساسية ومهمة جدا وذات دلالات كبيرة. ففي حالة المعلومات التاريخيّة، كقصة موسى مثلا، فإن صورة الاحداث التاريخيّة التي يقدّمها القرآن العظيم تختلف جوهريا عن تلك التي يعرضها العهد القديم، وهو ما سيتوضح في الفصول التالية.

٣-٣ الوصف القرآني للقرآن الكريم

كما ذُكِر سابقاً فإن القرآن العظيم يعرّف نفسه ككتاب مُوحى من الله الى النبي محمد ﷺ. ومن تصريحات القرآن عن نفسه التي لها دلالات استثنائية هي الآية الكريمة التالية: «**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ**

[27] الأنجيل هو الكتاب الذي أنزله الله عز وجل على عيسى ابن مريم.

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» (الحِجْر: ٩).[٢٨] يعني هذا التصريح بأن الله لم يوحي فحسب الكتاب الى الرسول الأعظم ﷺ ولكنه ﷻ يتدخل بقدرته للمحافظة عليه من كل محاولة للتلاعب به ويحميه من التحوير أو الإضافة أو الحذف. إن هذا التعهّد الإلهي يعني بأن النص القرآني الذي بين يدينا اليوم هو نفس النص القرآني الذي أُوحي الى الرسول الأعظم محمد ﷺ وأن القرآن العظيم هو كتاب **بدون تاريخ**.

هنالك آية كريمة آخرى تشير الى مناعة القرآن على كل شكل من اشكال الباطل على مر الزمان، وبالتالي فإن القرآن العظيم كان ولايزال وسيبقى كتابا إلهيا خالصا: «**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ** (٤١). **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** (٤٢)» (فصّلت: ٤١-٤٢). إن هذا الحفظ الالهي للقرآن العظيم من كل باطل يعني أيضا بأن كل ما ورد في القرآن العظيم هو دقيق وصحيح.

إن عدم وجود أية معلومة خاطئة في القرآن العظيم له مضمون هام وهو ضرورة عدم إهمال أي جزء من القرآن طال أم قصر. لذلك، عندما يبدو هناك أي تناقض **ظاهري** بين اية مجموعة من الآيات فالحقيقة هي أن هذا التناقض ليس بموجود حقّا وأنه لابد وان يكون نتيجة سوء فهم القاريء أو فشله في إدراك المعنى الصحيح أو الكامل للنص القرآني. في الواقع إن كل تشخيص لمثل هكذا تناقضات **ظاهرية** ومن ثم محاولة التوفيق بينها يمكن أن يقود الى المعنى الصحيح للنص القرآني. إن مثل هذا الفهم الصحيح سيكون، بالتعريف، متوافقا مع أي دليل من خارج القرآن العظيم، إن وُجِد مثل هذا الدليل.

يتطلّب التفسير الصحيح للنص القرآني إدراك أنّ «القرآن يفسّر بعضه بعضا». إن إهمال حقيقة أن القرآن هو مفسِّر نفسه لن يؤدي إلا الى سوء فهم النص القرآني **وخلق** تناقضات غير موجودة أساسا.

إن من سمات التفسير الصحيح لأيّة آية هو إفضاؤه الى فهم آيات أخرى. فإذا كان تفسير آية معيّنة تفسيرا قرآنيا صحيحا فإنّه **من المُحتَّم** أن يؤدي الى فهم آيات أخرى وأن يستمر كذلك، **ومن المُحتَّم** ان يكون في الإمكان ربطه بمعاني معروفة لآيات قرآنيّة أُخرى. ذلك أنّ الآيات القرآنية هي كلمات الله الطيّبات التي تشكّل فروع نفس الشجرة الطيبة، شجرة القرآن العظيم، فينطبق عليها هذا الوصف القرآني:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤). **تُؤْتِي أُكُلَهَا**

---

[28] «**الذِّكْر**» هو احد أسماء القرآن العظيم، ومصدر هذا الاسم هو أنّ القرآن العظيم هو كتاب ذكر الله.

كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥). وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦). يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (إبراهيم: ٢٧).

إن كل تفسير صحيح لآية قرآنيّة لابد ان يذكِّر بحقيقتها كجزء من شجرة القرآن الطيبة. إذ أنها لن تتوقف عن طرح ثمارها الطيّبة بما في ذلك مساعدتها على فهم النص القرآني والكشف عن تناسقه الخلاب الذي لا تشوبه شائبة، إضافة الى تثبيتها للذين آمنوا كونها كلام الله الثابت. أما التفسير الخاطيء فيتميّز بعقمه، حيث لا يُمكن إستخدامه أبدا لفهم آيات أخرى بصورة صحيحة، كما أن زيفه محكوم عليه بالفضح.

من الخواص الفريدة المميِّزة للقرآن العظيم هي أنه يكشف لقارئه من معانيه الخفية على قدر تقديس القاريء وتعظيمه له. فكلما أزداد عُمق إيمان قارئ القرآن العظيم به ومعاملته له ككلمة الله المعصومة من الخطأ كلما أغدق عليه القرآن العظيم من معارفه وكَشَف له ما يبقى خفيا على غيره. عند قراءة المرء للقرآن بالإجلال الذي يستحقه فإنه من المُحتَّم أن يُفاجأ بصورة مستمرة بما يُمكّن من مشاهدته في القرآن مما يُذكِّر بأن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون سوى كلام الله. إن قراءة القرآن العظيم بخشوع وهيبة تجلب، كما يقول الشيخ محمد الكسنزاني، «مفاجئات مع الله بلا واسطة». إن هذه الحقائق التجريبية التي يمكن إختبارها من قبل أي شخص جاد في بحثه تؤكّد وصف الرسول الأعظم محمد ﷺ للقرآن العظيم بأنه كتاب «لا تنقضي عِبَرُه ولا تفنى عجائبه» (سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن).

من الضروري التأكيد على أن تعهّد الله في الأية التاسعة من سورة الحجر اعلاه بحفظه للقرآن العظيم لم يرد في حق باقي الكتب السماوية التي سبقته بما فيها التوراة والإنجيل. ولما لم تحضى بقية الكتب الربّانية بنفس الحماية الإلهية التي أغدقها الله على القرآن العظيم فلقد فُقِدت كل تلك الكتب الالهية الأخرى التي سبقت نزول القرآن العظيم. لذلك فلا توجد اليوم أية نصوص تُشارك القرآن العظيم ميزته الفريدة في النطق بالحق المطلق، بما في ذلك كتب أحاديث النبي محمد ﷺ. فبالرغم من إحتواء كتب الأحاديث على الكثير من أحاديث الرسول ﷺ الموثوقة والصحيحة، فإنها في الوقت نفسه تحتوي على أحاديث مُحَرفة بدرجات متفاوتة وأخرى موضوعة بالكامل ولا علاقة لها بالرسول الأعظم ﷺ. ويتّفق الباحثون المسلمون على هذا الامر، إلا أنهم يختلفون في تشخيصهم للأحاديث الصحيحة وتلك الموضوعة. إن الباحثين من غير المسلمين غالبا ما يهملون هذا الفرق

الأساسي بين النص القرآني وباقي النصوص الدينية، بما فيها الأحاديث المنسوبة الى الرسول ﷺ، مما يؤدي الى خلطٍ بين المفاهيم الإسلامية الأصيلة وغير الأصيلة. أما المسلمون فإنهم أحيانا يبخسون في تقديرهم للعناية والدقة المطلوبتين في إثبات أصالة أي حديث قبل قبوله كجزء أصيل من فكر الإسلام. أما في هذا الكتاب فسندرس النص القرآني فقط الذي له علاقة بموضوع البحث. إنّ أصالة أي حديث منسوب الى الرسول ﷺ يجب تحديدها بمقارنة ذلك الحديث بمعلومات قرآنيّة.

يُبيّن الله في العديد من الآيات الكريمة أنه هو مُنزّل القرآن العظيم ومصدر العلم الذي وصل الى الرسول الأعظم ﷺ من خلال ذلك الكتاب: «**وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**» (النِّسَاء: ١١٣). لقد رد القرآن العظيم على العديد من الإتهامات التي وُجهت الى الرسول الأعظم محمد ﷺ بأنه لم يتلقّى القرآن من الله. فمثلا ردا على إتهام الرسول ﷺ بأنه ألّف القرآن أو استنسخه من كتب أخرى، أشار الله الى حقيقة كانت معروفة للناس وهي أنّه ﷺ كان أميا لم يقرأ أو يكتب أي كتاب قبل نزول القرآن العظيم عليه: «**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**» (العَنْكَبُوت: ٤٨). أما التهمة بأن القرآن أُمليَ على الرسول ﷺ من قبل رجل غير عربي له علم بالتوراة والإنجيل فقد دُحضت بحقيقة ان الشخص المذكور لم يكن يتكلم العربية بينما لغة القرآن عربية سليمة متكاملة: «**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**» (النَّحل: ١٠٣).

تؤكد آيات أخرى حقيقة أن القرآن العظيم من وضع الله من خلال جلب الإنتباه الى بعض الأحداث التاريخيّة المذكورة في القرآن العظيم التي لم يكن الرسول الأعظم ﷺ ولا قومه على علم مسبق بها إطلاقاً قبل نزول القرآن العظيم والتي لم يكن في أمكان الرسول الأعظم ﷺ معرفتها سوى وحيا من الله:

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ (يُوسُف: ٣).

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (آل عِمْرَان: ٤٤).

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ

لِلْمُتَّقِينَ (هُود: ٤٩).

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (يُوسُف: ١٠٢).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣). وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنْ الشَّاهِدِينَ (٤٤). وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمْ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥). وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (الْقَصَص: ٤٦).

يبيّن القرآن العظيم أيضا بأنه قد أُنزل لكي يدرسه الناس مؤكّدا على ان هذا التدبّر لا يمكن الا ان يؤكد مصدره الرباني:

كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (ص: ٢٩).

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (مُحَمَّد: ٢٤).

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (الْقَمَر: ١٧).

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (النِّسَاء: ٨٢).

تؤكد الآية الأخيرة على أنه لو لم يكن القرآن كتابا موحى من الله فإن دارسيه كانوا سيجدون فيه إختلافات داخلية كثيرة، اي تناقضات بين الآيات نفسها، بالإضافة الى تناقضات مع حقائق خارجية. ويتكرر ذكر هذه النقطة المنطقية في آيات أخرى أيضاً:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا (الكَهْف: ١).

قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (الزُمَر: ٢٨).

وبهذه الصفات الفريدة للقرآن العظيم يتحدّى الله الذين لا يؤمنون بكتابه أن يحاولوا أن يأتوا بشبيه للقرآن العظيم، أو بعشر سور أو حتى بسورة واحدة منه:

قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (الإسراء: ٨٨).

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (هُود: ١٣).

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧). أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨). بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (يُونُس: ٣٩).

وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣). فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (البَقَرَة: ٢٤).

بعد هذه المقدمة القصيرة عن القرآن العظيم يمكننا الآن البدء بدراسة آياته ذات العلاقة بموضوع كتابنا هذا.

٤

طبيعة العهد القديم وتاريخه

من المُحتَّم ان يلقي إحتواء العهد القديم على الكثير من التناقضات الداخلية المهمّة شكوكا عميقة على مصداقيته كوثيقة تاريخيّة. إلا ان هذا يجب ان لا يُفهَم على أنّه يعني بأنّ كل معلومة وردت في العهد القديم هي **بالضرورة** لاتاريخيّة، رغم ان هذا ليس بباعث على الطمأنينة حين يكون العهد القديم هو المصدر الوحيد لتلك المعلومة. ولكي نتعامل مع المعلومات الواردة في العهد القديم بصورة صحيحة، فإن من الضروري معرفة طبيعة العهد القديم وتاريخه أولاً. يقدّم هذا الفصل في البدء تاريخا مختصرا عن نظرة الباحثين المتخصّصين الى العهد القديم قبل الإقدام على دراسة تفصيلية الى حد ما لظاهرة العهد القديم على ضوء القرآن العظيم.

٤-١ العهد القديم: من «كلام الرب» الى «كلام بشر»

مرّت نظرة الناس الى العهد القديم[٢٩] بتغيرات جذرية على مدى القرون. فلمدّة طويلة ولغاية القرن الرابع عشر ميلادي كان يُنظَر الى العهد القديم على أنه «كلام الرب» الذي لا يمكن ان يحتوي على خطأ أو معلومة غير صحيحة. لذلك كان على كل مؤرخ العمل ضمن هذا الإطار وعدم تجاوزه إطلاقا. فقد كان للمؤرخ الحق في أن يوضح أو يفصّل ما روي في العهد القديم ولكن لم يكن له ان يشكك في صدقه. كان العهد القديم يُعتبَر التاريخ الحقيقي لدين أمة بني إسرائيل. كانت هذه هي النظرة السائدة عن تاريخ الشخصيات والأحداث في العهد القديم، عن خارطة العالم القديم وفقا لذلك الكتاب، وحتى عن تاريخ الخلق كما وُصِف في سِفر التكوين. أما المشاكل **الظاهرية** والتناقضات في نصوص العهد القديم فقد كانت تُعزى الى نقص في فهم القاريء للنص على أساس ان فهماً أكثر شمولية يزيل هذه التناقضات غير الموجودة فعلا. أي كان النص يُعتبر **خاليا** من أية

[29] بإستثناء بعض الفقرات التي تتعلق بمحتويات العهد القديم على وجه التحديد، فإن معظم ما يرد في هذا الفصل عن العهد القديم ينطبق كذلك على العهد الجديد.

تناقضات أصلية.

ألا أنّ تغيّرا بطيئا ولكن مُطّردا بدء بالظهور على هذا المنحى مع مجئ عصر النهضة الذي بدأ في أيطاليا في القرن الرابع عشر وانتشر الى اجزاء اوربا الاخرى والذي شهد إرساء قواعد علم كتابة التاريخ historiography الحديث. وجاء هذا التغيير كنتيجة طبيعية في عصر شهد إعادة النظر بالجملة في مختلف الإعتقادات التي كانت قد عمّرت طويلا، كما شهد في نفس الوقت إنتشار مفاهيم جديدة وبديلة. من الأمثلة البارزة على هذا التغيير هو إستبدال العالم الفلكي نيكولاس كوبرنيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣ م) الأنموذج الفلكي المعتمد من قبل الكنيسة الذي يجعل من الأرض مركزا للكون بأنموذج تقع الشمس فيه في مركز المنظومة الشمسية، وهو أنموذج فشل التراث القديم، رغم بقاؤه سائدا لمدّة طويلة، في الوقوف في وجه قبوله في النهاية.

أثبتت موجة التغيير التي بدأت في عصر النهضة وتناولت كل مظاهر الحياة أنها موجة لا يمكن إيقافها وأنها وُجدت لتستمر. وكانت احدى النتائج الحتمية لتيار التغيير الجديد هذا تغير الموقف من المفاهيم والكتابات الدينية بما فيها العهد القديم. فنصوص العهد القديم التي بقيت محصنّة ضد النقد، في الوقت الذي كانت فيه كل أنواع الكتابات والمباديء تتعرض لإعادة نظر وتمحيص دقيق، أستسلمت أخيراً الى مناهج النقد الوثائقي document criticism. فحركة الربوبية deism، التي أعتبرت العقل بدلا من الوحي أساسا للإيمان، كانت مؤثرة بصورة خاصة في إخضاع العهد القديم الى قواعد النقد الوثائقي. في دراسته الغنيّة بالمعلومات لتاريخ النظرة الى العهد القديم، بيّن جون هيز بأن مناقشات الربوبيين للعهد القديم والصورة التي يقدّمها عن التاريخ وضع قضايا نقد العهد القديم في متناول عموم الناس. وأكد هيز أن ما قام به الربوبيون من «هجومات قاسية على الدفاعات، داعمين قراءة وقائعية وحرفية للنص كانت مدمّرة. وما كان سيكون سهلا بعد ذلك أبداً عرض تاريخ إسرائيل واليهوديّة[30] بمجرد تكرار وتضخيم روايات العهد القديم» (Hayes, 1977: 51).

شهد النقد الأدبي للعهد القديم في القرن التاسع عشر تطورا رئيسا تجسد في ظهور «فرضية المصادر الأربعة». وفقا لهذه الفرضية، فإن الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم والمعروفة بـ «الأسفار الخمسة» Pentateuch نتجت من جمع وتحرير أربع وثائق مختلفة تعود الى مراحل زمنية مختلفة ولمؤلّفين مختلفين. عُرِفت هذه الوثائق المصدرية، والتي يعكس تسلسلها التالي تاريخ تأليفها،

---

[30] وفقا للعهد القديم، انقسمت امبراطورية النبي سليمان بعد وفاته الى ولاية شمالية عُرِفَت بـ «اسرائيل» وولاية جنوبية عُرِفَت بـ «اليهوديّة».

بـ اليَهوية Jahwist، الإلوهية Elohist، الشفرة الكهنوتية Priestly Code، والتثنوية Deuteronomist. ثم هُذِّبَت وطُورَت هذه الفرضية من قبل الباحث الألماني المؤثِّر يوليوس فيلهاوزن الذي أقترح بأن الوثائق المصدرية عكست الازمان التي كُتِبَت فيها ولذلك لا يمكن إعتمادها لإستخلاص معلومات «تاريخيّة» عن الآباء. من المُتَّفق عليه أن الأسفار الخمسة أخذت شكلها النهائي بعد عدة قرون من عمليات تحريرية بدأت، على ألأرجح، حوالي القرن العاشر ق.م.

أما في الوقت الحاضر، فحتى أولئك الذين يرفضون فرضية المصادر الأربعة ليس لهم سوى التسليم بأن العهد القديم يمكن تسميته بأي شيء سوى «كلام الرب» لأن مثل هذه التسمية تعني ضمنيّا أنه كتاب ذو معلومات موثوقة تماما. أما الباحثين المحافظين الذين يؤمنون بأن كلام الرب خالٍ من الخطأ فإنهم لا يستطيعون ان يطلقوا هذا الوصف الا على ما يشيرون اليه على أنه النص الأصلي **المُوحى** الذي لم يعد موجودا. وحتى أولئك الذين لايزالون يناشدون اللُقى الآثارية لدعم إدعاءات العهد القديم، وهو المنحى الذي أرتبط منذ ثلاثينات القرن العشرين بالباحث الأمريكي وليام فوكس أولبرايت (١٨٩١-١٩٧١)، يعرفون أن هذا المنهج هو سيف ذو حدين لأنه يدعم بعض إدعاءات العهد القديم ولكن في نفس الوقت يدحض الكثير منها. ولم يعد اليوم هنالك أي باحث يمكن ان يدّعي بجدية أنّ **التاريخ الحقيقي والتاريخ المروي في العهد القديم** هما الشيء نفسه. إن هذا ينطبق على كل من تاريخ الأشخاص، سواء كانوا من بني إسرائيل أم لا، وتاريخ خلق الكون في العهد القديم. لقد انهارت تماماً النظرة القديمة عن عصمة العهد القديم تحت وطأة ضربات المعرفة الإنسانية المتّسعة بإستمرار. وهكذا لم يعد العهد القديم بعدُ «كلام الرب» ولكن مجرّد «كلام بشر».

٤-٣ الحكم القرآني على العهد القديم

ينص القرآن العظيم على أن الله أوحى الى كل من موسى وعيسى كتابا: كتاب موسى إسمه التوراة وكتاب عيسى الإنجيل. من الخطأ مساواة هذين الكتابين الالهيين الأصيلين بكتابي العهدين القديم والجديد المشتقان بصورة محدودة جدا فقط من التوراة والانجيل. إن حقيقة ان التوراة قد أُوحيت الى موسى تعني أن ما من جزء من أجزاء أسفار العهد القديم التي تلي الأسفار الخمسة الاولى التي ينتهي آخرها بوفاة موسى يمكن أن يمت بأية صلة بالتوراة الأصلية. إذ ان هذه الأسفار هي بشكل أساسي سجلات لتاريخ أحداث ما بعد موسى. كذلك فإن كتب العهد الجديد غير الكتب الأربعة الاولى المُسمّاة على اسماء متّى ومرقص ولوقا ويوحنا والمعروفة في اللغة الانكليزية بمصطلح Gospels لا يمكن ان يكون لها أي أرتباط بالإنجيل. سنشير الى هذه الكتب الأربعة بتعبير

«كتب العهد الجديد الاربعة الاولى»، أما مصطلح «الاناجيل الاربعة» الشائع في العربيّة فهو مصطلح خاطيء تماما وكما سنبيّن لاحقا. إذا فإن ما نحتاج إلى مناقشته بالتفصيل هو العلاقة، إن وجدت، بين الأسفار الخمسة من العهد القديم والتوراة والعلاقة بين كتب العهد الجديد الاربعة الاولى والإنجيل.

هناك العديد من الآيات القرآنية الكريمة التي تخبرنا بأن التوراة والانجيل هما كلام الله الذي اوحاه الى موسى وعيسى على التوالي: «**نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ**» (آلَ عِمْرَان: ٣). كما ينص القرآن العظيم بوضوح على ان نسخاً من هذين الكتابين كانت متوفرة عند يهود ونصارى الجزيرة العربية في وقت نزول القرآن العظيم، ولذلك يشير القرآن العظيم الى اولئك الطائفتين بتعبير «**أَهْلَ الْكِتَابِ**»:

سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢). وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمْ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (الْمَائِدَة: ٤٣).

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (الْمَائِدَة: ٦٨).

وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (الْبَقَرَة: ١١٣).

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (الْبَقَرَة: ٤٤).

إلا ان القرآن العظيم ينص على أن التوراة والإنجيل لم يكونا في متناول عامة الناس، بما فيهم المؤمنين بهما. إذ كان الكتابان في حوزة السلطات الدينية كجزء من أمتيازات مناصبهم الدينية. وبذلك كان بإمكان أصحاب السلطة الدينية كشف ما يرغبون بكشفه من الكتاب وإخفاء الأجزاء التي لا تلائم مصالحهم. فيما يلي بعض من الآيات الكريمة العديدة حول هذا الموضوع:

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ

أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (البَقَرَة: ١٤٠).[31]

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (الأَنْعَام: ٩١).

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (آلَ عِمْرَان: ١٨٧).

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاعِنُونَ (البَقَرَة: ١٥٩).

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (البَقَرَة: ١٧٤).

يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (آل عمران: ٧١).

كان سبب إخفاء أجزاء من الكتب المقدسة هو إحتواءها على إشارات الى بعثة النبي محمد ﷺ الذي لم يكن من بني إسرائيل والذي لم يعجب دينه السلطات الدينية اليهودية والنصرانية لثلاثة أسباب. أولا، رأت السلطات الدينية اليهودية والنصرانية في الدين الجديد تهديدا جدّيا لنفوذها، إذ ان إعترافها بنبوة محمد ﷺ كان سيعني تنازلها عن الإدعاء بكونها أعلى هيئة دينية. ثانيا، فَضَحَ الدين الجديد ممارسات ومفاهيم خاطئة كانت قد أصبحت جزءاً من الديانتين اليهودية والنصرانية بدعم من قبل اولئك القادة الدينيين الذين آثروا المشي على خطى آبائهم على السير على نهج أنبياءهم. أي أن الدين الجديد فضح حقيقة اولئك المتنفذّين دينيا كمعلمين مُزيّفين ومحرِّفين للدين. ثالثاً، لم يمنح الدين الجديد بني إسرائيل موقعاً متميزاً بين باقي الجماعات العرقية، وهي نقطة مهمة سنتناولها بتفصيل اكبر في القسم القادم. لهذه الأسباب، قادت السلطات الدينية اليهودية والمسيحية حملة شعواء لتشويه سمعة الدين الجديد وتكذيبه. والآن لنقرأ بعضاً من الآيات القرآنيّة الكريمة التي تؤكد على أن النبي محمد ﷺ كان مذكوراً وموصوفا صراحة في التوراة والإنجيل:

[31] «الأسْبَاط» هم أولاد يعقوب الاثنا عشر. أما بخصوص تفسير هذه الآية الكريمة فأنظر القسم ١٠-٥.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦). أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (البَقَرَة: ٧٧).

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الأَعْرَاف: ١٥٧).

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الفَتْح: ٢٩).

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (المَائِدَة: ١٥).

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (الصف: ٦).[٣٢]

إن من المعروف أن كلمة إنجيل تناظر الكلمة الإغريقية Ευαγγελιον (تلفظ أيوانغليون) وتعني «الأنباء الطيبة» او «البشارة». إلا ان السر الذي تكشفه الآية السادسة من سورة الصف أعلاه هو أن كتاب عيسى أكتسب إسمه من كونه أتى بـ «البشارة» عن البعثة القادمة للنبي محمد ﷺ. كان إعلان «البشارة» حول مجئ محمد ﷺ وتأكيد الأصل الإلهي للتوراة هما المهمتين الأساسيتين للنبي عيسى. كانت مهمّة التبشير بمُحمَّد ﷺ من الأهميّة بمكان في بعثة عيسى بحيث أن الله أسمى الكتاب الذي أنزله على عيسى نسبة إلى تلك المهمّة. إن كتابا يعني إسمه «البشارة بقدوم النبي محمد ﷺ» لابد وأن يكون قد أحتوى على الكثير من التفاصيل عن النبي محمد ﷺ.

كما يصف الله في العديد من الآيات القرآنيّة الكريمة رسالة محمد ﷺ بأنها **تصديق** للأصل الإلهي للتوراة والإنجيل. فيما يلي بعض من هذه الآيات:

---

32 «أحْمَدُ» هو، مثل «مُحمَّد»، أحد أسماء الرسول ﷺ، وكلا الاسمان يعنيان «الأكثر محمودا».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ (النِّسَاء: من ٤٧).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ (البَقَرَة: من ٩١).

إن رسالة الرسول الأعظم ﷺ هي تصديق لإدعاء التوراة والإنجيل بأنهما من الله وذلك لسببين رئيسين. أولهما، التشابه الصارخ بين ما ورد في هذين الكتابين من وصف للنبي الذي طال إنتظاره والنبي محمد ﷺ، كما توضّح الآيات ٧٦ من سورة البقرة، ١٥٧ من سورة الأعراف، ٢٩ من سورة الفتح و ١٥ من سورة المائدة المذكورة أعلاه. ثانياً، كان القرآن العظيم نفسه قد وُصِفَ في التوراة والإنجيل بحيث كان بإمكان الذين كانت في متناولهم نسخ التوراة والإنجيل التعرّف على الكتاب المُوحى الجديد:

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢). نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣). عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤). بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥). وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦). أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (الشُّعَراء: ١٩٧).

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (البَقَرَة: ١٠١).

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (البقرة: ١٤٦).

إلا ان كتابي التوراة والإنجيل لم يُخفَيا فقط ولكن حُرِّفا أيضاً. وتشير الآيات القرآنيّة في هذا الصدد الى تعرّض هذين الكتابين الى التلاعب والتغيير قبل نزول القرآن العظيم وكذلك أثناء نزوله:

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا (المَائِدَة: من ٤١).

مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا

بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ (النِّسَاء: من ٤٦).

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨). فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (البَقَرَة: ٧٩).

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨). مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (آلَ عِمْرَان: ٧٩).

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (البَقَرَة: ٧٥).

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (المَائِدَة: ١٣).

من الضروري التأكيد هنا على أن القرآن العظيم كثيرا ما يتّهم أقواما لاحقة بجرم فعله أجدادهم من قبل، طالما كان الخَلَف لا يختلفون عن السلف وبالتالي فإنهم على استعداد لتكرار أفعال اسلافهم في الظروف الملائمة. فمثلاً يتهم القرآن العظيم في عدة آيات بني إسرائيل الذين كانوا معاصرين للرسول الأعظم محمد ﷺ بقتل الأنبياء مع أن من الواضح أنهم لم يكونوا القتلة الفعليين لأولئك الأنبياء:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (البَقَرَة: ٩١).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (البَقَرَة: ٨٧).

بعبارة اخرى، كان بنو إسرائيل المتأخرين سيشتركون مع أسلافهم في قتلهم للأنبياء لو كانوا قد

عاشوا في تلك الأحقاب الزمنية. والإستنتاج الواضح هنا هو أنّ بني إسرائيل كانوا سيقتلون النبي محمد ﷺ لو أتيحت لهم الفرصة. وفعلا نقرأ في ما وصلنا من سيرة الرسول ﷺ عن أكثر من محاولة لقتله من قبل اليهود. وتُلقي الآيات التالية مزيدا من الضوء على الأسلوب القرآني في تشبيه بعض الأقوام المتأخرة بأقوام ماضية، مُتّهما إياهم بالمشاركة في أعمال آثمة سابقة لم يشاركوا فيها **فعلا** إلا أنهم كان لديهم الاستعداد لفعلها:

وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (البَقَرَة: ١١٨).

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢). أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (الذَّارِيَات: ٥٣).

من الواضح أن اليهود والنصارى الذين عاشوا في القرون التي سبقت عصر الرسول ﷺ والذين يشبّه بهم القرآن العظيم معاصري الرسول ﷺ من اليهود والنصارى لم يشملوا فقط أولئك الذين عاشوا في الجزيرة العربية. إذ يمكن أن يكونوا يهودا عاشوا في فلسطين أو في بلاد ما بين النهرين في المنفى. بعبارة اخرى، إن تحريف الكتب الالهية يمكن ان يكون قد حصل في مراحل مختلفة عبر التاريخ على يد سلطات دينية يهودية ونصرانية عاشت في مختلف البلدان. إلا ان نسخا معيّنة من الكتب المحرَّفة التي بقيت على مر الزمان أُختيرت لتُصبح كتابي العهد القديم والجديد «الرسميين».

إن ما تقدم في أعلاه يعني ضمنيّا أيضاً بأن التغييرات في العهدين القديم والجديد التي أُجرِيت في حقب تاريخيّة مختلفة كانت تختلف بطبيعتها. كان أحد أشكال تحريف اليهود للتوراة خلال حياة الرسول الأعظم محمد ﷺ حذف أية اشارة تشهد لنبوة الرسول الأعظم ﷺ أو تشويه مثل تلك الإشارات لإخفاء هذه الحقيقة. ومن المرجَّح أن هذا التحريف تضمَّن إضافة نصوص تساعد السلطات الدينية اليهودية في حملتها ضد الدين غير الإسرائيلي الجديد.

لنلخّص الآن نظرة القرآن العظيم عن التوراة والإنجيل. جاء كل من هذين الكتابين من الله، وكانت لاتزال هنالك نسخا من كل منهما متوفرة عند يهود ونصارى الجزيرة العربية خلال عصر الرسول الأعظم ﷺ. إلا ان هذه الكتب لم تكن في متناول عموم الناس ولكن كانت محصورة في أيدي السلطات الدينية فقط، وهو تقليد حافظت عليه السلطات الدينية بشدة على مدى القرون تعزيزا

لرفعة مناصبهم وسلطتها. لقد سهّلت هذه السيطرة على الكتب الدينية للسلطات الدينية اليهودية والنصرانية إخفاء فقرات من هذه الكتب التي حملت شهادة حق على نبوة محمد ﷺ. لم يرِق لهذه السلطات الدينية أن تجد النبي الجديد، المذكور والموصوف في كتبهم والذي أنتظروه طويلاً، قد جاء برسالة تهدّد مصالحهم الشخصية. وهذا ليس بغريب على رجال الدين اليهود من حملة التوراة الذين كانوا قد رفضوا من قبل التصديق بعيسى رغم انهم عرفوه، وهو ما جعل غيرهم يؤمنون به ويتنصّرون، ولازالوا بالتالي ينتظرونه بعد ٢٠٠٠ سنة من ظهوره ومن بعد ان جاء ايضا النبي الخاتِم ﷺ الذي كان عيسى نفسه قد بشّر به.

يشير القرآن العظيم أيضاً الى انه على مر القرون السابقة لعصر الرسول الأعظم ﷺ كان كتابي التوراة والإنجيل يعانيان من التحريف. إن هذا التلاعب بالنصوص لمدّة طويلة لابد وان يكون قد أدى الى إنتاج نسخ مختلفة جذريا عن النصوص الأصلية. إن الوصف القرآني للمعاملة التي تلقاها كتابا التوراة والإنجيل على يد السلطات الدينية على مر القرون يوضّح بأن الأسفار الخمسة الاولى من العهد القديم والكتب الاربعة الاولى من العهد الجديد نتجت من هذا التدخل لأيدي البشر. إلا ان هذه الكتب لم تنتج عن عملية تحرير مباشرة للنسخ الأصلية للتوراة والإنجيل، ولكنها كُتِبَت بشكل مستقل بيد أُناس كانت لهم معرفة بهذين الكتابين الإلهيّين، سواء عن طريق نسخ كانت متوفرة لهم أو عن طريق التراث الشفوي، ومعرفة بتعاليم أصلية لأنبياء بني إسرائيل. إن الوظيفة التي أُريد لهذه الكتب أن تخدمها حتَّمَت عليها بأن تكون كتبا مختلفة جذريا عن التوراة والإنجيل ولذلك لم يكن في الإمكان انتاجها بتحرير التوراة والإنجيل فأستوجبت أن تُكتَب بصورة مستقلة تماما. نتج عن كل هذا عدد من الكتب من بينها الأسفار الخمسة الاولى من العهد القديم والكتب الاربعة الاولى من العهد الجديد، التي حملت شبها ضئيلا غير ذي وزن كبير بالتوراة والإنجيل على التوالي. ثم جاءت مرحلة أُختيرَت فيها أسفار العهد القديم الخمسة الاولى لتحل محل التوارة والكتب الاربعة الاولى من العهد الجديد لتأخذ مكانة الإنجيل. إنّ أحّد العوامل الرئيسية التي ساعدت على حصول هذا الإستبدال هو عدم وجود التوراة والإنجيل في متناول عامة الناس. كانت السلطات الدينية اليهودية من قبل قد فرضت قيودا على تداول التوراة، وهي ممارسة قامت السلطات الدينية المسيحية بنقلها الى المسيحية وتطبيقها على الإنجيل، إذ ان الجيل الأول من المسيحيين كانوا أصلا يهودا أعتنقوا المسيحية وجلبوا معهم الى دينهم الجديد ممارساتهم التحريرية للكتب الالهية.

لقد قادت دراسات العهدين القديم والجديد المكثّفة على مر سنين طويلة الباحثين المتخصّصين الى الأستنتاج بأن كل من هذين الكتابين لا يمثّل كيانا واحدا بل مجموعة نصوص تعود الى حقب مختلفة

وُضعت سوية في مُجلَّد واحد من قبل إناس متعددين. لابد وأن يكون قد أصبح واضحا الآن مما تقدّم بأن هذه النظرة التي يجمع عليها الباحثون اليوم هي قريبة جدا من الصورة التي رسمها القرآن العظيم **قبل أربعة عشر قرنا** لمحرّرين من اليهود والمسيحيين وهم يُخفون ويغيّرون نصوص التوراة والانجيل، ليكتبوا بأيديهم ما أدّعوا بأنه كلام الله. لقد كشف القرآن العظيم الحقيقة التي لم تُكتَشَف ولم يُسلَّم بها الا حديثا في أنّ النصوص الدينية اليهودية والمسيحية كُتِبَت بأيادي بشرية بأساليب متعددة ولأسباب مختلفة.

إن لهذا الإستنتاج الذي يطعن عميقا في موثوقيّة العهدين القديم والجديد، بما في ذلك مصداقيّتهما ككتابي تاريخ، مضامين هائلة. فهو يعني بأنه ليس فقط من الخطأ تبنّي وجهة النظر الدينية القديمة القائلة بأن العهدين القديم والجديد هما كلام الرب الذي لا يمكن ان يحتوي على أي خطأ، ولكن من الخطأ أيضا تبنّي الموقف المُتحرِّر قليلا القاضي بإعتبار أن ما ورد في العهدين القديم والجديد صحيح ما لم يُثبَت العكس. كما يعني الاستنتاج اعلاه ضمنيّا بأنه يتوجب التعامل مع العهدين القديم والجديد آخذين بنظر الاعتبار أحتمال أن يكون أي ادعاء فيهما صحيحا أو، وبنفس المقدار من الإحتمال، مزيفاً. إن هذا ليس برأي متحيّز ضد العهدين القديم والجديد. كما أنه ليس رأي القرآن العظيم فقط حول العهدين القديم والجديد. إنه ببساطة إستنتاج لابد ان تقود اليه حقيقة ان هذين الكتابين، وعلى وجه الخصوص كتاب العهد القديم الذي يحتوي قدرا اكبر بكثير من المعلومات التي يُفترَض أنها تاريخيّة، يحتويان الكثير من التناقضات الداخلية والاختلافات مع حقائق تاريخيّة وعلمية مثبتة. لقد أصبح معروفا منذ فترة ليست بالقصيرة بأن العهدين القديم والجديد، مثلهما مثل أي سجل بشري للتاريخ، يتضمنّان معلومات منها الصحيحة ومنها الخاطئة. في الواقع، إن وصف العهد القديم التاريخي للأحداث هو غير موثوق بشكل استثنائي لأنّه وببساطة لم يُكتَب ليكون سجلا تاريخيا للأحداث ولكن ليخدم أغراضا خاصة مستخدما التاريخ كوسيلة. وكما قال أحد الباحثين البارزين في علم آثار الشرق الأدنى ساخرا: «لم يدوّن كتّاب العهد القديم [التاريخ] كما حصل، ولكن كما كان سيحدث لو كانوا هم المُتحكمّين في ما يحدث» (Dever, 1992: 28). إنّ وجود معلومات صحيحة في العهد القديم لا يمثّل معجزة، كما أنّ تخلّل بيانات مزوّرة للعهد القديم بكامله ليس بمفاجأة.

إن كون التوراة والإنجيل كتابان مُنزَلان من الله يعني ضمنيّاً بأنهما يشبهان القرآن العظيم من وجوه عدة. وعلى وجه الخصوص، فإن الرسالة الدينية لهذه الكتب هي واحدة، كما ان وصف هذه الكتب للأحداث التاريخيّة لا يناقض بعضه البعض. بمقارنة الأسفار الخمسة الاولى من العهد القديم والكتب الاربعة الاولى من العهد الجديد مع القرآن العظيم يمكن تحديد العبارات في العهدين القديم

والجديد التي مصدرها الكتب الإلهية الأصليّة أو تعليمات أصليّة لأنبياء بني إسرائيل وكذلك تحديد الاجزاء التي أختلقها محرّرو تلك الكتب البشرية بالكامل. تُبيّن مثل هذه المقارنة أن تدخّل اليد البشرية في تأليف الأسفار الخمسة الاولى من العهد القديم والكتب الاربعة الاولى من العهد الجديد تجاوز بدرجة كبيرة مجرد إشتقاقهم من التوراة والإنجيل الى درجة إن تلك الكتب التي خطّتها يد البشر تطورّت الى كتب تختلف تماما عن الكتابين الإلهيّين. لقد وَجَدَت بعض البيانات الأصيلة سبيلها الى الأسفار الخمسة الاولى من العهد القديم والكتب الاربعة الاولى من العهد الجديد، الا ان مقدار هذ المعلومات الصحيحة لا يكاد يُذكَر مقارنة بالكميات الكبيرة من المعلومات الموجودة في هذه الكتب والتي ليست لها أية علاقة بالتوراة والإنجيل. لذلك فإن من الخطأ مساواة الأسفار الخمسة الاولى من العهد القديم والكتب الاربعة الاولى من العهد الجديد بالتوراة والإنجيل، على التوالي، او حتى تسمية تلك بإسمي هذين الكتابين الإلهيين وهي حقيقة غابت حتى عن أنظار باحثين مسلمين (أنظر مثلا النجّار، ١٩٨٦؛ المراغي، ١٩٤٦أ؛ إبن خلدون، ١٩٦٦). فالشائع بين المسلمين هو ان الأسفار الخمسة الاولى من العهد القديم والكتب الاربعة الاولى من العهد الجديد هي نسخا محرّفة من التوراة والإنجيل، بينما الحقيقة هي أن تلك الكتب لا علاقة لها بالتوراة والإنجيل سوى تشابه ضئيل جداً. إن هذه النظرة غير الدقيقة الشائعة هي نتيجة الربط الخاطئ بين الحقيقتين اللتين يكشفهما القرآن بأن التوراة والإنجيل هما كتابان أوحاهما الله الى موسى وعيسى، على التوالي، وان اليهود والنصارى تلاعبوا بهذه الكتب، وحقيقة ان اليهود والنصارى يعتبرون الأسفار الخمسة الاولى من العهد القديم والكتب الاربعة الاولى من العهد الجديد كتبهم الالهية. إن ما يعتقده اليهود والنصارى عن الأسفار الخمسة الاولى من العهد القديم والكتب الاربعة الاولى من العهد الجديد لا علاقة له بما كشفه القرآن العظيم من أن كتابي التوراة والإنجيل **الحقيقيّين** كانا لايزالا موجودين وكانا عرضة للتحريف من قبل السلطات الدينية اليهودية والمسيحية في عهد الرسول الأعظم ﷺ.

إن إحدى نتائج النظرة الخاطئة أعلاه، المُتبَنّات من قبل باحثين مسلمين أيضاً، هي التأثير الكبير الذي كان ولازال للعهدين القديم والجديد على العلماء المسلمين في ما وضعوه من تفاسير وشروحات على القرآن العظيم. إقتصر هذا التأثير أحيانا على الاستشهاد بمعلومات من العهدين القديم والجديد لم ترد في القرآن العظيم على الإطلاق ومن ثم دمجها مع ما يُقدَّم على انه تفسير **قرآني**. بالرغم من إتّفاق المفسِّرين المسلمين قاطبة على أن العهدين القديم والجديد يحتويان على معلومات غير صحيحة بشأن بعض القضايا الدينية والتاريخيّة الأساسية، كما كشف ذلك القرآن العظيم، فإنه يبدو ان كثيراً منهم لم يدركوا الدلالة الحتمية لهذه الحقيقة وهي أنه طالما ثبتت عدم موثوقية بعض أجزاء العهدين

القديم والجديد فإنه ليس هنالك اي مبرر للقبول من غير تمحيص لأجزاء أخرى تفتقر الى مصادر خارجيّة تؤكّد مصداقيتها. تبيّن كتابات الكثير من مفسِّري القرآن بأنهم يستندون على فرضية لا تبرير لها وهي ان عبارات العهدين القديم والجديد التي لا يناقضها نص قرآني بشكل صريح هي نصوص أصيلة من التوراة والإنجيل ويجب التعامل معها على هذا الأساس. وما هو اكثر غرابة من ذلك هو أن إستعارة مُفَسِّري القرآن من العهدين القديم والجديد تصل في بعض الحالات حد إهمالهم النص القرآني أو تفسيره خطأً بشكل غير معقول بهدف توفيق روايتي القرآن والعهدين القديم والجديد. سنأتي على أمثلة على هذا لاحقاً. أما كتابنا هذا، فيقدم الرواية **القرآنيّة** للأحداث، أي كما وُصِفت في النص القرآني فقط. أمّا إدعاءات العهدين القديم والجديد فسيُتشهَد بها لغرض المقارنة فحسب، ولن تُستَخدَم في إضافة معلومات الى الصورة القرآنيّة للأحداث.

هنالك نقطة أخيرة يجب توضيحها. إن كون العهدين القديم والجديد مبنيّان بشكل ضعيف على التوراة والإنجيل، على التوالي، يعني أن الوصف الوارد في تلكما الكتابين لأمر او حادثة ما ليس بالضرورة أكثر دقة مما ورد في غيرهما من الكتابات الدينية اليهودية والمسيحية. إن هذا شيء سنراه لاحقاً في الكتاب.

٤-٣ أسرلة العهد القديم للرب والدين

تساعد دراسة الأختلافات بين المفاهيم والأحداث في القرآن العظيم وما يقابلها في العهدين القديم والجديد كثيرا في فهم التحويرات التي عانت منها هذه المفاهيم وتفاصيل الحوادث على أيدي محرري العهدين القديم والجديد. كما تلقي مثل هذه الدراسات الضوء ايضا على الدوافع التي وقفت وراء التلاعب بالنص الذي تعرضت له التوراة والإنجيل ووراء خلق نصوص العهدين القديم والجديد. سنتفحّص في هذا القسم الفروق الجوهرية بين يهودية العهد القديم كدين العِلية وأولي الأمتيازات، ودين القرآن العالمي الشامل والمفتوح أمام الجميع من دون تمييز.

إن هنالك مفهوم غير أصيل مُعيَّن، جُعِلَ الموضوع الرئيس في الأسفار الخمسة الاولى للعهد القديم، لعب دوراً محوريا في تشويه الرسالات الدينية السابقة ودَفْع المؤمنين بهذه الرسالات الى تكذيب نبوة محمد ﷺ. يُعنى هذا المفهوم الذي يتخلل كل كتب العهد القديم وليس أسفاره الخمسة الاولى فقط بالربط المزعوم بين دين بني إسرائيل وشعب بني إسرائيل أنفسهم كونهم سلالة النبي إسرائيل (يعقوب). إذ يضع العهد القديم بني إسرائيل كعِرق بشري في قلب العقيدة اليهودية بإدّعاءه المتكرّر بأن بني إسرائيل هم **شعب الله المختار**: «*لأنك أنت شعبٌ مقدّسٌ للرب إلهك. اياك قد أختار*

الرب الهك لتكون له شعبا اخص من جميع الشعوب الذين على وجه الارض» (التثنية، ٧: ٦) لذلك نجد مصطلح «شعبي» يُستخدم بكثرة من قبل الرب في العهد القديم إشارة الى بني إسرائيل (مثلاً الخروج، ٣: ٧، ١٠؛ ٧: ٤). على النقيض من هذه النظرة التي تربط الدين جوهريا وبقوة بهم كشعب، لم يجد بنو إسرائيل في رسالة النبي الجديد محمد ﷺ ما يدعم هذا الإدعاء أو يُسلِّم بأنهم كمجموعة عرقية أفضل من باقي الناس في نظر الله. على العكس من هذا، فضح القرآن العظيم هذه النظرة مبيّناً بأنها تحريف آخر لمفهوم أصيل ورد في التوراة، وكما سنبيّن في ما يلي.

لقد أكّد القرآن العظيم فعلا تفضيل الله لبني إسرائيل بميّزات لم ينعم بها على غيرهم من الشعوب: «**قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**» (الأعراف: ١٤٠). إلا أن تفضيل بني إسرائيل على غيرهم من الشعوب هذا يشير الى نعمة الله عليهم بإرساله فيهم للعديد من الأنبياء على مر زمان طويل ولا يعني ضمنيًا بأنهم، كمجموعة عرقية، أفضل من غيرهم من البشر:

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (الجاثية: ١٦).

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (المَائِدَة: ٢٠).

إن هذه الآيات واضحة جدا في تقريرها بأن بني إسرائيل كانوا أكثر الشعوب تلقياً لنعمة الله لأنه ﷻ بعث لهم من الأنبياء أكثر مما بعث إلى أي شعب آخر. إلا أن بني إسرائيل يجب ان لا ينسبوا لأنفسهم شرفا خاصا بسبب ظهور الأنبياء بينهم وذلك لسبب بسيط وهو أن أي رسول أو نبي، بما في ذلك الأنبياء من سلالة إسرائيل، ليس نتاج قومه ومجتمعه ولكن صنعة الله وحده. فالقرآن العظيم مثلاً لا يمتدح عرب الجزيرة العربية لأنهم **أنتجوا** الرسول الأعظم محمد ﷺ ولا يشير، سواء بصورة مباشرة أو ضمنيّة، الى أن العرب عموما أو قبيلة قريش التي ينتمي إليها الرسول الأعظم محمد ﷺ خصوصا كان لها أي دور في إصطفاءه كنبي ﷺ. في الحقيقة إن كل نبي كان شخصية ثورية أتت بقيم لم تقبلها الغالبية العظمى من قومه الذين تحالفوا ضدّه لإفشال رسالته الارشادية. على قدر تعلق الامر بإستجابتهم لأنبيائهم، لم يكن بني إسرائيل بأفضل على الاطلاق من غيرهم من الاقوام؛ بل أنهم كانوا في الواقع أسوأ. إذ سبق وأن رأينا كيف يذكّر القرآن العظيم بني إسرائيل بسوء معاملتهم لأنبيائهم حين رفضوا نبوة البعض وذهبوا حد قتل البعض الآخر. إن تاريخ بني

إسرائيل وفقا للعهد القديم نفسه يكشف عن شعب أرتكب الذنوب مثله مثل أي شعب آخر وسبّب الكثير من الأذى والمعاناة حتى لمخلِّصه من العبودية، موسى، ويبيّن بأن العصيان والجدل والتذمر هي من ابرز صفات ذلك الشعب.

ليس هنالك من تأكيد وتصوير لحقيقة أن أنبياء بني إسرائيل كانوا **لامنتمين** الى شعب بني إسرائيل، مثلهم في ذلك مثل كل باقي الأنبياء الذين كانوا **لامنتمين** الى شعوبهم فكراً وعملا، كالآية العشرين من سورة المائدة التي تميِّز بشكل دقيق بين علاقة النبي من بني إسرائيل مع قوم بني إسرائيل وعلاقة الملك من بني إسرائيل مع قوم بني إسرائيل. إذ تصف الآية الكريمة الأنبياء بأنهم أفراد ظهروا «في» بني اسرائيل، «**جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ**»، بينما لا تميّز بين بني إسرائيل وملوكهم مخاطبة بني اسرائيل بقوله تعالى «**وجَعَلَكُمْ مُلُوكًا**». أي أن هذه الآية تصف **جميع** بني إسرائيل بأنهم «**مُلُوكًا**» لظهور ملك **واحد** بينهم[٣٣] بينما لا تسمّيهم **أنبياء** بالرغم من ظهور **العديد** من الأنبياء فيهم بضمنهم إسرائيل وأبناءه وموسى وهارون. ويبقى هذا التمييز بين النبي والملك صحيحا حتى عندما يكون النبي ملكا في نفس الوقت. ففي مهمته الدنيوية كملك هو أحد بني إسرائيل، ولكن في مهمته الدينية كنبي هو أحد أبناء أمة الأنبياء وليس من بني إسرائيل. إن إهمال هذا التمييز المهم بين أي نبي وشعبه، حتى لو كانوا من ذريّته، هو الذي جعل إسم النبي «إسرائيل» يتحول في الكتابات الدينية الى إسم الأمّة التي تكوّنت من سلالته فأصبح «إسرائيل» إسم النبي وأسم أحفاده أيضا. على العكس من هذا، لا يطلق القرآن العظيم إطلاقا إسم إسرائيل على أحفاد النبي اسرائيل بل يسميهم «بني إسرائيل». ليس النبي برئيس عشيرة ليتسمّى شعبه بإسمه.

قد يجادل البعض قائلا بأننا حتى لو نظرنا الى الأنبياء العديدين الذين أُرسلوا الى بني إسرائيل كأنبياء الله أساسا وليس كأفراد من أمة بني إسرائيل فإن ظهورهم بهذا العدد الكبير نسبيّاً في بني إسرائيل بالذات هو مؤشر على المكانة الخاصة لبني إسرائيل عند الله. إلا ان هذه أيضا حجّة باطلة. إن الله أغدق ويغدق نعمه على من يشاء من خلقه لأسباب مختلفة أولها هو أنه الرحمن الرحيم. أما مسألة ما إذا كان شخصا ما يستحق ما أغدق الله عليه من فضل أم لا فيمكن الحكم عليه فقط من خلال كيفية إستجابة الشخص لهذا الفضل. فمثلاً، يتفضّل الله على الكثير من الناس، جماعات وأفراد، بالثروة والسلطة والصحة ... الى أخره، إلا أن معظمهم يسيئون إستغلال أفضال الله هذه. أليس من السخف إذا القول بأن الأثرياء الذين يبذرون أموالهم في ما لا يَرضى الله أو أولئك الذين يسيئون أستخدام سلطاتهم قد حصلوا على أفضال الله هذه من ثراء وسلطة إستحقاقاً؟ إن نفس هذا

[33] انظر أيضا الشرح على هذه الآية الكريمة في القسم ٥-٢.

المنطق ينطبق على بني إسرائيل، إذ ان كونهم قد تلقّوا فضلا عظيما من الله متمثّلا بالعدد الكبير من الأنبياء الذين أُرسلوا لهم لا يعني أنهم أفضل من غيرهم من الشعوب لأن هذا الأمر لا يمكن الحكم فيه الا من بعد تمحيص كيفية تعاملهم مع هذا الفضل. إن حقيقة الامر هي أن بني إسرائيل قتلوا الكثير من أنبيائهم وكذّبوا الكثير أيضاً، لذلك ليس لهم حق الإدعاء بأي تفضيل عند الله على بقية الشعوب.

هنالك نقطة أخرى غاية في الأهميّة لابد من الاشارة اليها. إن من الحق القول بأن الله فضّل بني اسرائيل على غيرهم من الشعوب بأن أرسل فيهم عددا كبيرا من الأنبياء، ولكنه حق أيضا أن أولئك الأنبياء ذهبوا منذ زمن بعيد وأختفت آثارهم وحتى كتبهم. لذلك فإن الأجيال اللاحقة من بني إسرائيل لا تملك حق الإدعاء بأنها مشمولة بالتفضيل الذي أنعم به الله على أسلافهم! بعبارة اخرى، إن فضل الله ذلك لا يشمل أجيال بني إسرائيل التي ظهرت بعد أزمنة ظهور الأنبياء وبعد فقدان تعاليمهم. لقد كان ذلك فضلا من الله أغدقه على بني إسرائيل لعدة قرون ولكنهم أثبتوا بأنهم ليسوا أهلا له. إن هذه الملاحظة تتّفق مع ما تقدّم من أن فضل إرسال الكثير من الأنبياء في بني اسرائيل لم يكن له علاقة ببني إسرائيل أنفسهم كعرق بشري وإلا لما توقّف هذا الفضل في تاريخ معين ولأستمرّ ما بقيت ذرية اسرائيل. إن حرمان الأجيال اللاحقة من بني إسرائيل من فضل ظهور أنبياء فيهم أو جَعلَهم حَفَظَةَ تعاليمهم يعني ببساطة ان هذا الفضل ليس قضية عرقية. لو كان بنو إسرائيل أفضل من غيرهم من الأقوام بالمعنى العرقي الذي يدّعيه العهد القديم لكان ظهور آخر الرسل، محمّد ﷺ، الذي كَتَبَ الله لرسالته الخلود الى يوم القيامة، بين ظهرانيهم. لقد صدمت بني إسرائيل حقيقة أن النبي محمد ﷺ لم يكن منهم وهم الذين درجوا على ان ينظروا الى أنفسهم والى مكانتهم بين الناس من خلال النظرة المتحيِّزة للعهد القديم ولكتاباتهم الشبيهة لا من خلال نظرة الحق في التوراة.

يؤكّد العهد القديم على مكانة بني إسرائيل الخاصة وعلى عدم أمكانية الفصل بين الدين وبين بني إسرائيل كمجموعة عرقية. إن «أسرلة الدين» Israelization of Religion المنظّمة هذه وصلت الى حد «أسرلة الرب» Israelization of the Lord نفسه. من الأمثلة المعبّرة عن هذا هو إصرار العهد القديم على تصوير الله، أو يهوه، على أنه «رب بني إسرائيل» ولكن ليس رب فرعون. فوفقا للعهد القديم، لم يكن موسى مهتما بدعوة فرعون للإيمان بالله لأنه ليس رب فرعون ولكن «*إله العبرانيين*»:

«وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي ليعيّدوا لي في البرية. فقال فرعون من هو الرب حتى أسمع لقوله فأُطلق إسرائيل. لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه. فقالا إله العبرانيين قد ألتقانا. فنذهب سفر ثلثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا. لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف»

(الخروج، ٥: ١-٣). هكذا قدّم موسى الرب الى فرعون، كما يدّعي العهد القديم! إن هذا التحديد العرقي لهويّة الرب يتكرر بإنتظام في العهد القديم. إن هذه النظرة في الواقع هي نظرة الإشراك التقليدي الذي يجعل لكل شعب إلهه الخاص به ولكل مدينة ربها الخاص وهكذا. لذلك فإن فرعون المُشرِك لم يُفاجَئ عند سماعه بأن بني إسرائيل كان لهم ربّهم الخاص، لأن هذا هو ما كان يتوقعه، وبالتالي فإنه كان فقط مهتمّا بالمزيد من المعلومات عن هذا الرب الجديد. ومما هو ذو دلالة كبيرة أن يرينا القرآن العظيم فرعون وهو يسأل موسى عن الله مشيرا اليه على أنه **رب موسى** او **رب بني إسرائيل**، وهو وصف يتّفق تماما مع ما هو مُتوقَّع من فرعونٍ مشرك، بينما يعرض الكتاب العزيز موسى وهو يقدّم الله بصورة مختلفة تماما.

بعكس نظرة العهد القديم، يعرّف القرآن العظيم الله بأنه الإله الواحد الأحد، رب كل شيء. فهو ليس برب محمد ﷺ وأتباعه فقط، ولكنه رب كل الأنبياء وأتباعهم. وهو رب المؤمن والكافر، رب البشر وغير البشر، رب الأحياء والأموات. هو خالق كل شيء وهو رب كل شيء. وفي إختلاف جوهري وذي دلالة عما ورد في العهد القديم، يؤكّد القرآن العظيم بأن مهمة موسى الى فرعون كانت ذات شقّين: أولا، دعوة فرعون، وبالنتيجة شعبه، الى إعتناق الدين الجديد ونبذ الإشراك، وثانياً، الطلب منه السماح لبني إسرائيل بمغادرة مصر معه. أمرَ الله موسى أن يدعو فرعون الى عبادة الرب الواحد، الله، وعندما سأل فرعون موسى عن الله أجابه موسى بأنّ الله هو رب فرعون وآبائه ورب كل شيء:

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥). إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦). اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧). فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨). وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (النَّازِعَات: ١٩).

فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧). إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨). قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩). قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠). قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى (٥١). قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى (طه: ٥٢).

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣). قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤). قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥). قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الأَوَّلِينَ (٢٦). قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧). قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (الشُّعَراء: ٢٨).

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦). وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (غافِر: ٢٧).

إن عدم وضع الدين الجديد، الذي نزل على النبي محمد ﷺ، لبني إسرائيل كمجموعة عرقية في قلب رسالته لابد وأنّ يكون قد هزّ النظرة الضيقة الى الدين في العهد القديم من أركانها، فاضحاً بشكل مقنع تماما مفهوم العهد القديم المشوّه هذا. وهكذا كشف القرآن العظيم عند نزوله عن فرق أساسي بين التوراة وبين غيرها من الكتابات الدينية التي كانت في حوزة السلطات الدينية اليهودية. كان حلُّ بني إسرائيل للمشكلة التي شكّلها ظهور النبي مُحمَّد ﷺ هو، ببساطة، نفي نبوّته وتكذيبه وإخفاء أي نص ديني يؤكّد نبوّته.

لقد أنتقد القرآن العظيم في آيات عديدة نظرة بني اسرائيل الضيقة والخاطئة لأنفسهم التي ألتقطها بعد ذلك النصارى وطبّقوها هم أيضا على أنفسهم: «**وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**» (المَائِدَة: ١٨). أما القرآن العظيم فيؤكّد بأستمرار بأن رضا الله عن أي شخص لاعلاقة له بعرقه أو لونه أو جنسه أو أي شيء آخر سوى تقواه. فيما يلي إحدى الآيات التي تشير الى هذا: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**» (الحُجُرَات: ١٣).

مما تجدر الاشارة اليه هنا أن تصريح الله ﷻ بأن «**أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**» يسبقه تذكيره لنا بأنه خلقنا «**مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى**» وبأنه جعلنا «**شُعُوبًا وَقَبَائِلَ**» لنتعارف. فهو بذلك يذكّرنا بأننا جميعا نعود الى نفس الاب والام، ويقول لنا بأن جعله لنا شعوبا وقبائلا مختلفة لا يعني بأن بعض الناس هم أكثر كرامة في نظره ﷻ من غيرهم. إذ بعد تأكيده بأنّنا ننتمي الى شعوب وقبائل مختلفين، يصرّح ﷻ بأنه ليس لهذه الاختلافات أية متضمّنات عنصرية او تمييزية وذلك بقوله «**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**».

إن معيار القرآن العظيم الوحيد في تمييز قُرب الناس من الله هو درجة تقواهم لله وأداءهم فروضهم تجاهه. إن كون الرسول الأعظم محمد ﷺ عربي الأصل لم يؤد الى تصوير العرب في القرآن العظيم على أنهم أحسن بأي شكل من الأشكال من غير العرب. كما أنّه بينما يسمّي القرآن العظيم أولئك الذين لم يؤمنوا برسالة الرسول الأعظم محمد ﷺ «**كُفَّارا**» ويعدهم بـــ «**نَارِ جَهَنَم**»، فإنه في نفس الوقت يصف المسلمين بالإسم فقط بكلمة «**مُنَافِقِينَ**» ويعدهم بـــ «**الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ**

النَّارِ» (مثلاً، الآية ١٤٥ من سورة النساء). إن هذه المعاملة العادلة للناس وفقا لمباديء مُعرَّفة بشكل واضح ولا يتم تجاوزها لتلائم مصالح فرد أو جماعة يمكن ملاحظتها في كل مواضع القرآن العظيم. ولننظر على سبيل المثال الآية الكريمة التالية: «**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**» (النِّسَاء: ١٣٥). ويأمر القرآن العظيم المؤمنين بالقسط والعدل وعدم ظلم الآخرين حتى وإن كانوا ألد أعداءهم: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**» (المَائِدَة: ٨).

من الأمثلة التي تُبيّن الفرق الجوهري بين النظرة القرآنيّة ونظرة العهد القديم الى الناس بصورة عامة، بما فيهم بني إسرائيل، هو معالجة الكتابين لموضوع الربا. هذا ما نجده في العهد القديم:

لاتقرض أخاك بربا ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء ما مما يُقرض بربا. للأجنبي تُقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكي يباركك الرب إلهك في كل ما تمتد اليه يدك في الأرض التي أنت داخل اليها لتمتلكها (التثنية، ٢٣: ١٩-٢٠).

أما القرآن العظيم فيحكم بأمر مختلف تماماً مانعاً المسلمين بصورة قاطعة من أي شكل من أشكال الربا، سواء في تعاملهم مع بعضهم البعض أو مع غير المسلمين. فحكم القرآن العظيم على الربا هو حكم مطلق بأنه ممارسة خاطئة (أنظر أيضاً الآيات ١٣٠ من سورة آل عمران، والآية ٣٩ من سورة الروم)، حيث لا يترك كتاب الله أي مجال لإستخدام أنتهازي للربا تحت أي ظرف من الظروف:

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥). يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦). إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧). يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨). فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩). وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ

تَعْلَمُونَ (البَقَرَة: ٢٨٠).

في الحقيقة، ينتقد القرآن بصورة مباشرة ومحدّدة أخذ اليهود للربا مشيرا الى أنهم قد مُنِعوا من ذلك. إن هذا بدوره يعني أن الفقرة العشرين من الإصحاح الثالث والعشرين من سِفر التثنية التي تسمح لبني إسرائيل بأخذ الربا من غير أبناء قومهم تنتمي الى ذلك الجزء من العهد القديم الذي كتبته أيدي المحرّرين والذي لم يكن يوما جزءاً من التوراة: «**فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠). وَأَخْذِهِمْ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١)**» (النِّسَاء: ١٦٠-١٦١).

هنالك نقطة اخيرة يجدر ذكرها بأختصار، وهي أن كتاب العهد الجديد، الذي يؤمن به النصارى ويعتبرونه إستمرارا لرسالة العهد القديم، يهمل بشكل كامل تصوير العهد القديم لبني إسرائيل على أنهم قلب الدين وهدفه. أي ان الموضوع الرئيس في العهد القديم لا يستمر في العهد الجديد، وهذا اختلاف جوهري مهم جدا بين الكتابين، بالرغم من محاولات تقليل أهميته، لأنه يبيّن حقيقة أن ربط النصارى بين العهدين القديم والجديد هو ربط إعتباطي لا أساس له.

إن العرض المختصر في هذا الفصل عن طبيعة العهد القديم يقود الى معالجة أفضل لبيانات العهد القديم. كما أنه سيساعد، كما سنرى لاحقا في الكتاب، في فهم الفروقات الجوهرية بين الرواية القرآنيّة للأحداث وما يقابلها في العهدين القديم والجديد.

٥

تاريخ دخول بني إسرائيل الى مصر ومكانه كما حدّدهما القرآن العظيم

قبل البد بدراسة الرواية القرآنيّة لقصة موسى في الفصول القادمة من الضروري أولاً دراسة قصة يوسف في كتاب الله، والواردة في سورة واحدة في القرآن العظيم مُسمّاة بإسم هذا النبي، لإرتباطها الواضح بقصة موسى ودلالاتها المهمة لفهم هذه الاخيرة. يعتقد الكثير من الباحثين بأن هناك أدلة ظرفية تشير الى ان دخول يوسف الى مصر، ومن بعده أبويه وأخوته وعوائلهم، حصل أثناء حكم الهكسوس وأنه أستقر في منطقة الدلتا الشرقية التي كانت تحت حكم هؤلاء الساميين. يبحث هذا الفصل ما إذا كان القرآن العظيم يدعم هذا الرأي او يدحضه. سنركز هنا فقط على أجزاء قصة يوسف ذات الصلة بموضوع الكتاب. ونبدأ أولاً بعرض للأحداث الرئيسة لقصة يوسف.

٥-١ عرض مُختصر لقصة النبي يوسف عليه السلام في القرآن العظيم

عندما كان يوسف صغيرا رأى في منامه أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له. عندما قص يوسف رؤياه على أبيه يعقوب، طلب منه أبوه عدم إخبار إخوته برؤياه لأنهم كانوا يكنّون ليوسف حسدا لإعتقادهم بأن والدهم كان يحبه أكثر منهم. وضع إخوة يوسف بعد ذلك خطّة للتخلّص منه، حيث استحصلوا موافقة أبيهم على ان يصحبوا يوسف معهم في رحلة صيد وألقوه في قاع بئر. ثم عثرت قافلة مسافرين على الغلام وباعوه في مصر. أما الذي اشتراه في مصر فنجده بعد بضع سنين محتلا لمنصب مرموق يسمى «العزيز»[٣٤].

عندما شبّ يوسف حاولت زوجة مولاه إغواءه ولكنه صدّها. إلا ان زوجة العزيز تعهّدت بأن تضع يوسف في السجن إن لم يستجب لها فأنتهى به الأمر في السجن. في وقت لاحق أُدخِل إلى السجن شخصان آخران طلب كل منهما من يوسف تفسير رؤيا له، حيث كانا قد شاهدا علامات

[34] سنناقش هذا اللقب لاحقاً في هذا الفصل.

تقوى يوسف وقابلياته الخارقة للعادة. وفسّر يوسف بنجاح مناميهما، مبيّنا لهما بأن أحدهما سيُصلَب وأن الثاني سيُطلق سراحه ويعود الى عمله كساقي الملك. وطلب يوسف من الأخير أن يذكر قصة الظلم الذي تعرَّض له أمام الملك بعد ان يتحقّق منامه. إلا ان الساقي نسي الطلب، فلبث يوسف في السجن.

بعد بضع سنوات، رأى الملك مناما وطلب تفسيره. حينئذ تذكّر الساقي يوسف فطلب الأذن بالذهاب اليه لكي يسأله عن تفسير منام الملك. فسّر يوسف منام الملك على أنه كانت ستمر سبع سنوات ذات محاصيل وفيرة تليها سبع سنوات شحيحة المحاصيل، ومن ثم تليها سنة تتميز بغيث غزير. عندما سمع الملك تفسير يوسف لمنامه طلب إحضاره عنده، إلا أن يوسف طلب أولاً أن يُسأل اولئك الذين أتهموه عن حقيقة ما حدث. عند ذاك أعترفت زوجة العزيز بما حدث وأعتذرت عن فعلتها. بعد ان أطلق الملك سراح يوسف أراد أن يقرّبه منه. عند ذاك أقترح يوسف على الملك أن يجعله مسؤولا على مخازن البلاد، فوافق الملك على ذلك.

خلال سنوات الجفاف التي تنبأ بها يوسف جاء أخوته الى مصر طلباً للمؤن. وعندما سُمح لهم بالدخول على يوسف عرفهم هو إلا أنهم لم يعرفوه. فأعطاهم يوسف المؤن وطلب منهم أن لا يأتوا ثانية من دون أن يجلبوا معهم أخا صغير السن لهم من أبيهم. عندما جاءوا في المرة الثانية مصطحبين معهم أخيهم كما طلب يوسف، أسرّ يوسف الى أخيه، الذي كان أخوته قد أساوا معاملته هو الآخر أيضاً، حقيقة هويّته. ثم وضع يوسف بالتعاون مع أخوه الأصغر خطة ليبقيه معه، حيث أتّهمه بسرقة كأس الملك فأحتجزه ولم يسمح له بالعودة مع إخوته. أما يعقوب الذي كان لا يزال حزينا على إختفاء يوسف، رغم علمه من الله بإنه كان لا يزال حيا، ففقد بصره نتيجة لحزنه.

عندما عاد إخوة يوسف لزيارته للمرة الثالثة كشف لهم عن شخصيته، حيث ندم إخوة يوسف بجدية على ما فعلوا وتابوا. فطلب منهم يوسف أن يأخذوا قميصه ويلقوه على وجه أبيه ليسترد بصره. كما طلب منهم أن يجلبوا معهم الى مصر عوائلهم وأباه وأمه. بعد وصولهم الى مصر ودخولهم على يوسف، سجد أبو يوسف وامه وأخوته جميعا له. حينئذ لفت يوسف انتباه اباه الى أن ذلك تحقيق رؤياه التي شاهدها عندما كان صغيرا.

كما يتّضح من الموجز أعلاه فإن الرواية القرآنيّة عن يوسف تحمل بعض الشبه مع رواية العهد القديم، إلا أنها في الوقت نفسه تختلف جذريا عن رواية العهد القديم في تفاصيل رئيسة وثانوية. أما الإختلافات التي تهمّنا هنا فهي تلك التي تربط بوضوح دخول بني إسرائيل الى مصر بفترة حكم الهكسوس. إن النظرة التي سيتم بنائها أدناه تعتمد بالكامل على البيانات القرآنيّة.

٣-٥ تحليل للرواية القرآنيّة لقصة النبي يوسف

لقد رأينا سابقاً أن العهد القديم يشير في سِفر الخروج الى حاكم مصر بلقب «فرعون» (الخروج، ١: ١١، ١٩، ٢٢) أو «ملك» مصر (مثلاً الخروج، ١: ٨، ١٥، ١٧). إن هذا في الحقيقة إستمرار للتقليد الوارد في قصة يوسف في سِفر التكوين حيث نجد الحاكم يسمى مرة «فرعون» (مثلاً في التكوين، ٤٠: ١٣، ١٤، ١٧) ومرة «ملك» (مثلاً في التكوين، ٣٩: ٢٠؛ التكوين، ٤٠: ١، ٥). بعبارة أخرى، إن العهد القديم لا يميّز بين مُصطلَحي «فرعون» و«ملك» ويستخدم احدهما مكان الآخر. إن هذا فرق مهم بين القرآن العظيم والعهد القديم.

يشير القرآن دائما الى حاكم مصر في قصة موسى بلقب «فرعون» ولا يستخدم على الاطلاق كلمة «ملك» أو «ملك مصر» في الاشارة اليه. من جهة أخرى، وهو امر مهم جدا، لا يُشار الى حاكم مصر في قصة يوسف في القرآن العظيم بكلمة «فرعون» وإنما يوصف بأنه «ملك» في الآيات الخمس التي تذكر لقبه (يوسف: ٤٣، ٥٠، ٥٤، ٧٢، ٧٦). يستخدم القرآن العظيم لقب «ملك» للإشارة الى مختلف الحكّام، بما فيهم الحاكم في قصة يوسف، إلا انه يستخدم لقب «فرعون» فقط للأشارة الى حاكم مصر أثناء حياة موسى فقط.

لابد من التأكيد هنا أيضاً على أن المكان الذي أُخِذَ إليه يوسف عندما كان صغيراً، والذي ذهب إليه فيما بعد إخوته ووالديه، يُسمّى في القرآن العظيم «مصر» (يوسف: ٢١، ٩٩) وأن البلاد التي عاش فيها موسى أيضاً تُسمّى «مصر» (يونس: ٨٧؛ الزخرف: ٥١). بالإضافة الى هذا فإن هنالك أية كريمة نجد فيها شخصا من قوم فرعون آمن بموسى يخاطب الناس كما يلي: «**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا**» (غَافِر: من ٣٤). توضِّح هذه الآية بصورة جلية أن مصر التي دخلها يوسف وأهله هي نفس مصر فرعون وقت بعثة موسى. لماذا إذا يميّز القرآن العظيم بشكل واضح تماما بين «فرعون» و«ملك» مصر؟ إن هذا بدون شك إشارة الى فرق أساسي بين الحاكم الذي عاصر يوسف وذاك الذي كان معاصرا لموسى. من الجدير بالذكر هو ان مصطلح «فرعون» هو لقب خاص بحكام مصر الذين هم من أصل مصري والذين حكموا مصر لمدّة تقارب ٣٠٠٠ سنة، لذلك فإن عدم إطلاق لقب «فرعون» على الحاكم المعاصر ليوسف يعكس حقيقة أن هذا الملك لم يكن من صنف اولئك «الفراعنة». فعلا، كان هذا الحاكم أحد ملوك الهكسوس الساميّين الذين لم تكن لهم علاقة عرقية بالمصريين.

لابد من ملاحظة أن تمييز القرآن العظيم الصريح والثابت بين لقب حاكم مصر في قصة

يوسف، أي «ملك»، وحاكم مصر في قصة موسى، أي «فرعون»، قد أُهمِل حتى من قبل باحثين درسوا القرآن العظيم وأبدوا اهتماما كبيرا في تشخيص الفروقات بين القرآن العظيم والعهد القديم (مثلاً أنظر Siddiqi, 1994: 96-97).

نأتي الآن الى دليل قرآني غير مباشر على ان يوسف عاش في الدلتا الشرقية عندما كانت تحت حكم الهكسوس. هذا الدليل هو من قصة موسى التي سندرسها بالتفصيل في الفصول القادمة من الكتاب. عندما عرض موسى على فرعون أول معجزتين له إتّهمه فرعون وأخيه هارون بأنهما ينويان **إخراج الناس من أرضهم**:

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦). قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (طه: ٥٧).

قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (طه: ٦٣).

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢). وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣). قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤). يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (الشُّعَراء: ٣٥).

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧). وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨). قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩). يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (الأَعْراف: ١١٠).

أما «الأرض» المذكورة في الآيات أعلاه فتعرِّفها لنا آية أخرى. بعد رؤيته لمعجزات موسى، طلب فرعون من موسى أن يبرهن تفوّق معجزاته بأن يتنافس مع أفضل السحرة الذين كان بمقدور فرعون ان يجمعهم من مدن مصر المختلفة. عندما خسر السحرة المباراة وشَهِدوا بأنفسهم ما عرفوا يقينا بأنه لا يمكن ان يكون سحرا، وهو فن كانوا يُتقِنوه، أعلنوا إعتناقهم لدين موسى. إلا ان هذا دفع فرعون الى توسيع دائرة إتهامه لموسى وهارون بالعمل على **إخراج الناس من أرضهم** لتشمل السحرة أيضاً: «**وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠). قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١). رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢). قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣)**» (الأَعْراف: ١٢٠–١٢٣). يتّضح من الآية الأخيرة بأن «الأرض» المشار إليها في الآيات الأربع التي مرّ ذكرها هي مدينة معينة. إننا نعرف من الآيتين ٣٦ من سورة الشعراء و ١١١ من سورة الأعراف (أنظر أيضا القسمين ٦–٤ و ٦–٥) بأن السحرة كانوا قد جُلبوا

من عدة مدن:

قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦). يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (الشعراء: ٣٧).

قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١). يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (الأعراف: ١١٢).

لذلك فإن كلمة «الْمَدِينَة» في الآية ١٢٣ من سورة الأعراف أعلاه لا يمكن أن تكون معادلة لكل البلاد، أي مصر العليا (الجنوبية) ومصر السفلى (الشمالية)، التي كانت تتكون من عدة **مدن**. والآن، لقد كان طلب موسى من فرعون هو ببساطة السماح له بإخراج بني إسرائيل من مصر، فما الذي جعل إذا فرعون ومستشاريه يفكّرون بهذا الإتهام الغريب لموسى وهارون، وهو اتهام وجّهوه لاحقا الى السحرة أيضاً، بأنهم كان قد خططوا لإخراج سكان «الْمَدِينَة» منها؟ إن الإجابة لها علاقة بالذكريات المريرة لعصر الهكسوس. فالمدينة التي كان فرعون ومستشاروه يشيرون اليها هي باي-رمسيس والتي هي نفس المدينة التي التقى فيها فرعون مع موسى وهارون والتي جرت فيها المباراة مع السحرة. كانت باي-رمسيس أيضا المدينة التي بُنيت على أطلال أفاريس التي كانت يوما عاصمة الهكسوس. إن فروعون لم يصدّق موسى حين قال له بأنه كان يريد إخراج بني إسرائيل من مصر الى الأبد. إذ انه أعتقد ان هذا الطلب كان الخطوة الأولى لإعادة واقعة تاريخيّة مريرة الذكرى وهي أستيلاء الهكسوس الساميّون القادمون من الشرق على الدلتا الشرقية.[٣٥] إعتقد فرعون ومستشاروه أن موسى كان سيُخرِج بني إسرائيل من مصر بهدف جعلهم نواة جيش سامي يكوّنه ويغزو به مصر السُفلى ليقيم مرة أخرى المملكة الساميّة في المدينة التي كان قد أصبح أسمها حينذاك باي-رمسيس.

ولكن ما علاقة هذا كله بيوسف والمدينة التي أقام بها؟ الجواب هو ان فرعون وملأه ما كانوا سيفكرون بهذا السيناريو لو لم يكن القوم الذي طلب موسى إخراجهم من مصر هم بني إسرائيل. إذ كان فرعون وملأه يعلمون بطبيعة الحال أن بني إسرائيل هم أحفاد اولئك الآباء الاوائل الذين أستقروا في الدلتا الشرقية وبنوا علاقات قوية مع الهكسوس. كما أنهم كانوا يعرفون يوسف جيداً، كما تبيّن الآية الكريمة التالية، أي إنهم كان يعرفون بأن أحد أولئك الآباء الاوائل لبني أسرائيل أرتقى الى منصب مرموق في مملكة الهكسوس: «**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي**

---

[35] قد يعني هذا بأن الهكسوس استولوا على الدلتا الشرقية عن طريق غزو بالقوة وليس عن طريق تسرب سلمي تدريجي، إلا أنه قد لا يعني ذلك أيضا.

شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ» (غَافِر: من ٣٤). وهكذا، فإن تخمين فرعون وملأه الخاطئ بشأن الغاية القصوى لمهمة موسى يمثّل دليلا آخر على أن يوسف وأوائل بني إسرائيل عاشوا في الدلتا الشرقية عندما كانت تحت حكم الهكسوس. سنعود إلى هذه النقطة لاحقا في الكتاب.

هنالك معلومة مهمة أخرى في الرواية القرآنيّة لقصة يوسف وهي الإشارة الى «**خَزَائِنِ الأَرْضِ**». عندما أطلق الملك سراح يوسف من السجن وأراد تكريمه، من بعد ان وجده رجلا صادقا وأمينا وذا قابليات فوق طبيعية في تفسير الرُؤى، طلب يوسف من الملك أن يجعله مسؤولا عن مخازن البلاد. إن هذا مؤشر قوي آخر على أن يوسف عاش في مصر في منطقة الدلتا حيث أنه من المعروف اليوم من وثائق مصر القديمة، كما سبق تبيانه، بإن الدلتا ذات الارض الخصبة كانت غالبا ما تصبح في أزمان المجاعات مقصد الناس حتى من خارج مصر.

لما كان يوسف موهوبا بقدرة التنبؤ بالأحداث، فإنه يبدو من المعقول الإستنتاج أنه بسؤاله للملك أن يجعله مسؤولا عن المخازن فإن يوسف كان واعيا تماما بالدور الذي يلعبه في الخطة الإلهية اللطيفة لجلب عائلته الى مصر: «**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤). قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥). وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)**» (يُوسُف: ٥٤ -٥٦).

من الممكن طبعاً أنه كانت هنالك أساسا بعض المخازن قيد الإستخدام في مصر السفلى قبل ان يتولى يوسف مسؤوليتها. ولكن بسؤاله للملك أن يجعله مسؤولا على مخازن البلاد لم يكن يوسف يشير فقط الى المخازن التي كانت موجودة أساسا ولكن الى مخازن اكثر ضخامة كان قد نصح الملك أن يبنيها لخزن محاصيل السنوات السبع الوفيرة المحصول لأستعمالها في السنين السبع قليلة المحاصيل التي كانت ستأتي بعد ذلك. لقد نجح يوسف في تأسيس نظام ضخم لخزن الحبوب في الدلتا الشرقية. من الجدير بالذكر هنا أن رمسيس الثاني بنى مدينة مخازنه، باي-رمسيس، على نفس موقع أفاريس القديمة التي أسس فيها يوسف مخازن الحبوب. هل يشير هذا الى شيء أكثر من مجرد **صدفة**؟ الإجابة على هذا السؤال حسب العهد القديم هو النفي، لأن الفرعون الذي أستعبد بني إسرائيل لبناء مدن مخازنه «*بايثوم ورمسيس*» لم يكن يعرف يوسف: «*ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف*» (الخروج، ١: ٨). إلا أننا شاهدنا أن القرآن العظيم يدحض إدعاء العهد القديم هذا مؤكّدا بأن يوسف كان معروفاً في قصر رمسيس الثاني وكانت ذكراه لا تزال حيّة. إنّ هذا

يوحي بقوة بأن قرار رمسيس الثاني في بناء مخازن في باي-رمسيس لم يتضمّن اي إبداع لأنه كان ببساطة إستنساخا لفكرة يوسف الإبداعية. إن هذا مؤشّرا محتملا آخر في القرآن على أن يوسف عاش فعلاً في الدلتا الشرقية خلال حكم الهكسوس الذين كانت عاصمتهم أفاريس.

تقدّم الآية الكريمة التالية دليلا قرآنياً آخر على أنه لابد وأن يكون إسرائيل وأبناءه قد دخلوا مصر خلال حكم الهكسوس وأنهم استقروا في الأراضي التي كانت تحت حكمهم: «**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ**» (الْمَائِدَة: ٢٠). إن تذكير موسى هذا لقومه من بني إسرائيل حصل بعد الخروج من مصر، وهذا يعني بأن الله جعل من بني إسرائيل «**مُلُوكًا**» خلال إستقرارهم في مصر. ولما كان من غير المحتمل ان يكون بني إسرائيل قد حصلوا على مناصب مرموقة في مصر الفرعونية التي كانت دائما أرضاً عدائية للأجانب، فلابد أنه حصل إذا في مصر السفلى تحت حكم الهكسوس الذين كانوا أنفسهم غير مصريين. لنناقش ببعض التفصيل الإستنتاجات التي يمكن إستخلاصها من تذكير موسى لبني إسرائيل بفضل الله في قوله «**وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا**».

يخبرنا القرآن العظيم أن الملك منح يوسف ما طلب وجعله مسؤولا على مخازن الأرض. لابد أن هذا كان مركزاً مرموقاً في إدارة الدلتا الشرقية الخصبة التي كانت مقصدا لطالبي المؤن من داخل مصر وخارجها. وبعد أكثر من سبع سنوات، خلال الزيارة الثانية والثالثة لأخوة يوسف، نجد أخوة يوسف، الذين لم يتعرّفوا عليه، يخاطبوه بلقب «العزيز». إذ خاطبوه بلقب «العزيز» لأول مرة عندما توسّلوا إليه أن يحتفظ بأحدهم رهينة بدلا من أخيهم الأصغر، الذي أحتجزه يوسف بعد أن إتّهمه بالسرقة وفقا لخطة وضعها يوسف وشارك في تنفيذها أخوه الأصغر نفسه (يوسف: ٧٨). أما المرة الثانية التي خاطبوه فيها بلقب «العزيز» فكانت في زيارتهم التالية التي جاءوا يسألونه فيها مزيدا من المؤن، خافين هدفهم الأساسي من الزيارة وهو طلب إطلاق سراح أخيهم الأصغر (يوسف: ٨٨):

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (يُوسُف: ٧٨).

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (يُوسُف: ٨٨).

يبدو أن «العزيز» لم يكن مجرّد لقب **مسؤول المخازن**، وهو المنصب الذي أستلمه يوسف فور

خروجه من السجن، وإنما منصب أعلى رُقِّي إليه يوسف بعد ذلك وقام هو بإلحاق مسؤولية المخازن به. من المهم ملاحظة أن القرآن لا يشير الى مناداة أخوة يوسف له بلقب «العزيز» في زيارتهم الأولى:

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨). وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُم مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩). فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠). قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (يُوسُف: ٦١).

كما نعلم أيضاً من القرآن العظيم أن الشخص المصري صاحب المقام الرفيع الذي أشترى يوسف كان نفسه يحمل لقب «العزيز»[٣٦]. إن أحد المؤشرات على أن لقب «العزيز» إنطوى على سلطة كبيرة هو أن زوجة العزيز طلبت منه أن يضع يوسف في السجن أو يعرّضه لعقاب شديد، بعد إتهامه كذباً بمحاولته إغوائها بعد أن فشلت هي في إغوائه:

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣). وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤). وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (يُوسُف: ٢٥).

وتبدو رفعة مكانة العزيز من خلال تعهّد زوجته بوضع يوسف في السجن إن إستمرّ في صدّها، وهو عهد نفذته بعد ذلك. فيما يلي آيتان ذاتا صلة تشيران الى هذا الحدث في قصة يوسف:

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (يُوسُف: ٣٠).

---

[36] في حالة الاحتمال الضعيف بأنّ «العزيز» كان لقب خاص بمسؤول المخازن فقط، فإن ذلك يعني أن هذا اللقب لم يُستَحدَث ليوسف وأنّ الدلتا الشرقية كان فيها أصلاً عدداً كبيراً من المخازن بدليل وجود شخص يحمل لقب العزيز. وبالرغم من أن هذا لايزال يعني ان رمسيس الثاني اقتبس فكرته ببناء مدن المخازن من افاريس فإنها تعني أيضا بأن يوسف لم يكن هو الذي انشأ نظام خزن الحبوب في الدلتا الشرقية. ولكن في كلتي الحالتين يبقى الترابط ذو الدلالة بين افاريس/يوسف وباي-رمسيس/رمسيس الثاني موجودا.

قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (يُوسُف: ٣٢).

ويرد مصطلح «العزيز» أيضاً في الآية التي يسأل فيها الملك النسوة المذكورات في الآية ٣٠ اعلاه وإمرأة العزيز عما كان قد حصل فعلاً في سنين مضت عندما سُجن يوسف: «قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ» (يُوسُف: ٥١).

بينما يخبرنا القرآن العظيم بوضوح بأن يوسف أصبح العزيز وكان مسؤولا عن المخازن على طول البلاد، ورغم إن هذا المنصب كان ذا سلطة كبيرة، فإنه لا توجد إشارة صريحة في الكتاب العزيز الى أن يوسف أصبح ملكا. وعودة الى نقطتنا الاصلية، كيف نفسّر إذا قول موسى لبني إسرائيل «وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا» في الآية ٢٠ من سورة المائدة؟ نجد الإجابة على هذا السؤال في الآيات التالية التي تتضمن وصفا لدخول يعقوب وبنيه وعوائلهم الى مصر ودعاء يوسف شكرا لله على أفضاله:

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩). وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠). رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنْ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الاَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (يُوسُف: ١٠١).

من المثير للأهتمام إشارة هذه الآيات الى رفع يوسف لأبويه على «الْعَرْشِ» وشكره ربه على ما آتاه «مِنْ الْمُلْكِ». إن هناك تفسيران ممكنان لهذه الإشارات القرآنيّة. الأول، هو أن يوسف كان لايزال العزيز لغاية المرحلة المتأخرة نسبيّاً عند زيارة أخوته الأخيرة والتي كشف لهم فيها عن هويته الحقيقية، ولكنه أصبح ملكاً في الفترة بين زيارتهم الأخيرة هذه وبين أستقباله لأبويه في مصر عندما رفعهما على «الْعَرْشِ». أما التفسير الآخر، وهو الأكثر ترجيحا، فهو ان «الْعَرْشِ» المشار إليه في الآية الكريمة هو عرش العزيز الرفيع الشأن وان الدعاء الذي يشكر فيه يوسفُ الله بتواضع على ما منحه «مِنْ الْمُلْكِ»، أي جزءاً من المُلك، تبيّن بأنه لم يكن ملكا كاملاً رغم انه كان يتمتع

بسلطة كبيرة جدا. إذ لابد أن المنصب الذي جمع بين مسؤولية العزيز ومسؤولية المخازن كان رفيع المستوى جدا، بل من شبه المؤكد أنه كان المنصب الثاني بعد الملك نفسه. الشكل الأخر الذي يمكن ان يأخذه هذا الاحتمال الثاني المُرَجَّح هو أن يوسف كان بالفعل نائب الملك، وبالتالي فإنه كان ينوب عنه في مجلسه أثناء غيابه. إن هذه الصورة تفسّر أن يوسف لم يكن ملكا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ولكنه في نفس الوقت كان يجلس على عرش الملك عندما قدم عليه أبواه لرؤيته. كما يُفسّر هذا الإحتمال بالذات كيفية إتهام يوسف لأخيه بسرقة كأس الملك، إذ كان من السهل على يوسف أن يرتّب ذلك الأمر إذا كان سيستقبل أخوته في مكتب الملك. يجب ان نلفت الانتباه هنا الى عدم وجود أية آية كريمة في القرآن العظيم تشير الى إرتقاء أي من بني إسرائيل ماعدا يوسف الى هذه المنزلة الرفيعة.

قد يبدو للبعض أن صيغة الجمع «**مُلُوكًا**» في تذكرة موسى لبني إسرائيل تشير الى أن **أكثر من شخص واحد** من سلالة النبي إسرائيل أرتقوا الى موقع «الملك» أو «العزيز»: «**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ**» (المَائِدَة: ٢٠). إلا ان هذا الإستنتاج الأخير مُضلِّل لإنه سواء كان هناك ملوك عدة أو كان يوسف الملك الوحيد فإن تعبير «**جَعَلَكُمْ مُلُوكًا**» الذي استخدمه موسى في خطابه مع بني إسرائيل كان لابد أن يأتي بصيغة الجمع. إذ ان وجوب إستخدام صيغة الجمع هنا سببه هو أن الخطاب موجَّه الى جميع بني إسرائيل ولا علاقة له بعدد ملوك. بعبارة أخرى، يقول الله في تلك الآية الكريمة لبني إسرائيل على لسان موسى بأنه بمنحهم واحد أو أكثر من بني اسرائيل «**مِنْ الْمُلْكِ**» فكأنما جعل كل شخص من بني إسرائيل ملكاً، وهو ما تعبّر عنه عبارة «**جَعَلَكُمْ مُلُوكًا**» (أنظر أيضاً القسم ٤-٣). إن الإستنتاج الخاطيء بأنه كان هنالك اكثر من ملك واحد قد يعود الى الفشل في فهم أن كلمة «**أَنْبِيَاءَ**» التي استخدمها موسى تعني فعلا **أكثر من نبي واحد**، وهذه حقيقة تثبتها عدة آيات من القرآن العظيم تخبرنا بأنه على الأقل فإن إسرائيل وأبناءه الإثني عشر وموسى وهارون كانوا كلهم أنبياء، بينما تعكس صيغة الجمع «**مُلُوكًا**» حقيقة أن الكلمة تشير الى كل فرد من بني إسرائيل وليس الى ملوك مزعومين.

هكذا يبيّن القرآن العظيم بوضوح أن إستقرار بني إسرائيل الوقتي في مصر لابد أن يكون قد بدأ في منطقة الدلتا في مصر عندما كانت تحت حكم الهكسوس. ولنتذكّر الإحتمال المُرجّح الذي نوقش في القسم ٢-٣ من أن وجود المقطع «يعقوب» كجزء من إسم الملك الثاني للهكسوس يعكس تأثّراً بإسم النبي يعقوب. إذا لابد أن يكون الهكسوس قد سمعوا بإسم يعقوب من إبنه يوسف. فالإستنتاج

المنطقي هنا إذا هو أن دخول يوسف الى مصر لابد أن يكون حصل أثناء حكم الملك الأول أو الثاني من ملوك الهكسوس. أما لتخمين تاريخ هذا الدخول فنحتاج إلى القيام ببعض الحسابات.

بينما يذكر العهد القديم أن يوسف كان له من العمر سبعة عشر عاما يوم بيعَ الى قافلة من بني إسماعيل قاموا بدورهم ببيعه في مصر (التكوين، ٣٧: ٢-٢٨)، يخبرنا القرآن العظيم بأن يوسف كان «غلاما» حين ألقاه أخوته في البئر وعثرت عليه قافلة من المسافرين:

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١). أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (يُوسُف: ١٢).

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (يُوسُف: ١٩).

ثم عاش في بيت سيده حتى شبّ، وهي مدّة يمكن تقدير طولها بين ست الى ثماني سنوات: «**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**» (يُوسُف: ٢٢). بعد فترة من ذلك حاولت إمرأة سيده أن تغويه. وعندما صدها وضعته في السجن حيث بقي بضع سنين، ولنقل خمس سنوات: «**فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**» (يُوسُف: من ٤٢). ثم أخرجه الملك من السجن، وكان قد تولى مسؤولية المخازن لما لا يقل عن سبع سنين، وهو عدد سنوات المحصول الوفير، عندما جاء أخوته طلباً للمؤونة في وقت ما خلال سنوات المجاعة السبع التالية.

أما دخول يعقوب الى مصر فحصل بعد كل ذلك، وعلى وجه التحديد بعد الزيارة الثالثة لإخوة يوسف لمصر. من الواضح إذا أن دخول يعقوب الى مصر حصل بعد **حوالي** عشرين عاما من دخول يوسف إليها. ولما كان أعتقاد الباحثين ان حكم أول ملوك الهكسوس «شيشي» أستمر ١٣ أو ٢٣ عاماً، فإن دخول يعقوب الى مصر لابد ان يكون قد حصل أما في أواخر حكم شيشي أو، وهو الإحتمال الاكثر ترجيحا، في سنوات حكم ملك الهكسوس الثاني، يعقوب-هير، الذي حكم بين ٨ الى ١٨ سنة. ولما كان تاريخ بدء حكم الهكسوس يقدَّر بحدود ١٦٦٣ ق.م، فإن دخول يعقوب الى مصر كان **تقريباً** في عام ١٦٤٣ ق.م.

٦

قصة النبي موسى عليه السلام في القرآن العظيم

٦-١ عرض مُختصر لقصة النبي موسى عليه السلام في القرآن العظيم

يرد ذكر أسم النبي موسى في ٣٤ سورة من سور القرآن العظيم، ويعطي القرآن العظيم معلومات تاريخيّة عن موسى أكثر من أي نبي آخر. وبينما تحتوي بعض السور على إشارة سريعة أو معلومات مختصرة، كسور مريم والأنبياء والأحزاب والصافات، نجد سوراً أخرى تذكر معلومات كثيرة نسبياً، كسور البقرة ويونس وطه والشعراء. قبل الاستشهاد بنصوص قرآنيّة عن قصة موسى، سنقدّم في هذا القسم عرضا للأحداث الرئيسة لقصة موسى في القرآن من ولادته وحتى الخروج من مصر. أما الرواية القرآنيّة لحياة بني إسرائيل بعد الخروج فتعالج بشكل رئيس قضايا دينية، متضمنّة القليل من البيانات التاريخيّة التي يمكن إستخدامها لتقصي حركة بني إسرائيل، وستتم دراسة الآيات القرآنيّة المعنية في الفصل الثامن.

عندما وُلِد موسى خافت أمه على حياته، فأوحى اليها الله أن ترضع طفلها ثم تضعه في تابوت وترميه في النهر، وذلك بعد أن وعدها بأن يعيده إليها سالماً وأن يجعله من المرسلين. وساقت الأمواج التابوت الى الشاطئ حيث إلتقطه قوم فرعون. أرادت زوجة فرعون الإحتفاظ بالطفل وأستطاعت إقناع زوجها بأن لا يقتله عسى ان يكون ذا نفع ما لهما او يتّخذوه ولدا. وعثرت أخت موسى، التي كانت قد أرسلتها أمها لتقصي أخيها، عليه مع قوم فرعون. ولأنّ موسى الرضيع كان قد رضع من أمه، فقد رفض أن يرضع من المرضعات اللاتي حاولن إرضاعه. لذلك وافق قوم فرعون على عرض أخت موسى عليهم بأن تجد له مرضعة يقبلها. إن العهد القديم لا يذكر أن موسى الرضيع رفض المراضع، لذلك فإن عرض أخت موسى بإيجاد مرضعة له ليس له تبرير في ذلك الكتاب. وهكذا عاد الطفل الى أحضان أمه وتحقق بذلك وعد الله الأول لها.

في أحد الأيام، وكان قد أصبح رجلا ناضجا، دخل موسى مدينة ما من غير أن يراه أحد. وهنالك طلب منه شخص من قومه أن يساعده في قتاله مع مصري. فتدخّل موسى وضرب

المصري ضربة قاتلة مات هذا الاخير على اثرها. في اليوم التالي قام نفس ذلك الشخص من قوم موسى بطلب مساعدته في قتال مصري آخر. ولكن عندما كان موسى على وشك قتل المصري، ذكّره هذا بأنه يتصرف كمتسلّط جبّار لا كمصلح، فكف موسى يده عنه ولم يؤذه.

ثم أتى رجل من المدينة بأخبار مُقلقة لموسى عن خطة لقتله كان يدبّرها رؤساء المدينة ونصحه بمغادرتها. وهكذا غادر موسى مصر متوجها الى مدين. وصل موسى الى مكان في مدين وجد عنده مجموعة من الرعاة يسقون ماشيتهم. لفت انتباه موسى وجود فتاتين قد تجنّبتا منافسة باقي الناس على الماء، فسألهما عن أمرهما. أخبرت الفتاتان موسى بأنهما لا تستطيعان سقي ماشيتهما حتى ينتهي الرعاة. كما اخبرتاه بأن والدهما رجل كبير مما أضطرهما للقيام بهذا العمل. فسقى لهما موسى ماشيتهما ثم انسحب الى ظل للراحة.

بعد ذلك عادت إليه إحدى الفتاتين تمشي على إستحياء وأخبرته أن والدها يدعوه ليكافأه على مساعدته لإبنتيه. أخبر موسى والد الفتاتين بقصته كاملة، فطمأنه الشيخ الكبير بأنه آمن معهم. ثم أقترحت إحدى الفتاتين على أبيها أن يستأجر موسى لقوّته وأمانته. فعرض الشيخ الكبير على موسى أن يزوّجه إحدى إبنتيه مقابل أن يعمل له موسى لمدّة ثماني سنوات، أو عشر إن شاء موسى ان يتطوع للعمل سنتين إضافيتين، فوافق موسى على هذا العرض.

بعد وفاءه بعهده، أخذ موسى زوجته الحامل وغادر مدين. وكانت الليلة مظلمة وباردة حين رأى موسى ناراً على البعد. طلب موسى من زوجته أن تنتظره في مكانها بينما يذهب هو ليأتي بقبس من النار يستضيئان أو يتدفئان به او ليسأل موقدي تلك النار عن الطريق. عندما وصل موسى الى الوادي الذي كانت فيه النار ناداه الله، رب العالمين، وأخبره أنه أختاره ليكون أحد رسله. وهكذا تحقق ثاني وَعدَي الله الى إم موسى.

أمر الله موسى أن يرمي الى الأرض عصاه وحوّلها الى حية تسعى قبل أن يعيدها الى حالتها الأول. ثم أمر الله موسى أن يضع يده في جيب ثوبه ويخرجها فإذا هي بيضاء بدون أي مرض. بعد أن منح الله موسى هاتين المعجزتين أمره أن يذهب الى فرعون ويخبره أن عليه أن يعبد الله وأن يسمح لبني إسرائيل بالرحيل من مصر معه. وهنا طلب موسى من الله أن يرسل معه أخاه هارون عونا له في خطابه لفرعون لأنه كان يعاني من ثقل في لسانه. فأجابه الله الى طلبه.

رفض فرعون طلب موسى بالرغم من رؤيته لمعجزتي تحوّل العصا الى حية تسعى وبياض يد موسى. بعد ان إتّهم موسى بالسحر، أستدعى فرعون سحرة من أنحاء مصر ليتباروا مع موسى. حين فاز موسى في مباراته مع السحرة، وجد السحرة أنفسهم مُلقَون على الأرض في حالة سجود.

فأدرك السحرة مباشرة أن القوة التي تسند موسى في ما يقوم به لا تمت للسحر بصلة ولابد أن تكون إلهية، تماما كما كان يقول موسى. وهكذا أعلن السحرة إيمانهم برسالة موسى، الامر الذي دفع فرعون الخائب الى تهديدهم بالتعذيب والقتل.

أستقر موسى وهارون بأمر الله في مصر. ثم ضربت كوارث فرعون وقومه كعلامات من الله تشهد لموسى بأنه رسول من الله وأنهم يجب أن يطلقوا بني إسرائيل ويتركوهم يغادروا مصر مع موسى. بعد حلول آخر كارثة أخبر فرعون موسى بأنه سيدع بني اسرائيل يغادرون مصر مع موسى إذا طلب موسى من الله ان ينهي الكارثة. فعل موسى ما طلبه منه فرعون، الا ان هذا الاخير أخلف وعده. حينئذ أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل من مصر تحت جنح الظلام. حين علم فرعون بهرب موسى وبني اسرائيل جهّز جيشا وخرج ملاحقا الفارّين. حين أقترب جيش فرعون من موسى وبني إسرائيل بحيث أصبح الفريقان يرون بعضهم بعضا، أمر الله موسى أن يشق بعصاه البحر ويعبر مع بني إسرائيل الى الضفة الأخرى ماشين على الأرض اليابسة التي ظهرت. عندما حاول فرعون وجيشه عبور البحر على نفس الطريق الجاف لمطاردة بني إسرائيل عاد البحر الى حالته الطبيعية وغرق فرعون وجيشه.

ثم يذكر القرآن العظيم الكثير من التفاصيل عن المشاكل التي سببها بنو إسرائيل لموسى والتي كان سببها الرئيس عصيانهم له. وبلغ عصيان بني اسرائيل ذروته عندما رفضوا دخول الأرض المقدسة التي منحها الله لهم بسبب خوفهم من ساكنيها. نتيجة لذلك العصيان، غضب الله عليهم وعاقبهم بأن حرّم عليهم دخول الارض المقدسة لمدّة أربعين عاماً قضوها تائهين في الارض. كما يذكر القرآن أحداثا أخرى تخص موسى، بما فيها ذلك أجزاءا من حواره مع الله.

بعد هذا العرض الموجز للأحداث الرئيسة لقصة موسى وقومه في القرآن العظيم ذات الصلة بموضوع هذا الكتاب، سنستشهد فيما يلي بآيات كريمة من أربع سور تحتوي أطول التفاصيل عن قصة موسى. أما غير ذلك من تفاصيل وردت في سور أخرى فسنشير اليها في الفصول القادمة.

٦-٣ قصة النبي موسى ﷺ في سورة القصص

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢). نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣). إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤). وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥). وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦). وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ

مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ (٧). فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨). وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩). وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ (١٠). وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١١). وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢). فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣). وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤). وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥). قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦). قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧). فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨). فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْمُصْلِحِينَ (١٩). وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنْ النَّاصِحِينَ (٢٠). فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١). وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢). وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنْ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣). فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤). فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥). قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦). قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ (٢٧). قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨). فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنْ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩). فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠). وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ

إِنَّكَ مِنْ الآمِنِينَ (٣١). اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢). قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي (٣٣). وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي (٣٤). قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥). فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ (٣٦). وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧). وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظُنُّهُ مِنْ الْكَاذِبِينَ (٣٨). وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ (٣٩). فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠). وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ (٤١). وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنْ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢). وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣). وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنْ الشَّاهِدِينَ (٤٤). وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمْ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥). وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (القصص: ٤٦).

٦-٣ قصة النبي موسى ﷺ في سورة طه

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩). إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠). فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى (١١). إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢). وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣). إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤). إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥). فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦). وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧). قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨). قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩). فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠). قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى (٢١). وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢). لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣). اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤). قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥). وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦). وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧). يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨). وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩). هَارُونَ أَخِي (٣٠). اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١). وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢). كَيْ نُسَبِّحَكَ

كَثِيرًا (٣٣). وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤). إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥). قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦). وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧). إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨). أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩). إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنْ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠). وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١). اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢). اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣). فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤). قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥). قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦). فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧). إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨). قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩). قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠). قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى (٥١). قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى (٥٢). الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣). كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُوْلِي النُّهَى (٥٤). مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥). وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦). قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧). فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨). قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩). فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠). قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (٦١). فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢). قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمْ الْمُثْلَى (٦٣). فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى (٦٤). قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥). قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦). فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧). قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى (٦٨). وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩). فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠). قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١). قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢). إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣). إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَا (٧٤). وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ

الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ الدَّرَجَاتُ الْعُلا (٧٥). جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦). وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى (٧٧). فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنْ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨). وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (طه: ٧٩).

٦-٤ قصة النبي موسى عليه السلام في سورة الشعراء

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠). قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١). قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي (١٢). وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣). وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي (١٤). قَالَ كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥). فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦). أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧). قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨). وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنْ الْكَافِرِينَ (١٩). قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنْ الضَّالِّينَ (٢٠). فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُرْسَلِينَ (٢١). وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢). قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣). قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤). قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥). قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الأَوَّلِينَ (٢٦). قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧). قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨). قَالَ لَئِنْ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ (٢٩). قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠). قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ (٣١). فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢). وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣). قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤). يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥). قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦). يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧). فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨). وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩). لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ (٤٠). فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١). قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢). قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣). فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤). فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥). فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦). قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧). رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨). قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩). قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠). إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١). وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢). فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ

حَاشِرِينَ (٥٣). إِنَّ هَـٰؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤). وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥). وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦). فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧). وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨). كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩). فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠). فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١). قَالَ كَلا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِي (٦٢). فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣). وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤). وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥). ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (الشُّعراء: ٦٦).

٦-٥ قصة النبي موسى ﷺ في سورة الأعراف

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣). وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤). حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِي بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥). قَالَ إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ (١٠٦). فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧). وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨). قَالَ الْمَلأ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩). يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠). قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١). يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢). وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣). قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤). قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥). قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦). وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧). فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨). فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩). وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠). قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١). رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢). قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣). لأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤). قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥). وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦). وَقَالَ الْمَلأ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧). قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨). قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩). وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠). فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١). وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ

مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢). فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣). وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤). فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥). فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦). وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (الأعْراف: ١٣٧).

٦-٦ إدّعاءات في العهد القديم لا سند لها في القرآن العظيم

بالإضافة الى التصريحات القرآنيّة التي تُناقض ما ورد في العهد القديم من إدّعاءات، فإن القرآن العظيم يخلوا أيضا مما يقابل بعض الإدعاءات التي وردت في العهد القديم. سنشير على وجه الخصوص الى بعض من إدعاءات العهد القديم هذه والتي أثارت إهتماما نقديا خاصا من الباحثين.

يفسّر العهد القديم معنى كلمة «موسى» كما يلي:

فنزلت إبنة فرعون الى النهر لتغتسل وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر. فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته. ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبي يبكي. فرقّت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين. فقالت أخته لإبنة فرعون هل أذهب وأدعو لك إمرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد. فقالت لها إبنة فرعون إذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أم الولد. فقالت لها إبنة فرعون إذهبي بهذا الولد وأرضعيه وأنا أعطي أجرتك. فأخذت المرأة الولد وأرضعته. ولما كبر الولد جاءت به الى إبنة فرعون فصار لها إبناً. ودعت إسمه موسى وقالت إني أنتشلته من الماء (الخروج، ٢: ٥ -١٠).

كما ذُكر سابقاً في القسم ١-٢، ان تحليل العهد القديم اللغوي لأصل كلمة موسى هو تحليل خاطئ يعكس سوء فهم كُتّاب العهد القديم للجذر المصري الذي اشتُقَّ منه الأسم (Houtman, 1993: 289; Hyatt, 1971: 65; Noth, 1962: 26; Thompson, 1977: 155). أما القرآن العظيم، فلا يحتوي على مثل هذا التفسير الخاطئ لمعنى أسم موسى.

الإدعاء الآخر الذي لا نجد له أي أثر في القرآن العظيم هو تكليف فرعون لقابلتين لقتل المواليد الجدد من الذكور. لقد ناقشنا هذه القصة في القسم ١-٢ وبيّنا بأنها مفرطة السذاجة الى حد أنها لا

يمكن ان تكون حقيقية. إلا انه بالرغم من عدم ورودها في القرآن الكريم، أكتسبت قصة العهد القديم هذه شعبية بين عدد من المفسِّرين والمؤرّخين المسلمين (أنظر مثلاً المراغي، ١٩٤٦ب: ١٠٨؛ تفسير القرطبي لسورة القصص: ٧؛ الطبري، بدون تاريخ: ١٩٩؛ الطبرسي، ١٩٦١: ٢٦٦-٢٦٧). إلا ان الحقيقة التي لا تقبل الجدل هي أن القرآن العظيم لا يشير البتة الى هذه الحادثة المزعومة. إن هذا الميل الى إدغام تفاصيل من العهد القديم في ما يُزعَم بأنه الرواية **القرآنيّة** لا يولّد سوى صورة مشوّشة وغير دقيقة عن الرواية القرآنيّة.

لقد تجاوز خيال بعض الكُتّاب حد إضافة ما ورد في العهد القديم الى الرواية القرآنيّة ليصل الى الاستشهاد بتفاصيل لا يعرف سواهم مصدرها. إن هذا يساعدهم في تأليف رواية هي أكثر تفصيلا بكثير من الرواية القرآنيّة الخالصة. وعلى سبيل المثال، في كتاب صدر مؤخراً يدّعي دراسة القصة **القرآنيّة** لموسى وفرعون، أستعار المؤلِّف الكثير من المعلومات من العهد القديم التي لا سند لها في القرآن العظيم، بما في ذلك تكليف فرعون الذي لا يمكن تصديقه لقابلتين لقتل المواليد الجدد من الذكور (Husain, 1994). ثم يذهب هذا المؤلِّف في تعليقه على أسلوب فرعون في الحد من نسل بني إسرائيل إلى الأدّعاء بأن الشيء الوحيد المعروف «بشكل مؤكد» هو «أن واجب قتل كل مولود جديد من الذكور أُلقِي على عاتق القابلتين» (Husain, 1994: 23). إن الامر المؤكّد في الواقع هو أن مثل هذه الدراسات لا تمثّل الرواية القرآنيّة لقصة موسى وفرعون.

لا يرد في القرآن ذكر إدعاء العهد القديم بأن الرب أمر موسى بأن يطلب من بني إسرائيل «إستعارة أو سلب» ممتلكات ثمينة من المصريين قبل مغادرة مصر:

> *وأعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين. فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين. بل تطلب كل إمرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا وتضعونها على بنيكم وبناتكم. فتسلبون المصريين (الخروج، ٣: ٢١-٢٢).*

> *تكلم في مسامع الشعب ان يطلب كل رجل من صاحبه وكل امراة من صاحبتها امتعة فضة وامتعة ذهب. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين. وأيضاً الرجل موسى كان عظيما جدا في ارض مصر في عيون عبيد فرعون وعيون الشعب (الخروج، ١١: ٢-٣).*

> *وفعل بنو اسرائيل بحسب قول موسى. طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين (الخروج، ١٢: ٣٥-٣٦).*

أعترض الكثير من الباحثين على المصداقيّة التاريخيّة لقصة سلب المصريين من قبل بني إسرائيل لأسباب عديدة. إذ من الصعب فهم قبول المصريين إعطاء مجوهراتهم الى بني إسرائيل المُستَعبَدين (Hyatt, 1971: 138)، ناهيك عن أن هؤلاء العبيد كانوا السبب، ولو بصورة غير مباشرة، وراء الكوارث المدمّرة التي عانى منها المصريون لسنين. إضافة الى هذا، بينما ينص العهد القديم في الخروج (١٢: ٣٣) على أنه «*وألح المصريون على الشعب ليطلقوهم [ليغادروا] عاجلا من الأرض*»، فإنه يدّعي في ١٢: ٣٥-٣٦ بأن المصريين إستجابوا لطلب بني إسرائيل وأعطوهم المجوهرات، أي أن المصريين اعطوا بني اسرائيل مجوهراتهم وهم على دراية تامة بأنهم ما كانوا سيرونها ثانية! بالاضافة الى هذه المشكلة فإن هنالك المعضلة الأخلاقية المُتضمَّنة في تصوير الرب وهو يأمر بني إسرائيل بالإستيلاء على ممتلكات المصريين. إلا ان هذا في الواقع لا يتناقض مع أحكام أخلاقية اخرى في العهد القديم تجعل لبني إسرائيل ميّزات خاصة، كما في الفقرة عن الربا (التثنية، ٢٣: ١٩-٢٠) التي سبقت الاشارة اليها في القسم ٤-٣. إن قضية نهب بني اسرائيل لأموال المصريين لا تزال مشكلة لباحثي العهد القديم (أنظر مثلاً مناقشة Houtman, 1993: 382-386).

بالرغم من أن القرآن العظيم لا يشير البتة الى أي نهب للمصريين من قبل بني اسرائيل، فقد أدخل المُفسّرون المسلمون هذه الحادثة في تفسيراتهم للقرآن العظيم. فهذا ابن كثير، على سبيل المثال، يعيد في تفسيره المشهور سرد إدعاء العهد القديم بإستعارة بني إسرائيل من المصريين «حلياً كثيراً» (أنظر تفسير إبن كثير للآية ٥٢ من سورة الشعراء).

وأخيراً، لا يدعم القرآن رواية العهد القديم بشأن الرياح التي صاحبت شق البحر (أنظر التعليق في نهاية القسم ٢-٤).

٧

تشخيص القرآن العظيم لفرعون الخروج

من الواضح أن القصة القرآنيّة لموسى تحمل تشابهات مع رواية العهد القديم، إلا ان هنالك الكثير من الإختلافات أيضا. إن هذا الكتاب لا يهدف الى عرض كل هذه الإختلافات. بالرغم من أن باقي فصول الكتاب تدرس بشكل أساسي النص القرآني لقصة موسى، فإنها تتحرى أيضا الإختلافات بين النص القرآني ونص العهد القديم التي تعطي صورة تاريخيّة مختلفة تماما للأحداث وتوضّح بجلاء الفرق الكبير بين القرآن العظيم والعهد القديم من ناحية المصداقيّة التاريخيّة. سيقارن الكتاب هذه الفروقات مع معلومات تاريخيّة مؤثّقة ويدرّس دلالاتها. سيبيّن هذا الفصل، ولأول مرة، كيف شخّص القرآن الكريم، من دون أي غموض، هوية فرعون الخروج.

٧-١ فرعون واحد لا إثنان

شاهدنا بأن العهد القديم يدّعي بأن الفرعون الذي كان يحكم مصر في وقت ولادة موسى مات أثناء إقامة موسى في مدين (الخروج، ٢: ٢٣؛ ٤: ١٩) وأن كفاح موسى بعد عودته من مدين كان ضد فرعون آخر. كما توصّلنا في القسم ٢-٣ من مقارنة معلومات من العهد القديم مع حقائق تاريخيّة مُثْبَتة بإنه لابد أنّ فرعون الإضطهاد كان رمسيس الثاني (١٢٧٩-١٢١٢ ق.م) وبالتالي فلابد أن إبنه وخليفته من بعده، مرنبتاح (١٢١٢-١٢٠٢ ق.م)، كان هو فرعون الخروج. كما شاهدنا أن معظم الباحثين الذين يقبلون تاريخيّة حادثة الخروج يرفضون عادة أجزاءا من رواية العهد القديم، خصوصاً إدعاء العهد القديم أن الفرعون مات أثناء ملاحقته لبني إسرائيل الفارّين من مصر. إذ أن إدخال الباحثين لهذا التحوير على رواية العهد القديم يمنح واحدهم حرية أكثر في إنتقاء التاريخ أثناء حياة الفرعون الذي يعتقد بأنّ الخروج حصل فيه. إن أحد الاختيارات الشائعة في هذا الخصوص هو تاريخ يلي بفترة قصيرة الموت المزعوم لأكبر أبناء رمسيس الثاني، حيث يدّعي العهد القديم أن الرب قتل المواليد البكر للمصريين في آخر كارثة حلّت عليهم قبل مغادرة بني إسرائيل. لقد سبق وأن ناقشنا بشكل نقدي في القسم ٢-٤ هذا المنحى.

أما في القرآن، فلا توجد إشارة الى كارثة قتل المواليد البكر للمصريين، حيث ذُكِرت الكوارث التي حلّت بالمصريين في الآيات التالية:

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠). فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١). وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢). فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣). وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (الأعراف: ١٣٤).

لما كان هدفنا هنا هو مقارنة الرواية القرآنيّة مع ما يقابلها في العهد القديم فإننا سنهمل النظرات الشخصية للباحثين الذين يرفضون أجزاءا من رواية العهد القديم لكي يوفّقوا بين ذلك الكتاب وبين التاريخ الموثَّق، وسنأخذ بنظر الأعتبار رواية العهد القديم بكاملها. لما كان العهد القديم واضحا كل الوضوح في ذكره وفاة فرعون مصر عندما كان موسى في مدين، ولما كان العهد القديم يشير ضمنيّاً الى ان رمسيس الثاني هو فرعون الإضطهاد، إذا فلابد أن ابن هذا الأخير وخليفته، مرنبتاح، كان هو فرعون الخروج. أما الرواية القرآنيّة فتختلف إختلافاً جذرياً عن رواية العهد القديم.

على خلاف العهد القديم، فإن القرآن الكريم واضح كل الوضوح في حديثه عن فرعون **واحد**، لا إثنين، إضطهد بني إسرائيل في مصر وطاردهم بعد خروجهم منها. إن كل الآيات القرآنيّة في هذا الخصوص واضحة تماما في إشارتها الى فرعون واحد. لا توجد أية إشارة في قصة موسى الى إعتلاء فرعون جديد لعرش مصر. إن إشارات القرآن الى «فرعون» أنما تخص ذلك الفرعون الوحيد.

يُشير عبد الوهاب النجّار في كتابه المشهور «قصص الأنبياء»، الذي نُشِر لأول مرة في ثلاثينات القرن العشرين، الى إمكانية توفيق الرواية القرآنيّة لقصة موسى مع إدعاء العهد القديم بأن فرعون الإضطهاد هو غيره فرعون الخروج. وتبنى الكاتب الفرنسي موريس بوكاي أيضاً هذا الرأي في كتابه المعروف «العهد القديم والقرآن والعلم» The Bible, The Qur'an and Science الذي نُشِر لأول مرة في أواخر سبعينيّات القرن العشرين. إلا أن هذا الإدعاء لا أساس له من الصحة. كما أشار كُتّاب مسلمون أخرون الى أن فرعون الإضطهاد ليس هو فرعون الخروج ولكن

من دون الإقرار بأن مصدر هذه المعلومة هو العهد القديم (أنظر مثلاً Husain, 1994: 60). إن من الصعب جدا فهم سبب التوصّل الى هذا الإستنتاج الخاطئ من قبل هؤلاء المؤلِّفين إذا أخذنا بنظر الاعتبار وضوح النص القرآني الذي يتحدّث عن فرعون واحد فقط. أما بوكاي بالذات فقد بيّن في كتابه بشكل تفصيلي ومقنع بأن معلومات العهد القديم لا يمكن ببساطة إعتبارها دقيقة وأن العهد القديم مملوء بمعلومات خاطئة وتناقضات داخلية. ولكن مع ذلك نجده يقبل بدون تمحيص وبدون سند من خارج العهد القديم إدعاء ذلك الكتاب بأن فرعون مصر مات عندما كان موسى في مدين.

من المثير للأهتمام ملاحظة أن قدماء المفسِّرين، بالرغم من إطّلاعهم على العهد القديم، لم يشيروا إطلاقاً الى أن من الممكن فهم النص القرآني على أنه يشير إلى وجود فرعونين بدلا من واحد. بل أن بعضهم دحض إدعاء العهد القديم إستنادا الى النص القرآني، مثل إبن كثير (١٣٠١-١٣٧٢ م) في كتابه الكلاسيكي المعروف أيضاً بـــ «قصص الأنبياء» (إبن كثير، ١٩٨٥: ٣١٧). إن هذا يدل، أولاً، على أن النص القرآني حول هذه المسالة لا غموض فيه على الاطلاق، وثانيا، أن المفسِّرين المعاصرين الذين قبلوا رواية العهد القديم حول فرعونين إنما فعلوا ذلك نتيجة إعتقادهم أن أكتشافات علم الآثار، التي بالطبع لم يقع قدماء المفسِّرين تحت تأثيرها، تقود الى هذا الاستنتاج. وفعلا نجد كل من النجّار وبوكاي يقدّم حججا تستند الى بيانات آثارية لدعم رأيهم بأن رمسيس الثاني كان فرعون الإضطهاد وأن مرنبتاح هو فرعون الخروج الذي غرق أثناء ملاحقته لبني إسرائيل الفارّين من مصر. إن نظرية الفرعونين هذه هي فكرة مُضلِّلة وتمثّل تفسيرا عشوائيا تماما للنص القرآني.

بالإضافة الى حقيقة أن القرآن يتكلّم ضمنياً عن فرعون واحد فقط، فإنه يحتوي أيضاً على دلائل واضحة جداً تشير الى أن فرعون الإضطهاد وفرعون الخروج هما شخص واحد. يأتي أول هذه الدلائل في سورة القصص. حيث تنص آيتها الكريمة الثالثة على أن ما سيلي هو سرد لقصة موسى مع فرعون، ثم تشير الآية الكريمة الى شرور «فِرْعَوْن» وجرائمه الوحشية التي أرتكبها بحق بني إسرائيل قبل ولادة موسى. ثم تستطرد السورة لتذكر تفاصيل ولادة موسى وسماح فرعون بالإبقاء على حياته، وتستمر في تتبّع القصة الى حين هروب موسى الى مدين، ثم تواصل سرد التفاصيل الى حادثة الخروج حيث تخبرنا السورة الكريمة عن غرق فرعون. وهكذا نرى أن النص القرآني واضح تماما في أنه يروي قصة موسى مع فرعون واحد تُفصّل مراحل حياته الشريرة من قبل ولادة موسى الى حين غرقه في البحر. فيما يلي الآيات الأولى من سورة القصص التي ذُكر جزء أطول منها في الفصل السادس:

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢). نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤). وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥). وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦). وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧). فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨). وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (القَصَص: ٩).

بالإضافة الى هذا فإن جزءاً من حوار موسى، بعد عودته من مدين، مع فرعون في النص القرآني يبيّن بوضوح أن هذا الفرعون هو نفسه الذي ربّى موسى في صغره:

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨). وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنْ الْكَافِرِينَ (١٩). قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنْ الضَّالِّينَ (٢٠). فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُرْسَلِينَ (٢١). وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (الشُّعَراء: ٢٢).

من الواضح أن فرعون هنا يذكّر موسى بالزمن الذي قضاه في رعايته وبحادثة قتله للمصري التي أدت الى هروبه الى مدين. ورد موسى على حجة فرعون هو بعد دليل أوضح على أنه نفس الفرعون الذي تربّى موسى في قصره. إذ رفض موسى إدعاء فرعون بأنه قد تفضّل عليه بتكفله بتنشأته، مذكّرا فرعون بأن السبب الأساسي الذي كان وراء أنتهاء الامر به الى العيش في قصر فرعون هو إستعباده لبني إسرائيل، حيث كان أحد مظاهر هذا الإستعباد منع فرعون لبني اسرائيل من مغادرة مصر وقتله مواليدهم من الذكور. وهكذا فإن الفرعون الذي إستعبد بني إسرائيل كان نفسه في السلطة عندما عاد موسى الى مصر. من المثير للأهتمام أن نجد أن إجابة فرعون على موسى، «**قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ**» (الشعراء: ١٨)، قد فُسِّرت من قبل المُفسرين **الحديثين** كالنجّار على أنها تذكرة من فرعون لموسى بأنهما عاشا طفولتهما سوية في قصر والده (النجّار، ١٩٨٦: ٢٧٨)، بينما نجد نفس هذا الرد مُفسّرا من قبل **قدماء** المفسّرين كابن كثير على أنه دليل «على أن الفرعون الذي بُعِث إليه هو الذي فر منه، خلافا لما عند أهل الكتاب،

من أن فرعون الذي فر منه مات في مدّة مقامه بمدين، وأن الذي بعث اليه فرعون آخر» (إبن كثير، ١٩٨٥: ٣١٧). من الواضح أن إبن كثير لم يجد نفسه مضطرا لتحديد ما إذا كان هذا الفرعون هو رمسيس الثاني أم إبنه مرنبتاح أو أي فرعون آخر، كما هو حال بعض المفسِّرين الحديثين، وبالتالي فإنه لم يكن لديه سبب يجبره على تقديم تفسير إعتباطي للنص القرآني.

ترد في أول حوار بين موسى والله إشارة قرآنيّة مهمّة وجليّة آخرى تؤكّد بأن الفرعون الذي أرسل الله موسى إليه هو نفس الفرعون الذي كان في السلطة عندما هرب موسى الى مدين. ويختلف هذا الحوار أيضاً بشكل مهم عن نظيره في العهد القديم. إذ لا نجد موسى في العهد القديم خائفاً من العودة الى مصر التي هرب منها، حيث يشير العهد القديم الى أن موسى فقط سأل الله «*من أنا حتى أذهب الى فرعون وحتى أخرج بني اسرائيل من مصر*» (الخروج، ٣: ١١)، وأن قلقه الأساسي كان عدم تصديق بني إسرائيل لرسالته. أما قول الرب التالي لموسى في مدين فقد كان في وقت لاحق لذلك: «*اذهب ارجع الى مصر. لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك*» (الخروج، ٤: ١٩). بتصويره موسى دون مخاوف من العودة الى مصر بالرغم مما كان قد فعل، يبدو أن كاتب العهد القديم يشير الى نص الخروج (٢: ٢٣) بأن موسى بقي في مدين لمدّة طويلة، موحيا ضمنيّاً بأن موسى كان يعتقد بأن فرعون كان قد مات خلال تلك الفترة.

خلافا لرواية العهد القديم، تنص الرواية القرآنيّة بوضوح على أن موسى كشف عن مخاوفه من مهمة الذهاب الى فرعون التي أمره الله بالقيام بها لأنه كان قد قتل مصريّا من قوم فرعون وهرب قبل بضع سنين. وخلافا لأدعاء العهد القديم، لم يسكّن الله مخاوف موسى بقوله له: «*لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك*»، ولكن بإبلاغه بأنه سيكون معه ومع أخيه هارون ليسندهما بقوة خارقة تتجاوز قوة فرعون:

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠). قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١). قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي (١٢). وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣). وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي (١٤). قَالَ كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥). فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الشُّعَراء: ١٦).

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢). قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي (٣٣). وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي (

٣٤). قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (القَصَص: ٣٥).

فالقرآن العظيم يتحدّث، بوضوح تام لا يترك أي مجال للشك، عن فرعون واحد كان في الحكم منذ وقت ولادة موسى ولغاية غرقه في البحر بعد خروج بني إسرائيل. أما الأدعاء بأن القرآن يتحدث عن فرعونين لا فرعون واحد فلا أساس له من الصحة و لايُمثّل سوى سوء فهم كامل للنص القرآني المُبين.

تشير كل من الآية ١٥ من سورة الشعراء والآية ٣٥ من سورة القصص الى حقيقة غاية في الأهميّة يجب التأكيد عليها قبل الاستمرار وذلك لأهميتها الأساسية في فهم تطوّر الأحداث في قصة صراع موسى ضد فرعون. إذ تشير هذه القصة ضمنيًا في مختلف مراحلها إلى أن فرعون كان غير قادر على إلحاق الأذى بموسى، الامر الذي جعله يوجّه عدوانيّته نحو بني إسرائيل. إن سبب هذا لم يكن **عجز فرعون** ولكن **مناعة موسى**. لا يوجد هنالك تفسير طبيعي لهذه المناعة التي تمتع بها موسى، إذ أنها كانت هبة إلهيّة خالصة مثلها مثل معجزات عصاه التي حدثت بتدخّل إلهي والتي لا يمكن تفسيرها طبيعيا. بالاضافة الى الآية ١٥ من سورة الشعراء والآية ٣٥ من سورة القصص، تشير الآية ٤٦ من سورة طه والآية ٢٧ من سورة غافر أيضا الى الاصل الإلهي لمناعة موسى وهارون:

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢). اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣). فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤). قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥). قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (طه: ٤٦).

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦). وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (غافِر: ٢٧).

٧-٣ فرعون ذو حكم طويل

إن حقيقة أن القرآن يتحدث عن فرعون واحد حكم مصر من قبل ولادة موسى الى خروج بني إسرائيل تقود، عند جمعها مع تفاصيل أخرى للرواية القرآنيّة لقصة موسى، الى إستنتاج هام جداً حول طول حكم هذا الفرعون وبالنهاية حول هويّته. آخذين بنظر الاعتبار أن فرعون كان في الحكم

وقت ولادة موسى وأنه مات أثناء مطاردته له، من الممكن إذا حساب مدّة حكم هذا الفرعون من جمع الفترات التالية: (أ) عدد سنوات حكم فرعون قبل ولادة موسى؛ (ب) عمر موسى عند هربه من مصر الى مدين؛ (ج) عدد سنوات بقاء موسى في مدين؛ وأخيراً (د) مدّة إقامة موسى الثانية في مصر بعد عودته من مدين. لنرى إذا أية آيات تمكّننا من حساب ذلك وإلى أية دقة.

أولا، لا يحدد القرآن سنة حكم فرعون التي شهدت ولادة موسى، مما يعني بأننا نستطيع فقط حساب **الحد الأدنى** لعدد سنين حكم فرعون.

ثانياً، من الممكن بناء بعض الاستنتاجات حول مدّة عيش موسى في مصر قبل مغادرته الى مدين من الآية التالية التي تصف موسى حين كان لايزال في مصر: «**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**» (القَصَص: ١٤). أختلف المفسِّرون في تعيينهم للعمر الذي يشير اليه التعبير القرآني «**لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ**» والذي ورد بصيغ مختلفة في ثماني آيات قرآنيّة. لقد تباينت آراء المفسِّرين بشكل كبير حول هذا الموضوع، إذ بينما يقترح البعض بأن هذا التعبير القرآني يشير الى سن البلوغ، يرى مفسِّرون أخرون بأنه يشير الى عمر أكبر بكثير يصل عند بعضهم الى ٦٠ عاماً (أنظر على سبيل المثال التفاسير المختلفة للآيات التالية في كتب التفسير الكلاسيكية للقرطبي وإبن كثير والجلالين). أما عن إقتراح بعض المفسِّرين بأنّ هذا التعبير يشير الى سن محدّد بالضبط فلا سند له بل يدحضه النص القرآني، كما سنرى عندما ندرس المواضع الثمانية التي وردت فيها هذه العبارة في القرآن الكريم.

تحتوي إثنتان من هذه الآيات الثمانية على الجملة التالية: «**وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ**» (الأنعَام: من ١٥٢؛ الإسراء: من ٣٤). إن معنى «**يَبْلُغَ أَشُدَّهُ**» في هاتين الآيتين اللتين تبيّنان موعد تسليم اليتيم موروثه من مال يصبح واضحاً عندما مُقارنته بالآية التالية التي تتحدث عن الموضوع نفسه مستخدمةً تعابير مختلفة: «**وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا**» (النِّسَاء: من ٦). هنالك نقطة هامة تجدر ملاحظتها هنا وهي أنه عندما تذكر الآية الكريمة سن البلوغ فإنها تستطرد لتربط به شرط آخر هو الرُشد أو النضوج الفكري. يتّضح من هذا أن تعبير «**بَلَغَ أَشُدَّهُ**» الذي ورد في الآيتين ١٥٢ من سورة الأنعام و ٣٤ من سورة الإسراء يشير الى عمر بعد سن البلوغ حين يصبح فيه المرء قادرا على إتّخاذ قرارات سليمة ومسؤولة بشأن أموره. بعبارة اخرى، إن تعبير «**بَلَغَ أَشُدَّهُ**» في الآيتين أعلاه يشير الى عمر معين لا يحدد البلوغ الجسدي فقط وإنما النضوج العقلي أيضاً. تشير الآية الكريمة التالية، التي تتحدث أيضاً عن الأيتام، الى تعريف مشابه لتعبير «**بَلَغَ**

أَشُدَّهُ»: «وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» (الكهف: من ٨٢).

إذن تبيّن الآيات الكريمة أعلاه حول عمر بدء الأيتام بإدارة ميراثهم بأنفسهم بأن تعبير «بَلَغَ أَشُدَّهُ» يشير إلى العمر الذي يصل فيه المرء الى النضوج الجسمي والفكري. من الجلي أن هذا العمر ليس ثابتا لكل الناس وإنما يتغير قليلا من شخص لآخر.

أما الآيتان الكريمتان التاليتان فلا تحددان العمر الذي يمثّله تعبير «بَلَغَ أَشُدَّهُ» ولكن تشيران إلى طول طور الحياة الذي يكون الانسان خلاله بالغ لأشدّه:

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ (غافر: من ٦٧).

وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ (الحج: من ٥).

تقسّم هاتان الآيتان بوضوح عمر الإنسان منذ تشكّله في جنين أمّه الى أربع مراحل: مرحلة الجنين في الرحم، ثم الطفولة، ثم الفترة التي يكون فيه على أشدّه، وأخيرا الشيخوخة. بعبارة أخرى، يغطي مدى العمر الذي يشير اليه تعبير «بَلَغَ أَشُدَّهُ» من وقت البلوغ الجسدي والعقلي للأنسان الى الوقت الذي تبدأ فيه قدرته الجسدية، وربما العقلية أيضاً، بالتدهور.

فيما يلي الآية السادسة التي يرد فيها تعبير «بَلَغَ أَشُدَّهُ»: «وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ» (الأحقاف: من ١٥). فَهِم بعض المفسِّرين من هذه الآية الكريمة أن بلوغ الانسان أشدّه يحدث في سن الأربعين. إلا ان هذا التفسير في الواقع غير صحيح. إن إختصاص عمر الأربعين عاما بالذكر في هذه الآية الكريمة له سبب مختلف تماما إلا انّه يقع ضمن مرحلة حياة الإنسان التي يكون فيها على اشدّه. فلا يوجد سبب إذن للقول بأن التعريف الواضح لعمر بلوغ الاشد في الآيات الكريمة أعلاه عن الأيتام يختلف في سياقات أخرى، ومعدّل هذا العمر، بناءا على ما تقدّم شرحه، يتراوح عادة بين ١٦-١٨ سنة.

إنّ هدفنا الأساسي من دراسة العمر الذي يمثّله التعبير القرآني «بَلَغَ أَشُدَّهُ» هو فهم معناه في الآية ١٤ من سورة القصص حول موسى. ويمكن إلقاء المزيد من الضوء على عمر موسى الذي

تشير اليه هذه الآية الكريمة بمقارنتها مع آية أخرى شبيهة عن النبي يوسف نوردها فيما يلي مع الآيات التي تسبقها والتي تليها. بعد سرده لبعض تفاصيل قصة يوسف وإخبارنا أن أخوة يوسف رموه في البئر، يستطرد كتاب الله العزيز قائلا:

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩). وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠). وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢١). وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢). وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣). وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (يُوسُف: ٢٤).

سبق وأن رأينا في القسم ٥-٢ بأنّه لابد أنّ يوسف كان صغيرا عندما ألقاه أخوته في البئر، وذلك لأنه عندما حاول أخوته إقناع أباهم بالسماح لهم بإصطحاب يوسف أدعوا أنهم سيأخذوه لـــ «يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ» (يوسف: ١٢). وتتّضح هذه الحقيقة أيضاً من أنّ المسافر الذي عثر على يوسف في البئر إشار اليه بكلمة «غُلام» (يوسف: ١٩). وردت كلمة غُلام إثنتا عشرة مرة في القرآن الكريم، مرة واحدة في سورة يوسف وإحدى عشرة مرة في الآيات الكريمة التالية (آل عمران: ٤٠؛ الحِجر: ٥٣؛ الكهف: ٧٤، ٨٠ و ٨٢؛ مريم: ٧، ٨، ١٩، ٢٠؛ الصافات: ١٠١؛ الذاريات: ٢٨). وكلمة غُلام في كل هذه الآيات تعني الولد الصغير. إذاً كان يوسف ولدا صغيرا عندما عثر عليه المسافرون ومن ثم أشتراه سيده المصري. ثم تُبيّن الآية ٢١ من سورة يوسف مرور مدّة غير محددة من الزمن حتى «بَلَغَ أَشُدَّهُ» وهي المرحلة التي منحه فيها الله «حُكْمًا وَعِلْمًا» (يوسف: من ٢٢). تلي هذه الآية مباشرة آيات تتحدث عن محاولة زوجة سيّده إغواءه. وهنا أيضاً يعني بلوغ الاشد النضوج الجسدي والعقلي، إضافة الى ما يمكن تسميته بالنضوج الروحي. لذلك فإن إستنتاجنا السابق بأن تعبير «بَلَغَ أَشُدَّهُ» يشير الى عمر يتراوح بين ١٦-١٨ سنة هو بالتأكيد متوافق مع الآية ٢١ من سورة يوسف أيضا.

لنقارن أخيرا الآية ٢٢ من سورة يوسف بالآية التي تشابهها، وإن كانت لا تطابقها تماما، عن موسى:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (يوسُف: ٢٢).

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (القَصَص: ١٤).

إن الفرق الوحيد بين الآيتين هو أن الله منح يوسف «حُكْمًا وَعِلْمًا» عندما «بَلَغَ أَشُدَّهُ» بينما منح موسى «حُكْمًا وَعِلْمًا» عندما «بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى». بغض النظر عن المعنى الدقيق لكلمة «وَاسْتَوَى»، وهو امر اختلف المفسِّرون حوله، لابد أن هذه الكلمة تشير الى مرحلة لاحقة لبلوغ موسى أشده. إن السياق الذي جاءت فيه كلمة «وَاسْتَوَى» يعني ضمنيّا بأنها تشير الى تطور روحي/نفسي وليس جسدي. بينما أختلف المفسِّرون بشأن العمر المضبوط الذي يشير اليه تعبير «بَلَغَ أَشُدَّهُ» فقد أتّفقوا تقريبا على أن العمر الذي تشير اليه كلمة «وَاسْتَوَى» هو سن الأربعين. يبدو أن هذا التفسير مُشتَقّ من تشبيه الآية أعلاه عن موسى مع الآية ١٥ من سورة الأحقاف التي تنص على «حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً». في الواقع لا يوجد هناك دليل على صحة هذا التطابق. إن ما يمكن إستنتاجه هنا هو ان ذكر الحالة التي تشير اليها كلمة «وَاسْتَوَى» كحالة متميّزة لابد وان يشير إلى انها مرحلة لاحقة لبلوغ الاشد. لذلك، آخذين بنظر الاعتبار اللادقة المُتضمِّنة في الحسابات، فإن المدى ٢٠-٢٢ سنة يمكن ان يكون تخمينا موثوقا لعمر موسى الذي يشير اليه القرآن العظيم بعبارة «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى».

بعد أن خمّنا عمر موسى عندما منحه الله «حُكْمًا وَعِلْمًا»، يجب ملاحظة عدم وجود مبرّر للأعتقاد بأن مغادرة موسى لمصر جاءت مباشرة بعد منحه «حُكْمًا وَعِلْمًا». أما تفاصيل الأحداث التي أدت الى هروب موسى من مصر الى مدين والتي تفيدنا في نقاشنا الحالي فقد وردت في سورة واحدة فقط:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤). وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥). قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦). قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧). فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨). فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ

الْمُصْلِحِينَ (١٩). وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠). فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (القَصَص: ٢١).

بينما يتّضح من النص القرآني أعلاه أن موسى ترك مدين بعد قتله لعدوه المصري مباشرة، ليست هنالك إشارة واضحة عن المدّة التي مرّت بين منحه «حُكْمًا وَعِلْمًا» وبين قتله لذلك الشخص. ولابد أن نتذكّر هنا أن الفترة التي تفصل بين حَدَثين مذكورين على التوالي في نص قرآني يمكن ان تكون طويلة او قصيرة. إلا اننا لن نزيد تخميننا الحذِر لعمر موسى بـ ٢٠-٢٢ سنة عندما مُنِح «حُكْمًا وَعِلْمًا»، ولكننا سنعتبره **الحد الأدنى** لعمره في وقت هروبه من مصر.

أما المدّة التي قضاها موسى في مدين فقد ذُكرت بوضوح في القرآن. فيما يلي الآيات التي تصف الإتفاق الذي تم بين موسى ووالد زوجته:

قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَةَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧). قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨). فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (القَصَص: ٢٩).

بينما تنص الآية ٢٩ من سورة القصص على أن موسى غادر مدين فور إنتهاء مدّة الإتفاق مع والد زوجته فإنها لا تحدّد أي الأجلين قضى موسى. إلا أن صفات موسى النبيلة وكرم أخلاقه وإستعداده لتقديم المساعدة حتى لمن لا يعرف من الناس ومن دون مقابل، كما في مساعدته للفتاتين اللاتي تزوج بعد ذلك من إحداهما، ترجّح إحتمال تطوعه للعمل لوالد زوجته تلك السنتين الإضافيتين. ولكن لما كنّا لا نستطيع ان نؤكد بثقة مطلقة بأن موسى لم يضطر للمغادرة بعد فترة قصيرة من إكماله للسنين الثماني لسبب ما فإن من الأفضل أختيار ٨-١٠ سنوات مدّة لبقاءه في مدين حيث يشمل هذا المدى كل الاحتمالات.

تعني التقديرات أعلاه بأنه عندما غادر موسى مدين، وبالتالي عندما كلّمه الله لأول مرة وأمره بالعودة الى مصر، كان عمره (٢٠-٢٢) + (٨-١٠) والذي يساوي ٢٨-٣٢ سنة. ولا يتضمن هذا

التقدير المدّة المنقضية بين منحه «حُكْمًا وَعِلْمًا» وبين هروبه من مصر الى مدين وهي مدّة غير معروفة. أما آخر مقدار يجب إضافته الى الحسابات أعلاه فهو مدّة إقامة موسى الثانية في مصر، أي المدّة بين عودته من مدين الى الخروج. ولكن قبل مراجعة النصوص القرآنيّة حول هذا الموضوع، لنراجع بإيجاز رواية العهد القديم لهذه الأحداث.

ينص العهد القديم صراحة على أن موسى كان له من العمر ثمانين عاما حين عاد الى مصر (الخروج، ٧: ٧) ومئة وعشرين سنة عندما توفى (التثنية، ٣٤: ٧). كما ينص على أن الاربعين سنة التي قضاها بنو إسرائيل في التيه انتهت بعد وفاة موسى مباشرة حيث عبروا نهر الأردن الى الأرض المقدسة تحت قيادة يوشع مساعد موسى (يوشع، ١: ١). إذا لابد أن نستنتج بأن إقامة موسى الثانية في مصر وكفاحه ضد الفرعون الثاني أستغرقا مدة تقل عن السنة. وفعلا توحي رواية العهد القديم بأن الأحداث المختلفة في المواجهة بين موسى وفرعون، بما فيها الكوارث العشرة، توالت في الحدوث واحدة بعد الأخرى بفترة قصيرة.

لا يوجد ذكر صريح في القرآن الكريم لمدّة إقامة موسى الثانية في مصر. إلا ان هناك عدداً من الآيات التي تساعد في تقدير طول تلك المدّة:

وَقَالَ الْمَلأ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧). قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨). قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩). وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠). فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١). وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢). فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣). وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤). فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥). فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (الأَعْرَاف: ١٣٦).

هناك عدد من التلميحات في الآيات أعلاه الى أن إقامة موسى الثانية في مصر أستمرّت مدّة

طويلة من الزمن تُقدَّر بسنوات. هنالك أولاً شكوى بني إسرائيل الى موسى بأنهم كان يؤذون بعد مجيئه اليهم بالرسالة مثلما كان حالهم قبلها، ونصح موسى لهم بالصبر (الأعراف: ١٢٩). ثانياً، إنّ الإشارة الى «سِّنِينَ»، اي عدة مواسم جفاف، تعني ضمنيًا مرور عدد من السنين. كما تعني الآية ١٣١ من سورة الأعراف ضمنياً بأن المصائب التي حلت، «بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنْ الثَّمَرَاتِ»، لم تحصل في سنوات متعاقبة. فقد مرّت على قوم فرعون مواسم مختلفة كان حظهم فيها أحيانا عاثراً واخرى حسناً، فكانوا يرون في ما يأيتهم من خير نعمة يستحقونها بينما كانوا يتّهمون موسى وأتباعه بأنهم مصدر سوء الطالع كلما حلّت بهم مصيبة من الله. ثالثاً، يذكر القرآن بوضوح أن كل هذا حصل قبل أن تحل مجموعة الكوارث على قوم فرعون. لابد أن الكوارث (الأعراف: ١٣٣) أمتدّت هي الاخرى على طول فترة من الزمن. فكارثة مثل الطوفان أو هجوم أسراب جراد تترك أثارا لعدة أشهر. لذلك يمكن تقدير فترة بقاء موسى الثانية في مصر بـــ ٨-١٠ سنوات.

هناك آيات أخرى تبيّن ضمنياً بأن موسى بقي لمدّة طويلة نسبيّاً في مصر بعد عودته من مدين. بعد رواية تفاصيل اللقاء بين موسى والسحرة الذين جمعهم فرعون للتنافس مع موسى، يستطرد القرآن كما يلي:

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الْمُسْرِفِينَ (٨٣). وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤). فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥). وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنْ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦). وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ (يُونُس: ٨٧).

أما تفسير أمر الله لموسى وهارون في الآية ٨٧ من سورة يونس، «**تَبَوَّأَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً**»، فسيُناقَش في القسم ٨-١. إلا ان ما ينبغي التنويه اليه هنا هو أن الأمر الإلهي الى موسى وهارون بإتّخاذ بيوت في مصر ليقيموا فيها يعني بأنهما أقاما مدّة طويلة في مصر، بالتأكيد بضع سنين، قبل الخروج منها مع بني إسرائيل.

لنلخّص الآن حساباتنا لتقدير مدّة حكم ذلك الفرعون. أولاً، كانت قد مرت على فرعون فترة لا نعلم طولها وهو في الحكم عندما ولد موسى، ولذلك فإن تقديرنا سيكون **للعدد الادنى** لسنين حكمه. ثانياً، كان عمر موسى حوالي ٢٠-٢٢ سنة حين كان لا يزال في مصر، وهو تقريبا عمره حين

منحه الله «حُكْمًا وَعِلْمًا». ثالثاً، لا ندري كم مضى من الوقت بعد ذلك الى حين قتل موسى لعدوّه المصري وفراره الى مدين. رابعاً، عاش موسى في مدين ٨-١٠ سنوات. خامساً، بقي موسى في مصر ٨-١٠ سنوات بعد عودته إليها من مدين.

هكذا يصبح واضحاً تماماً أن القرآن يشير ضمنياً إلى أن الفرعون الذي كان في السلطة عندما ولد موسى والذي قاد بعد سنين جيشه لمطاردة موسى وبني إسرائيل لابد وان يكون قد حكم مدّة طويلة جدا، ٣٦-٤٠ سنة على الأقل. في الحقيقة إن هذا تقدير حذر وأقل من الرقم الحقيقي. إذ من شبه المؤكد أن ولادة موسى لم تكن في نفس سنة إعتلاء فرعون العرش بل على الاقل بضع سنين بعد ذلك. لذلك يمكن الاستنتاج بثقة أن فرعون الخروج حكم ما لا يقل عن أربعين عاماً.

إن لهذا الإستنتاج أهميّة كبيرة لأنه يمكن أن يساعد في تحديد هوية هذا الفرعون، ذلك أن عدداً قليلا جداً من الفراعنة يمكن ان يكونوا قد حكموا مثل هذه المدّة الطويلة جدا في تاريخ مصر الفرعونية. في الواقع، خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق.م، وهي الفترة التي يتفق فيها معظم الباحثين على حصول الخروج فيها، وربّما حتى خلال الألف الثاني ق.م كله، كان هنالك فرعونان فقط حكما لمدّة تزيد على ٤٠ عاماً. هذان الفرعونان هما توتحمس الثالث (١٥٠٤-١٤٥٠ ق.م) ورمسيس الثاني (١٢٧٩-١٢١٢ ق.م)[٣٧]. أما الفرعون الذي يلي هذين الفرعونين في حكمه لأطول فترة خلال النصف الثاني من الألف الثاني ق.م فكان على الارجح أمنحوتب الثالث (١٣٨٦-١٣٤٩ ق.م) الذي حكم لمدّة ٣٧ سنة، وهي فترة أقصر من أن تجعله مُرشَّحا لأن يكون فرعون الخروج. لندرس الآن حالة توتحمس الثالث.

كان توتحمس الثالث لا يزال طفلا حين أعتلى عرش مصر بعد وفاة أبيه توتحمس الثاني (١٥١٨-١٥٠٤ ق.م) ليصبح الفرعون الخامس في السلالة الثامنة عشرة. فتولّت زوجة أبيه وعمّته الملكة حتشبسوت في البداية الوصاية على الفرعون الصغير. إلا انه قبل أن تنتهي السنة الأولى من حكم الفرعون الصغير كانت حتشبسوت قد بدأت العمل على تقويض مكانة الطفل لكي تغتصب العرش. وفعلا زادت من سطوتها على الحكم تاركة الفرعون الحقيقي بعيدا عن الأضواء. لذلك فإن توتحمس الثالث لم يبدأ بالتصرّف كالحاكم الحقيقي والمطلق إلا بعد وفاة حتشبسوت في ١٤٨٣ ق.م، مما يعني بأنه كان الفرعون الفعلي لمدّة ٣٣ سنة فقط، وبالتالي فلا يمكن أن يكون توتحمس الثالث هو الفرعون الذي تحدّث عنه القرآن والذي كان الحاكم المطلق لـــ ٤٠ سنة على أقل تقدير. لذلك

---

[37] إن التواريخ المقابلة لهذه حسب الجدول الزمني لكينيث كيتشن هي: ١٤٧٩-١٤٢٥ و ١٢٧٩-١٢١٣ ق.م (Kitchen, 1982: 238-239).

نستطيع الأستنتاج بثقة بأن القرآن العظيم قد شخّص رمسيس الثاني بأنه فرعون الإضطهاد والخروج، إذ لم يحكم أي فرعون آخر ضمن تلك الحقبة الزمنية مدّة هي من الطول بحيث تتّفق مع النص القرآني. من الضروري التأكيد هنا على أن هذا الإستنتاج لم يستند الى أية بيانات من العهد القديم بل أعتمد كليّا على آيات قرآنيّة كريمة. كما تقدّم ذكره في القسم ٢-٣، يدّعي العهد القديم بأن فرعون الإضطهاد هو غير فرعون الخروج، وهو إدّعاء يعني ضمنياً بأن فرعون الخروج هو مرنبتاح.

من الواضح إذن أن إقتراح كل من النجّار (١٩٨٦) وبوكاي (Bucaille, 1995) بأن القرآن الكريم يشير ضمنيّاً الى أن فرعون الخروج هو مرنبتاح هو إقتراح خاطيء تماماً. إن إستنتاج هذين الكاتبين غير مبني على الرواية القرآنيّة فقط بل على خلط غير مُبرَّر للرواية القرآنيّة ورواية العهد القديم.

ينصّ القرآن الكريم صراحة على غرق فرعون أثناء ملاحقته لبني إسرائيل الهاربين، كما يشير ضمنيّاً، كما شاهدنا، إلى أن فرعون الخروج هو رمسيس الثاني. إن هذا يعني بأن رمسيس الثاني مات غرقاً وأن تاريخ الخروج المضبوط هو عام ١٢١٢ ق.م الذي هو تاريخ وفاة رمسيس الثاني. إن هذا بدوره يمكّننا من تقدير طول مدّة بقاء بني إسرائيل في مصر. لما كان دخول النبي يعقوب الى مصر في حوالي عام ١٦٤٣ ق.م (أنظر القسم ٥-٢)، فإن بقاء بني إسرائيل في مصر إذا دام حوالي ٤٣٠ سنة وهو نفس الرقم الوارد في العهد القديم (الخروج، ١٢: ٤٠-٤١)! من الواضح أن على المرء أن لا يبالغ في إستخراج دلالات من هذا التوافق لأن تاريخ دخول يعقوب الى مصر هو تاريخ تقريبي فقط. إلا أن ما يمكن إستنتاجه من هذا التوافق لرقم العهد القديم مع الحسابات القرآنيّة هو أن الرقم ٤٣٠ الوارد في العهد القديم لا يبتعد كثيرا عن الرقم الحقيقي.

٧-٣ فرعون ذو الأوتاد

يقدّم القرآن العظيم في آيتين كريمتين وصفا فريدا آخر لفرعون يمكن أيضاً البرهنة على إنطباقه بصورة خاصة على رمسيس الثاني، وهو لقب «ذُو الأَوْتَادِ». وفيما يلي هاتين الآيتين الكريمتين مع بعض الآيات الكريمة التي تسبقهما وتليهما والتي تساعد في فهم معنى تلك العبارة القرآنيّة:

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ (١٠). جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنْ الأَحْزَابِ (١١). كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢). وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ

أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ (ص: ١٣).

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦). إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧). الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨). وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩). وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠). الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١). فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢). فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (الفَجْر: ١٣).

أختلف المفسِّرون حول معنى «**ذُو الأَوْتَادِ**» لأن كلمة «**الأَوْتَادِ**»، وهي جمع كلمة «وتد»، لها عدد من المعاني المختلفة. من التفسيرات التي أُقترحت لكلمة «**الأَوْتَادِ**» هو «القوة والبطش»، كما نقل القرطبي في تفسيره عن الضحّاك، لأن فرعون كان طاغية وعنيف، وكذلك «جنود»، لأنه كان يمتلك جيشاً كبيراً. إلا أن الرأي الذي أستقطب إجماعا أكثر هو أنّ هذه الكنية تشير الى الأسافين أو المسامير التي كان يستخدمها فرعون في صلب الناس، بما فيهم أولئك الذين تحوّلوا الى دين موسى، مثل السحرة:

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠). قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (طه: ٧١).

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦). قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧). رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨). قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (الشُّعَراء: ٤٩).

وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠). قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١). رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢). قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣). لأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (الأَعْراف: ١٢٤).

من الواضح إذا أنّ القرآن يشير **ضمنياً** فعلا الى إستخدام فرعون للأوتاد في تعذيب من آمن بموسى، ذلك أن الصلب لابد وان يتم بإستخدام مثل هذه الأدوات. ولكن عند إستخدامها **صراحة** في القرآن الكريم، بما في ذلك استخدامها في عبارة «**وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ**»، فإن لكلمة «**الأَوْتَادِ**» معنى مختلف تماما. إن أصل هذا الخلط في معنى كلمة «**الأَوْتَادِ**» الذي وقع فيه المفسِّرون يعود على

الأقل جزئياً الى فشلهم في ملاحظة الفرق الدقيق بين كلمتي «جِبَالَ» و «رَوَاسِيَ» المستخدمتين في القرآن الكريم للإشارة الى الجبال. إنّ هذا يتطلب بعض التفصيل.

هناك تسع آيات تنص، مستخدمة تعابيرا مختلفة، على أنّ الله خلق على الأرض «رَوَاسِيَ» (الرعد: ٣؛ الحِجْر: ١٩؛ النحل: ١٥؛ الأنبياء: ٣١؛ النمل: ٦١؛ لقمان: ١٠؛ فصلت: ١٠؛ ق: ٧؛ المرسلات: ٢٧). فيما يلي مثال من هذه المجموعة من الآيات الكريمة: «**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا**» (الرَّعْد: من ٣). تخبرنا ثلاث من هذه الآيات التسعة (الحِجر: ٦؛ الأنبياء: ٣١؛ لقمان: ١٠) بأن وظيفة هذه الرواسي هي منع الأرض من الميد، اي الإهتزاز أو الإرتجاف، كما في المثال التالي: «**وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ**» (الأَنبيَاء: من ٣١). من جهة أخرى، هنالك هذه الآية الكريمة التي توصَف فيها «**الجِبَالَ**» بأنها «**أَوْتَاد**»: «**أَلَمْ نَجْعَلْ الاَرْضَ مِهَادًا (٦). وَالجِبَالَ أَوْتَادًا (٧). وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨)**» (النَّبأ: ٦-٨).

إن ربط المفسِّرين الخاطيء بين الآية السابعة من سورة النبأ والآيات التي تنص على أن الرواسي تمنع الأرض من أن تميد قادهم الى إستنتاجهم الخاطيء بأن كلمة «**أَوْتَاد**» تشير الى ما يجعل الأرض ثابتة. ولكن من المهم ملاحظة أنّه في كل الآيات الكريمة التي تذكر دور الجبال في منع الارض من أن تميد يستخدم القرآن العظيم كلمة «رَوَاسِيَ» ولا توجد آية واحدة تصف الرواسي بكونها أوتاد. كما أن القرآن لا يستخدم كلمة «جبال» عند الحديث عن الظاهرة اعلاه، على الرغم من تكرّر كلمة «جبال» مرات كثيرة في القرآن العظيم في سياقات أُخرى. إجمالاً، لا يوجد أي دليل على الإطلاق يوحي بأن الحقيقة القرآنيّة بأن الله جعل «**الجِبَالَ أَوْتَادًا**» هي شكل أخر من أشكال الإشارة إلى تسخير الله للجبال في تثبيت الأرض. لقد نتج الدليل المُزيَّف الذي توهّم الكثيرون وجوده من المساواة بين معاني آيات هي في الحقيقة مختلفة تماما. ولكن ما معنى كلمة «**أَوْتَاد**» إذا؟

من الممكن تحديد معنى كلمة «**أَوْتَاد**» في الآية ٧ من سورة النبأ، حيث ترد كوصف لكلمة «**الجِبَالَ**»، بيقين بالرجوع الى مجموعة أخرى من الآيات التي تستخدم كلمة «**الجِبَالَ**» والمشابهة للآيتين ٦ و ٧ من سورة النبأ في كونها تذكرة بخلق الله للأرض والجبال: «**أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧). وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨). وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩). وَإِلَى الاَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)**» (الغَاشِيَة: ١٧-٢٠). من بين ما تمثلّه هذه الآيات الكريمة هو أنّها تذكرة برَفْع الله للسماء عالية وتسَطيحه للأرض ونَصبَه الجبال. وكذلك تفعل الآيتان ٦-٧ من سورة النبأ التي تذكّر الناس **بالتباين** الجغرافي لخلق الله، وعلى وجه الخصوص خلق أرض **منبسطة** وجبال **شاهقة**. من الواضح إذن أن الآيتين ١٩ و ٢٠ من سورة الغاشية تناظران على التوالي الآيتين ٧ و ٦ من سورة

النبأ وليس الآيات التي تصف الجبال كمُثبّتات للأرض. بعبارة اخرى، إن جعل «**الْجِبَالَ أَوْتَادًا**» و «نصب الجبال» هما عبارتان مختلفتان تشيران الى الشيء نفسه. وهكذا نستطيع الإستنتاج إذن بأن كلمة «**أَوْتَاد**» تشير الى **البنايات العالية**، على خلاف الأرض المنبسطة.

في الحقيقة أن سياق إحدى الآيتين اللتين وردت فيهما عبارة «**فِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ**» يسند بقوة هذا التفسير لكلمة «**أَوْتَاد**»:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦). إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧). الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨). وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩). وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠). الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١). فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢). فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (الفَجْر: ١٣).

تُذَكِّر هذه المجموعة من الآيات الناس أولاً بقوم عاد الذين دأبوا على بناء أعمدة عالية، ثم بقوم ثمود الذين كانوا يشقّون الصخور في الوادي لبناء البيوت[٣٨]، وأخيراً بـــ «**فِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ**». إن فهم «**أَوْتَاد**» على أنها تشير الى أدوات كان يستخدمها فرعون في صلب الناس يجعل من «**فِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ**» عبارة لا محل لها في سياق المجموعة أعلاه من الآيات الكريمة. على العكس من هذا، إن فهم «**الأَوْتَادِ**» هنا على أنها إشارة الى **مباني كبيرة وعالية** يجعل الربط بين الآيات أعلاه واضح جدا كونها جميعا تصف أناسا مُفسِدين أعتادوا بناء المباني الضخمة والأمينة قبل أن يحلّ عليهم غضب الله ويفنيهم. من الجدير بالذكر أن القرطبي في تفسيره التقليدي للقرآن العظيم يبدأ جرده لعدد من التفاسير المختلفة لكلمة «**أَوْتَاد**» في عبارة «**فِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ**» بذكر تفسير إبن عباس لهذه العبارة بأنها تعني «ذو البناء المُحكَم» ثم تفسير الضحّاك الذي قال: «كان كثير البنيان، والبنيان يُسمّى أوتادا» (أنظر تفسير القرطبي للآية ١٢ من سورة ص).

إن وصف القرآن الكريم لفرعون بـــ «ذي المباني» هو أدق ما يمكن ان يوصف به هذا

---

[38] كما يتّضح أيضا من الآيات التالية التي يتحدث فيها النبي صالح الى قومه الثموديّين:

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (الأَعْراف: ٧٤).

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦). فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧). وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨). وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (الشُّعَراء: ١٤٩).

الفرعون، لأن هذا هو بالضبط ما ميّز رمسيس الثاني عن باقي الفراعنة. إذ إنشغل هذا الفرعون بمشاريع البناء أكثر من أي فرعون آخر في تاريخ مصر الفرعونية. حيث بنى رمسيس الثاني تماثيلا ضخمة ومعابد في طول مصر وعرضها. كـ «مشيّد المباني»، كما يصفه كلايتون، «يبرز رمسيس الثاني بشكل استثنائي بين فراعنة مصر. رغم أن خوفو شيَّد الهرم الأكبر فإن يد رمسيس الثاني تمتد على طول البلاد». ثم يستطرد كلايتون قائلاً عن رمسيس الثاني:

> كانت أنجازاته البنائية الأصيلة بقياسات هرقلية. فقد أضاف معابد الى معابد الكرنك والأقصر الضخمة، وأكمل المعبد-القبر لوالده سيتي في غورنا (طيبة) وكذلك معبده في أبيدوس، كما بنى معبده الخاص قرب أبيدوس. وبنى على الضفة الغربية في طيبة معبد-مدفن ضخم، هو الرميسيوم. هنالك كتابات في مقلع الصخور في جبل السلسلة تشير الى إستخدام أكثر من ٣٠٠٠ عامل هناك في قطع الصخور للرميسيوم فقط. كما بُنِيت معابد-قبور في النوبة عند بيت الوالي، وجرف حسين، ووادي السيبوة، ودير، وحتى في أقصى الجنوب عند ناباطا (Clayton, 1994: 153).

في مجمل تعليقه على تسلّط هاجس البناء على رمسيس الثاني، يلاحظ كيتشن أنه «لم يرغب فقط في البناء على أضخم مقياس - كما في رميسيوم والأقصر وأبي سنبل وروائع باي-رمسيس المندثرة الآن- بل على أكبر مساحة ممكنة مع مر السنين». ويضيف كيتشن «في المباني التي شيّدها للآلهة على طول مصر والنوبة، لم يتجاوز رمسيس الثاني إنجازات السلالة الثامنة عشرة فقط ولكن بالتأكيد كل مرحلة أخرى من التاريخ المصري. في ذلك المجال، حقّق رمسيس الثاني بالتأكيد أهداف السلالة في التشبّع» (Kitchen, 1982: 225).

هكذا نرى بوضوح سبب وصف القرآن الكريم لرمسيس الثاني بـــ «**فِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَاد**».

من الجدير بالذكر أن ورود عبارة «**فِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَاد**» مع ذكر ثمود الذين بنوا بيوتا في الجبال قد يوحي بأن تلك العبارة تشير ضمنيّاً الى معبدي أبي سمبل في النوبة الذَين حُفرا في صخور سفح الجبل. أول هذين المعبدين، ويعرف بـــ «المعبد الكبير»، بناء ضخم فيه زوجين من التماثيل الضخمة لرمسيس الثاني جالساً إرتفاعها ١٨ متراً تحيط بجانبي مدخل المعبد. تعد هذه المعابد أكبر إنجازات رمسيس الثاني البنائية.

إن تفسير عبارة «**فِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَاد**» بأنّها إشارة الى إنهماك فرعون الشديد بالبناء، لتقديس آلهته ونفسه، يدعمه ما جاء على لِسان زوجة فرعون في الآية الكريمة التالية: «**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي**

مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (التحريم: ١١). يشير الشيخ عبد القادر الكيلاني (١٠٧٧-١١٦٥ م) الى أن فرعون صلب زوجته التي رفضت دين زوجها وآمنت بالله الواحد، مفسِّرا هذه الآية الكريمة كما يلي:

> عذبهـــا فرعون بأنواع العذاب ثم جعل في يديها ورجليها اوتاد الحديد فكُشف عن بصرها وفُتحت لها ابواب السماء فرأت الجنة وما فيها ورأت الملائكة وهي تبني لها بيتاً في الجنة فقالت «**رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**». فقيل لها هذا لك فضحكت، فقال فرعون ألم أقل لكم انها مجنونة أما ترونها كيف تضحك وهي في العذاب (الكيلاني، ١٩٨٩: ٢٩).

من الملاحظات المهمة هو عدم ورود مثل هذا الدعاء في القرآن الكريم على لسان أي شخص آخر. كما أن الملاحظة الاخرى التي لا تقل أهميّة هو ربط زوجة فرعون في دعائها لله بناء بيت لها في الجنة بتخليصها من فرعون. وبعد أن توضّح معنى عبارة «**فِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَاد**»، أصبح من الجلي أنّ دعاء زوجة فرعون لله «**رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**» إنما يشير الى أنها برفضها لدين زوجها فإن من بين ما رفضته من مغريات الحياة الدنيا القصور التي كانت ستعيش فيها وربما المعابد التي كانت ستُبنى خاصة لها. كان رمسيس الثاني قد خصّص المعبد الاصغر في أبي سمبل، معبد الآلهة هاثور، راعية الأمومة والحب والبهجة، لزوجته المفضلة نفرتاري.

هكذا نرى بأنه بوصفه للفرعون الذي عاصر موسى بـــ «**ذِي الأَوْتَاد**» فإن القرآن العظيم يعطي مؤشرا واضحا آخر على هويّة هذا الفرعون، إذ ليس هنالك من وصف أكثر دقة يميّز رمسيس الثاني عن اسلافه وخلفائه.

٧-٤ الفرعون الْمُحَنَّط

رأينا بأن العهد القديم ينصّ بوضوح على أن فرعون وكافة جنوده غرقوا في البحر عندما حاولوا ملاحقة موسى وبني إسرائيل:

> *ومد موسى يده على البحر. فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء. فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم. وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم. جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه الى وسط البحر (الخروج، ١٤: ٢١-٢٣).*

فقال الرب لموسى مُدّ يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم. فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح الى حاله الدائمة والمصريون هاربون الى لقائه. فدفع الرب المصريين في وسط البحر. فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر. لم يبق منهم ولا واحد. وأما بنوإسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم.

فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين. ونظر [ورأى] إسرائيل المصريين أمواتا على شاطئ البحر (الخروج، ١٤: ٢٦-٣٠).

فإن خيل فرعون دخلت بمركباته وفرسانه الى البحر. ورد الرب عليهم ماء البحر. وأما بنو اسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر.

فأخذت مريم النبية اخت هارون الدف بيدها. وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص. وأجابتهم مريم. رنموا للرب فإنه قد تعظم. الفرس وراكبه طرحهما في البحر (الخروج، ١٥: ١٩-٢١).

الذي شق بحر سوف الى شقق لأن الى الأبد رحمته. بيد شديدة وذراع ممدودة لأن الى الأبد رحمته. وعبر اسرائيل في وسطه لأن الى الأبد رحمته. ودفع فرعون وقوته في بحر سوف لأن الى الأبد رحمته (المزامير، ١٣٦: ١٣-١٥).

بينما تشير الفقرات أعلاه الى غرق فرعون وكل جيشه في البحر فإن فقرة ٣٠ من الإصحاح الرابع عشر من الخروج تشير أيضاً الى أن بني إسرائيل كان بإمكانهم رؤية جثث المصريّين المرميّة على الشاطيء. إلا أنه ليست هنالك أية إشارة الى جثة فرعون. من الواضح أن العهد القديم كان سيشير الى جثة فرعون لو كان بني إسرائيل قد رأوها مع جثث جنوده. لذلك يجب أعتبار أن العهد القديم يشير ضمنياً الى أن جثة الفرعون الغريق لم يرها أحد من بني إسرائيل. مما يؤكد أنّ هذا هو فعلا مضمون نص العهد القديم هو طبيعة رد فعل باحثي العهد القديم على عدم العثور على مومياء مرنبتاح لا في قبره في وادي الملوك ولا في مخبأ المومياءات الملكيّة الذي أُكتشفَ في عام ١٨٨١ قرب دير البحري في طيبة. إذ انهم أدّعوا بأن مرنبتاح لابد أن يكون فرعون الخروج الذي كان قد غرق في البحر وهو ما يفسّر أختفاء جثته. إلا أنه تحتّم على مُتبنّي هذا الإعتقاد التنازل عنه في عام ١٨٩٨ عندما عُثِر على مومياء مرنبتاح، مع خمس عشرة مومياء أخرى، في مخبأ المومياءات الملكيّة في مقبرة أمنحوتب الثاني في وادي الملوك (Clayton, 1994: 158). من الجدير بالذكر أيضاً هو أن الإعتقاد المبني على رواية العهد القديم من أنّ مرنبتاح هو فرعون الخروج

مضافاً اليه ما كَشفَه فحص مومياء مرنبتاح من وجود طبقة سميكة من الملح على جلده قد فُسرا من قبل البعض على انهما دليل على أن مرنبتاح كان فعلا فرعون الخروج الذي غرق في البحر. إلا أن طبقة الملح هذه قد نتجت في الحقيقة من عملية التحنيط (Harris & Weeks, 1973: 157; Partridge, 1996: 160).

كما أكّدنا في القسم ٢-٤، حتى اولئك الباحثين الذين يقبلون بشكل عام رواية العهد القديم عن الخروج، سواء أولئك الذين يعتبرون رمسيس الثاني أو مرنبتاح فرعون الخروج، يرفضون إدّعاء العهد القديم حول غرق فرعون أثناء ملاحقته لموسى وبني إسرائيل. لاشك إن العثور على موميائي هذين الفرعونين كان عاملاً أساسياً في إتّخاذ الباحثين لموقفهم هذا. إلا ان هذه النظرة الانتقائية تخالف تماما العهد القديم. إن موت الفرعون هو حادثة محوريّة وأساسيّة في رواية الخروج في العهد القديم لأنها تمثّل ذروة عقوبة الله لفرعون لتحدّيه للإرادة الإلهية، لذلك فإن إنكار موت فرعون يرتقي عمليّا الى رفض رواية الخروج في العهد القديم، بغض النظر عن التفاصيل الثانوية التي يتم قبولها.

أما القرآن الكريم، فبينما يؤكد في عدة آيات على غرق فرعون وجنوده، فإنه يذكر بوضوح تام إنقاذ جثة فرعون لتصبح آية للناس: «**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ** (٩٠). **آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** (٩١). **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** (٩٢)» (يونُس: ٩٠-٩٢). بالاخذ بنظر الاعتبار أن وفاة فرعون وكل الذي كانوا معه كانت غرقاً في «*البحر*» فإن من المُستَبعد تماما أن تكون جثته قد أُسترجِعَت من البحر، خصوصا إذا اخذنا بنظر الاعتبار الامكانيات المحدودة في ذلك الزمان لمثل هكذا عملية انقاذ. إلا أن القرآن العظيم ينصّ على ان جثة الفرعون الغريق تم فعلا إنقاذها. يتطابق هذا النص القرآني مع حقيقة أن جثة رمسيس الثاني لازالت موجودة على هيئة مومياء محنّطة، حيث عُثِر عليها في عام ١٨٨١ بين أربعين مومياء كانت في مخبأ قرب دير البحري في طيبة. لما بقيت مقابر فراعنة المملكة الجديدة هدفا للصوص الذي تسبّبوا في حدوث تلف للمومياءات، قام الكهنة الذين اقلقهم هذا الامر في حدود عام ١٠٠٠ ق.م بجمع هذه المومياءات سوية وأخفاءها في مخبأين. كان المخبأ أعلاه هو أحدهما، فيما كان المخبأ في وادي الملوك الذي احتوى على ست عشرة مومياء بضمنها مومياء مرنبتاح إبن رمسيس الثاني ثاني هذين المخبأين. لاشك أن بوكاي كان مصيبا حين أشار الى انه في وقت نزول القرآن العظيم لم يكن يُعرَف أي شيء إطلاقاً عن هذه المومياءات (

.(Bucaille, 1995: 239

هناك نقطة مهمة آخرى يجب التأكيد عليها. يشير الله في كتابه العزيز الى العديد من الأقوام الذين حل عليهم غضبه وعاقبهم وتركهم آياتا للأجيال اللاحقة. ولكن بأستثناء الحالة الفريدة لفرعون فإن الله لم ينص في كتابه الكريم على أنه أنقذ **جثث** هؤلاء الأقوام وجعلها آيات للناس. هناك العديد من الحالات التي يشير فيها الله الى أن خرائب البيوت والمدن التي تركها هؤلاء الأقوام ورائهم، والتي بقيت مرئية لأقوام أعقبتهم، تتحدث عن إنتقامه منهم. إلا ان الله لا يشير في أية من هذه الحالات الى أن جثث هؤلاء الأقوام الذين دمّرهم لاتزال باقية ليراها من جاء بعدهم. فمثلا هذا ما يقوله القرآن الكريم عن قوم ثمود: «**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ** (٥١). **فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (٥٢)» (النَّمل: ٥١-٥٢). وهذا أيضا ما يقوله الله ﷻ في آية كريمة اخرى عن قومي عاد وثمود: «**وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ**» (العَنْكَبُوت: ٣٨). كما ان هذه آية كريمة عن الأقوام الغابرة بشكل عام: «**أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ**» (السجدة: ٢٦).

يبيّن الله في حالات أخرى أن **اخبار** ما حصل لأقوام أنتقم منهم لكفرهم هو الآية التي تُركت للأقوام التالية لتتعظ بها. حتى في هذه الحالات لا يُشير الله إطلاقا الى أنه حفظ جثث هؤلاء الأقوام كآية للناس. والأكثر إثارة هنا هو أن هذا الامر ينطبق حتى عندما يقول الله بأنه جعل أقواما دمّرهم غرقا آية لأجيال لاحقة، أي كما فعل بفرعون وجنوده. إذ لا يشير الله إطلاقا الى أن جثث هؤلاء القوم الغرقى هي الآية، مما يعني ضمنياً بأن **الأخبار** عما حدث لهم هي الآية: «**وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا**» (الفُرقَان: ٣٧).

الأمر الآخر المثير للإنتباه هو أن الله قال أنه سينقذ بدن فرعون ليجعله آية لمن **خلفه** وانه لم يقصر هذا الأمر على شعب مصر أو ناس ذلك الزمان. وفعلا فإن مومياء رمسيس الثاني لا تزال باقية **الى يومنا هذا** حيث يمكن للناس من **كافة أنحاء العالم** رؤيتها، وهي محفوظة حالياً في المتحف المصري في القاهرة: «**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ**» (يُونُس: ٩٢).

٧-٥ من هو هامان؟

من الفروقات المهمة بين الرواية القرآنيّة لما حدث بين موسى وفرعون ونظيرتها في العهد

القديم هو ذكر القرآن الكريم لشخصيّة بارزة في بلاط فرعون، أسمه «هامان»، كان له دور فعّال في القرارات التي اتخّذها فرعون لإبطال مهمة موسى. ورد ذكر هامان ست مرات في القرآن الكريم. تذكر إحدى هذه الآيات هامان بشكل عابر في سياق ذكر عدد من الافراد والاقوام الذين دمّرهم الله، مؤكدة غرق هامان مع فرعون (العنكبوت: ٣٩). فيما يلي ثلاثة مواضع أخرى تلقي ضوءا على المكانة البارزة لهذه الشخصية في بلاط فرعون:

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢). نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣). إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤). وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥). وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦). وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧). فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (القَصَص: ٨).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣). إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤). فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ (غَافِر: ٢٥).[٣٩]

لا يرد في العهد القديم شيئا عن هكذا شخصية مؤثّرة في بلاط فرعون، سواء تحت إسم هامان أو أي اسم آخر. بإستثناء فرعون نفسه، ليست هنالك شخصية مصريّة بارزة في رواية الخروج في العهد القديم. إلا أن هنالك شخصيّة مهمّة إسمها هامان أيضا تظهر في سِفر استير من العهد القديم الذي يُفترَض أن احداث قصته تدور في بلاد فارس بضعة قرون بعد خروج بني إسرائيل من مصر. نرى في سِفر استير اليهود بعد السبي البابلي وقد أصبحوا تحت حكم أحشويروش ملك الفرس والميديّين. ثم يأتي وقت يُرقّي فيه الملك شخصا ما أسمه هامان الى مرتّبة رئيس الوزراء. عندما يرفض اليهودي مردخاي، أحد رجال الحاشية، ولسبب غير معروف أن ينحني امام رئيس الوزراء الجديد، يستشيط هامان غضباً ويقرر الإنتقام بقتل اليهود في أنحاء الإمبراطورية الفارسية.

---

39 لم يكن «قارون» من رجال الحاشية المصريّين ولكنه كان رجل غنيا من بني اسرائيل (أنظر القصص، ٧٦-٨٢). أما قصته في العهد القديم فموجودة في سِفر الأعداد الذي يسمّيه «كورَح».

ولكن بمساعدة استير، إبنة عم مردخاي وزوجة أحشويروش، تفشل خطة الإنتقام وينتصر مردخاي وقومه على هامان الذي ينتهي به الأمر بالموت على الخازوق. هذه هي الأحداث الرئيسية في قصة استير.

إقترح عدد من الباحثين الغربيين، الذين يأخذون بالنظرة الشائعة في الغرب بأن القرآن الكريم منقول بتصرّف من العهد القديم، بأن ظهور شخصية هامان في الرواية القرآنيّة لقصة موسى وفرعون نتج عن قراءة خاطئة للعهد القديم نقلت هامان من بلاط الملك الفارسي أحشويروش الى البلاط المصري. نجد أحد هذه الأمثلة في «موسوعة الإسلام» التي، في سياق إتهامها للنبي محمد ﷺ بإقتباس القرآن من العهد القديم، تنص على ما يلي تحت فقرة «هامان»: «إنه إسم شخص يربطه القرآن بفرعون، بسبب من خلط لم يُفسَّر لحد الآن مع وزير أحشويروش في سِفر استير في العهد القديم» (*The Encyclopedia of Islam*, 1971: 110). وهذا هو تكرار لإدعاء ذلك المصدر في موضع آخر بأن الرواية القرآنيّة لقصة موسى وفرعون هي تحوير او تحريف لرواية العهد القديم مُضافا اليها «ذكريات خاطئة من سِفر استير وقصة برج بابل». وأقصى ما تذهب اليه «موسوعة الإسلام»، التي تجعل إدّعاءاتها هذه إسمها يبدو مثيرا للسخرية، للإقرار ببعض من الإستقلاليّة للرواية القرآنيّة عن العهد القديم هو القول بأنه «في الروايات المتناثرة في القرآن يمكن تحسس بعض العناصر غير المأخوذة من العهد القديم» (*The Encyclopedia of Islam*, 1965: 917)!

إن هذا وما يشابهه من تصريحات لمستشرقين مبنية على سوء عرض وسوء فهم: سوء عرض للقيمة التاريخيّة لسِفر استير، والعهد القديم بشكل عام، وسوء فهم لأصل كلمة «هامان»، وسوء فهم للقرآن العظيم بشكل عام. لنتناول اولا سوء العرض. إن الإدعاء بأن الرواية القرآنيّة عن هامان تعكس **معلومات مشوّشة** عن رواية سِفر استير يعني ضمنيّاً بأن أية إشارة الى هامان **لابد** وأن تكون قد جاءت من رواية العهد القديم. إن هذا الفرض بدوره يعني ضمنيّاً إما أن هامان هو شخصية وهمية لم توجد يوما خارج رواية العهد القديم، وبالتالي فإنّ أي ذكر له في كتاب آخر لا يمكن أن يكون إلا نقلا من العهد القديم، أو أنه إذا كان شخصية تاريخيّة فلابد أنه كان رئيس وزراء الملك الفارسي أحشويروش كما يصفه سِفر استير. أما الإحتمال الأول فستتم مناقشته لاحقاً عندما نأتي على تحليل كلمة هامان لغوياً. وأما الإحتمال الثاني فمن الواضح أنه يستبعد إحتمال إن يكون العهد القديم هو الذي يحوي معلومات تاريخيّة خاطئة عن هامان الذي كان شخصيّة مؤثرة في بلاط فرعون كما يصوّره القرآن. إلا ان استبعاد هذا الاحتمال هو أمر غير منطقي على الاطلاق وذلك ببساطة لأنه من المعروف أنه بالاضافة الى احتوائه على معلومات لا يوجد ما يدعم صحّتها فإن

العهد القديم غني بالمعلومات الخاطئة تاريخيا. من الجدير بالذكر هنا هو أنّ أحد مظاهر التشوّش التاريخي الذي يعاني منه العهد القديم هو وضع شخصيات في غير مواضعها الصحيحة زمانيا أو مكانيا. على سبيل المثال، ينتقد ردفورد العهد القديم لأنّ إسم «الفرعون سَبَتْكا (حوالي ٦٩٧-٦٩٠ ق.م) يظهر في جدول الأمم (التكوين، ١٠: ٧) كقبيلة نوبية» (Redford, 1992: 256). إذن فالسؤال المطروح هنا هو ما يلي: هل هناك من سبب يمنع أن يكون هامان سِفر استير، لا هامان القرآن الكريم، هو حالة أخرى لشخصية يخطأ العهد القديم في وضعها في سياقها التاريخي الصحيح؟

اقترح بعض الباحثين بأن «أحشويروش» يمكن ان يكون الصيغة التي سمع بها متكلمو العبرية الإسم الفارسي الذي عُرِف عند الإغريق بإسم «كورش» (٤٨٦-٤٦٥ ق.م)، أي أن «أحشويروش» العهد القديم هو في الواقع «كورش». ولكّن حتى على أساس هذه الفرضية فإنّ المعلومات التاريخية المتوفّرة لا تقود الى تحديد هويّة هامان او أي من شخصيات سِفر استير، بما في ذلك استير اليهودية نفسها التي سُمّي السِفر على إسمها. بالاضافة الى هذا فإن قصة استير تحتوي على معلومات تاريخيّة معروفة بأنّها غير صحيحة، مثل الأدّعاء بأن بلاد فارس كانت مقسمة الى عدد كبير من المقاطعات يصل الى ١٢٧ بينما لا يتجاوز العدد الذي تذكره مراجع تاريخية اخرى الـــ ٣٠ مقاطعة. من المتّفق عليه أن سِفر استير يعاني من مشاكل تاريخيّة جسيمة وان وصفه بأنّه كتاب تاريخي ليس سوى تشويه فعلي للحقيقة. إن استير هو كتاب لاتاريخي الى حد أن إحدى الدراسات الحديثة تخلص الى القول بأن «من الافضل النظر الى سِفر استير على انه أقصوصة خيالية تاريخيّة تجري احداثها داخل الامبراطوية الفارسية» (Levenson, 1997: 25)، وهو إستنتاج يمثّل رأي معظم الباحثين. إذ أنّ الكتاب هو من البُعد عن التاريخ الحقيقي بحيث تستطرد الدراسة اعلاه لتقول بأن: «من التضليل ترجمة إسم أحشويروش الى كورش[٤٠] لأن هذا يوحي ضمنياً بوجود أرتباط بهذه الشخصيّة المعروفة من المصادر الإغريقية. في الواقع، يبدو ان المؤلِّف استعار اسم كورش ولكن تقريبا لا شيء أخر عنه ليختلق الأقصوصة» (Levenson, 1997: 25).

من الواضح إذن عدم وجود أي دليل على الإطلاق على ما يدّعيه العديد من المستشرقين من ان ظهور هامان في القرآن في فترة تاريخيّة تختلف عن تلك التي ظهر بها في استير يتضمّن خلطا مع

---

[40] نجد احد الامثلة على هذا في «الطبعة العالمية الجديدة» New International Version للعهدين القديم والجديد حيث يظهر الملك في سِفر استير دائما بأسم «كورش» تحت ذريعة أن «الاسم العبري أحشويروش هو صيغة مُلحَنة لكورش».

رواية العهد القديم للتاريخ وتشويشا. في الواقع إن هذا الإدعاء بالذات هو الذي يقف مُتّهما بإعطاء صورة مشوشة عن التاريخ بالايحاء بأن رواية استير تاريخيّة.

لنعالج الآن أصل كلمة «هامان». إن القول بأن هامان في القرآن هو نفس هامان العهد القديم يعكس سوء فهم كامل لأصل كلمة «هامان». إنّ من الممكن ربط هذا الاسم بسهولة بإسم الإله المصري آمون. فهو إذن أسم مصري لا فارسي كما تشير قصة استير. بعبارة اخرى، إن العهد القديم في الحقيقة هو الذي وضع هامان في غير مكانه التاريخي الصحيح كما سيُشرَح لاحقاً.

إعتمادا على الرابطة الواضحة بين «هامان» و «آمون» إقترح سيّد (Syed, 1984) بأن «هامان» في القرآن هو **لقب** شخص وليس **إسمه**. يعتقد سيّد بأنه مثلما أن «فرعون» كان لقبا وليس اسما لشخص، فإن الشيء نفسه ينطبق على «هامان». ويقترح سيّد بأن اللقب «هامان» كان يشير الى «كبير كهنة آمون». من بين الفقرات المؤيدة لهذا الرأي التي يستشهد بها بحث سيّد هي ما يلي:

> يُؤشّر انتشار عبادة آمون على كونها جاءت عبر الواحات ولا يبدو ان هناك سبب للشك في ان عبادة الواحة البدائية لآمون أو هامون، كانت الأصل لآمين أو آمون المصري من جهة، و لبعل هامان إله القرطاجنيين من جهة اخرى (Petrie, 1924: 21).

مستشهدا بحقيقة أن الكهنة درجوا على تمثيل شخصية آلهتهم، يقترح سيّد أن «آمون أو هامان كان لقباً عاما لكبار الكهنة عند تمثيلهم لشخصية الإله آمون» (Syed, 1984: 87). أما عن تأثير موقع «هامان» أو «كبير كهنة آمون» في مصر، فيستشهد سيّد بما يلي:

> إن الـــ «المتنبّئ الأول» أو الكاهن الأكبر لآمون، كان في الوقت نفسه «مسؤول الاعمال الكبير»، وبصفته هذه فقد كان مطلوبا منه أن يكون مسؤولا عن عمليات البناء الكبرى المرتبطة بالمعبد، وان يضــفي مجــدا علــى معبده. وبحكم كونه «القائد العام لقوات الإله» فإنه كان يقود القوات العسكرية للمعــبد، مــثل رئيس الأساقفة في العصور الوسطى وبحكم كونه «مسؤول الخزانة» فقد كانت تحت ســلطته إدارة الشــؤون المالية التي لم تكن بالمسؤولية الهيّنة. كما لم تقتصر سلطته على معبد آمون وكهنــته. بل كان كذلك «مسؤول متنبّئي الآلهة في طيبة» وكذلك «مسؤول متنبّئي كل آلهة الجنوب والشــمال». إن هــذا لا يمكن ان يعني سوى أن كافة كهنة البلاد كانوا يدينون له بالطاعة وانه كان المسؤول الروحي الاكبر في المملكة (Steindorff, 1905: 96-97).

إن تشخيص سيّد لهامان على أنه «كبير كهنة آمون» هو تشخيص راجح. فبالرغم من أن الإلهين رع وبتاح كانا مُكرَّمين في عهد رمسيس الثاني، فقد كان آمون قد مُنِح السيادة على بقية الالهة.

وبذلك فإن أولوية مكانة آمون لابد وان تكون قد جعلت رئيس كهنة آمون موقعا بارزا جدا في مصر. وفعلا نجد أن الآيات القرآنيّة الكريمة المذكورة أعلاه تصوّر هامان كشخص ذي سلطة كبيرة في بلاط فرعون. إن الرواية القرآنيّة للمواجهة بين موسى وفرعون لا تسمّي أي مساعد لفرعون غير هامان. ولكن كم يتوافق هذا الوصف مع ما هو معروف عن طبقات السلطة في مصر؟

وفقا لكيتشن، فإن منصبي وزيري الجنوب والشمال، والذين مثّلا عادة وزيري طيبة وممفيس على التوالي، كانا أعلى منصبين بعد فرعون نفسه. يبيّن كيتشن بأن موقع كبير الكهنة لأي إله لم يكن يشغله شخصا تدرّب في سلك الكهنوتية، ولكن غالبا ما كان يُمنح لوزير او شخصية بارزة اخرى وقت التقاعد تكريما له، رغم ان هذا المنصب كان يشغله احيانا أحد الأمراء (Kitchen, 1982: 158). إذا كان هذا الوصف ينطبق على السنوات المتأخرة من حكم رمسيس الثاني فإن كبير الكهنة لأي إله، بضمنهم آمون، ما كان سيكون **بالضرورة** الشخصية الأكثر تأثيرا بعد رمسيس الثاني، بالرغم من انه كان ذي سلطة كبيرة. إن الدور الذي لعبه هامان في الجهود التي بذلها فرعون لإفشال مهمة موسى، كما صورّه القرآن العظيم، يبيّن بأنّ هامان كان ذا سلطة كبيرة ولكن لا يصوّره **بالضرورة** على انه اكبر الشخصيات سلطة في بلاط فرعون. فلربما كان دور هامان بارزا في تلك الأحداث بالذات بسبب من طبيعتها، أي كونها مواجهة دينية. فبصفته كبير كهنة أهم إله للامبراطورية، كان لابد من استشارة كبير كهنة آمون بشأن التهديد الذي شكّله الدين الجديد، ولابد أن رأيه كان أهم بكثير من رأي أية شخصية أخرى في بلاط فرعون، بما في ذلك وزيري الجنوب أو الشمال. دعما لهذا الطرح فإنّ من المهم التأكيد على أن مهمّة موسى لم تشكّل تهديدا **عسكريا مباشرا** لفرعون ولكن تهديدا **دينيا** فقط. من الصحيح أن فرعون كان مصرّا على عدم السماح لبني إسرائيل بمغادرة مصر الى كنعان خوفا من إنضمامهم الى ساميّين طموحين في العودة الى مصر لأخذ باي-رمسيس، عاصمة الهكسوس القديمة (أنظر القسم ٥-٢). لقد كان من السهل تفادي هذا الخطر وذلك بمنع بني إسرائيل من مغادرة مصر، وهو ما فعله رمسيس الثاني. ولكن من جهة أخرى، كلما طالت إقامة موسى في مصر، وطبعا ما كان موسى سيغادر مصر من دون ان يصحب شعبه، كلما ازداد الخطر الذي شكّله على دين مصر. لذلك، فإن الخطر المباشر الذي واجهه فرعون كان التهديد الديني الذي مثّله موسى، مما يفسّر ظهور هامان كالمستشار الرئيس لفرعون.

هنالك عامل مهم أدى الى رؤية فرعون وحاشيته في مهمة موسى خطر جدي على دينهم وذلك هو توقيت ظهورها، ذلك أنّها جاءت بعد ١٢٠-١٣٠ سنة من إضطهاد الإله آمون نفسه على يد

الفرعون امنحوتب الرابع (١٣٥٠-١٣٣٤ ق.م). إذا كان هذا الاخير الذي غيّر اسمه الى اخناتون (خادم الإله آتون) قد حرّم عبادة آمون وأغلق معابده، مستبدلا أياه بقرص الشمس، آتون. بل وانتقل هذا الفرعون الراديكالي الى عاصمة جديدة اسماها اختاتون لم تكن، بعكس مدن أخرى اقدم منها، قد كُرِّست الى أي إله من قبل. في الواقع، إن سيتي الأول وابنه رمسيس الثاني كانا هما اللذان اعادا تنصيب آمون إلها للإمبراطورية. لابد ان مهمة موسى أعادت الى الاذهان كل تلك الذكريات، دافعة فرعون الى إستشارة كبير كهنة آمون:

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (غَافِر: ٢٦).

قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمْ الْمُثْلَى (طه: ٦٣).

من الواضح أن تحديد سيّد المُرجَّح لهوية هامان ككبير كهنة آمون يتطابق مع الرواية القرآنيّة، كما أنه في الوقت نفسه لا يتعارض مع ما نعرفه اليوم عن مصر في أيام رمسيس الثاني. إلا ان هذا التحديد العام للهوية لا يمكن التسليم بصحتّه بشكل مطلق قبل التعرّف بالتحديد على الشخص الذي يشير اليه القرآن الكريم بلقب هامان.

لننظر مرة أخرى إلى الآيات التالية:

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢). نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣). إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ (٤). وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ (٥). وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦). وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ (٧). فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (الْقَصَص: ٨).

إن المرتّين التي ذُكِر فيهما هامان في الآيتين السادسة والثامنة من سورة القصص تشيران الى

أحداث مستقبلية كانت ستقع بعد بعثة موسى. لذلك فإن هاتين الآيتين لا تعنيان ضمنياً **بالضرورة** بأن هامان الذي كان يُسدي النُصح لفرعون خلال مواجهته مع موسى كان حاضرا وقت ولادة موسى. في الواقع إن من الممكن استنتاج غياب هامان في ذلك الوقت من ملاحظتين. أولا، عند إشارتها الى ذبح الذكور من حديثي الولادة لبني اسرائيل، تشير الآية الرابعة من سورة القصص إلى أنّ فرعون كان هو الجزّار الذي قام بالمذبحة إلا أنّها لا تذكر هامان. يبيّن استثناء إسم هامان من هذه الآية الكريمة بأن هذا الاخير لم يكن مشتركاً في تلك المجزرة. فلو كانت لهامان يد في المذبحة لذكره الله حين ذكر فرعون، ذلك أن الله ذكر هامان مباشرة بعد ذلك في الآيتين اللتين يذكر فيهما فرعون، تحديدا الآيتين السادسة والثامنة من سورة القصص.

ثانيا، يرافق الإشارة الى هامان بعد فرعون في كلتي الحالتين ذكر «**جُنُودَهُمَا**». من الواضح أن الجنود المُشار إليهم هم أولئك الذين غرقوا في البحر ولا يمكن أن يكونوا جنود فرعون وقت ولادة موسى، إذ كما شاهدنا، وقعت المواجهة الحاسمة بين موسى وفرعون وجنوده بعد ما لا يقل عن أربعة عقود من ولادة موسى. لابد ان معظم جنود فرعون في وقت ولادة موسى كانوا قد ماتوا قبل حدوث الخروج وأنّ من كان لايزال منهم حيّا لابد وان يكون قد ترك الخدمة بسبب تقدّمه في السن.

يشير الله في الآيات الكريمة أعلاه الى حادث الغرق في البحر بعد الإشارة الى قتل أبناء بني إسرائيل ليؤكد ان مذبحة الأطفال تلك لم تمنعه من الإنتقام في المستقبل من فرعون وهامان وجنودهما على يد من أراد فرعون قتله وهو صغير. إذن تتحدّث الآيتان السادسة والثامنة من سورة القصص عن هامان ما خلال إقامة موسى الثانية في مصر. تبرز أهميّة هذه الملاحظة عند محاولة تحديد هوية هامان الذي أسهم مع رمسيس الثاني في الصراع ضد موسى، لأنها تعني ضمنياً بأن هامان كان في ذلك المنصب على الأقل منذ عودة موسى الى مصر وحتى الخروج، أي مدّة بضع سنين (أنظر القسم ٧-٢)، ولكن لا يوجد دليل على أنّه كان في هذا المنصب منذ وقت ولادة موسى.

إلا ان هذا الإستنتاج لابد وان يحفّز التساؤل المُشكِّك التالي: إذا كان هامان والجنود الذين وردت الإشارة إليهم في منتصف آيات تتحدث عن ولادة موسى هم أشخاصا عاشوا في وقت مستقبلي لاحق للولادة ولم يكونوا موجودين عند الولادة، فلم لا ينطبق الشيء نفسه على فرعون أيضا؟ بعبارة اخرى، لماذا لا نفترض أن فرعون الخروج كان غير الفرعون الذي كان في الحكم وقت ولادة موسى؟ ان الإجابة على هذا السؤال غاية في السهولة: إن القرآن العظيم ينص بوضوح في الآية الثالثة من سورة القصص على أن الفرعون الذي تشير اليه الآيتان السادسة والثامنة من تلك السورة الكريمة هو نفسه الفرعون قاتل أطفال بني إسرائيل الذي تشير اليه الآية الرابعة.

نأتي الآن إلى الآيتين الأخرتين اللتين ذُكِر فيهما هامان:

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (القصص: ٣٨).

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦). أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (غافر: ٣٧).

تكشف هذه الآيات عددا من الحقائق الهامة. أولاً، هناك إشارة واضحة في الآية الاولى الى إستخدام الطين المفخور في البناء، وهو شيء تشهد بحدوثه السجلات المصرية القديمة. ثانياً، إن بناء البرج من الطين يعني أنه لم يكن مقصودا به أن يكون معبداً لأن المعابد كانت تُبنى عادة من الصخر. ثالثاً، تصوّر الآيات أعلاه هامان على أنه شخص مسؤول عن مشاريع بناء، وإلا لأعطى فرعون تعليمات البناء الى شخص آخر. رابعاً، إن الأمر الفرعوني بالبناء كان رد فعل منسجما مع ما هو مُتوقَّع من فرعون مهووس بالبناء الى حد بزَّ به كل أنظاره. خامساً، إن معتقد فرعون حول تدقيق إدعاءات موسى عن الله بالصعود الى السماء بواسطة برج ينسجم تماما مع المعتقد المصري حول «السلم المؤدي الى السماء الذي كان أصلا أحد عناصر الإيمان بالشمس» كما جاء في وصف بريستيد (Breasted, 1912: 153) الذي أستشهد به سيّد (Syed, 1984). كما أستشهد سيّد بتأكيد بيتري على تفشي «الفكرة الدينية في الرغبة في الصعود الى الآلهة في السماء» (Petrie, 1924: 84).

أوضحت المناقشة في هذ القسم بأنه، خلافا لما يعتقده عدد من باحثي العهد القديم والمستشرقين، لا يمكن ان يكون هامان الذي يظهر في الرواية القرآنيّة للمواجهة بين موسى وفرعون هو نفس هامان الذي ورد في قصة استير الخيالية. كما كشفت المناقشة بأن المعلومات المرتبطة بذكر هامان في القرآن الكريم متوافقة تماما مع ممارسات ومفاهيم في مصر الفرعونية بصورة عامة ومع فترة حكم رمسيس الثاني على وجه الخصوص. إلا ان تاريخيّة هامان المذكور في القرآن وحقيقة انه كان شخصية مؤثرة جدا لعبت دورا هاما في دعم فرعون في مواجهته مع موسى تطرح امامنا السؤال الذي لا مفر منه عن سبب عدم وجود أية إشارة الى هذه الشخصية في سِفر الخروج في العهد القديم. إن وجود شخصية لاتاريخيّة اسمها هامان في سِفر استير يحمل إجابة هذا السؤال. لابد أن هامان كان في رواية الخروج الاصلية في التوراة مساعد فرعون في صراعه ضد موسى، أي تماما

مثلما يصوّره القرآن الكريم، إلا أن كُتّاب العهد القديم هم الذين وضعوا هامان، المُشتَق إسمه أو لقبه من الإله المصري آمون، في سياقات **لاتاريخيّة** مختلفة تماما. إن الإبقاء على الاسم المصري «هامان» من دون اي تغيير ليس المؤشّر الوحيد على هذا الخلط والتشويش الذي عانى منه كُتّاب العهد القديم، ولكن هناك ايضا تصوير شخصية هامان اللاتاريخيّة في خرافة استير على انه رئيس الوزراء، أي الشخصية الثانية في بلاد فارس بعد الملك، وهو بالضبط الدور الذي لعبه هامان التاريخي الحقيقي في مواجهة رمسيس الثاني مع موسى.

ينص العهد القديم على أن خطة الشخصية الفارسية اللاتاريخيّة هامان لإفناء اليهود في الإمبراطورية الفارسية كانت ردا على رفض مردخاي الإنحناء له لأنه كان يهوديا. ألا انه يبدو ان هذه الخطة أيضا هي نسخة محرَّفة لحدث حقيقي وهو إشتراك هامان في إقتراح وتنفيذ المذبحة الثانية للذكور من المواليد حديثي الولادة لبني إسرائيل تثبيطا لعزيمة بني إسرائيل ودفعا لهم على عدم إتّباع موسى: «**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ** (٢٣). **إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** (٢٤). **فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ** (٢٥)» (غَافِر: ٢٣-٢٥). ستُناقَش هذه المذبحة الثانية في القسم ٩-١ بشكل اكثر تفصيلا.

٧-٦ ملاحظات إضافية

هناك عدد من النقاط الثانوية التي تجدر الإشارة إليها بشكل عابر. أولا، هنالك تاريخ المواجهة بين موسى والسحرة: «**قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى** (٥٧). **فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى** (٥٨). **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى** (٥٩)» (طه: ٥٧-٥٩). كان الموعد الذي اختاره موسى للقاء السحرة يوم عيد، كما يتّضح من تعبير «**يَوْمُ الزِّينَةِ**». إلا أنّ كلمة «**الزِّينَةِ**» قد تعني «تزيّن» أو «تزيين». بعبارة أخرى، من الممكن ان تشير هذه الكلمة الى إحتفال يرتدي فيه الناس ملابس الأعياد أو تُزّين فيه المدينة أو يحدث فيه الاثنان معاً. كان المصريون يحتفلون خلال حكم رمسيس الثاني بالعديد من الاعياد على طول مصر وعرضها وعلى مدار السنة. أما الإحتفال الذي أشار اليه موسى فلابد أنه كان من الاحتفالات التي كانت تُقام في باي-رمسيس، رغم أنه ليس بالضرورة من الاعياد التي كانت مقصورة على باي-رمسيس.

النقطة الثانية المثيرة للأهتمام هي ان أحد أبناء رمسيس الثاني، وأسمه خايمواسيت، الذي يُعتقَد

بأنه مات في حوالي السنة الخامسة والخمسين من حكم والده، عُرِفَ لاحقا بلقب «الساحر». هناك بردية يُقال بأنه عُثر عليها في طيبة، يعود تاريخها الى الفترة البطليمية، في حدود القرن الثالث ق.م، تروي قصة تبيّن الإهتمام الذي اولاه خايمواسيت للسحر، وتسمّيه بـــ «الكاتب الجيد» أي «الساحر» (Lewis, 1948: 67-68). تثير هذه القصة السؤال حول ما إذا كانت لها علاقة ما بذكريات عن المباراة بين موسى والسحرة الذين جمعهم والد خايمواسيت، رمسيس الثاني.

أخيرا لابد من الإشارة الى ما أدّعاه بعض المفسِّرين (أنظر مثلاً تعليقات القرطبي وإبن كثير على الآية التاسعة من سورة القصص) من أن طلب زوجة فرعون منه ان يتبنيا الطفل موسى يشير الى أنه لم يكن لها أطفال[٤١]: «**وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**» (القَصَص: ٩). لقد توصّل المفسِّرون الى أستنتاج مماثل من آية شبيهة في سورة يوسف، مدّعين بأن الشخص الذي اشترى يوسف في مصر لم يكن عنده أطفال (أنظر مثلاً تعليق الجلالين وإبن كثير على الآية ٢١ من سورة يوسف): «**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**» (يوسُف: من ٢١).

من الواضح أنه إذا كان الإدعاء أعلاه صحيحاً فإن له دلالات خاصة حول هوية تلك الزوجة بالذات من زوجات فرعون. إلا ان المفسِّرين فشلوا في ملاحظة انه في كلٍ من الحالتين السابقتين يمكن للمرء ان يجد في القرآن الكريم سببا ممكنا آخر، غير الحرمان من الأطفال، لظهور أمنية التبنّي كخيار ثاني بجانب خيار إتّخاذ الطفل عبدا. أما في حالة يوسف فقد كان السبب جماله الاستثنائي (الآية ٣١ من سورة يوسف)، وأما في حالة موسى فكان الحب الذي أغدقه الله عليه والذي فسّره الشيخ عبد القادر الكيلاني كما يلي: «كان كل من رآه من قوم فرعون أحبّه، وهو معنى قوله تعالى: «**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي**» (طه: من ٣٩). قيل إنه كان كل من نظر الى عينيه أحبّه» (الكيلاني، ١٩٩٨: ٨٧).

---

[41] يدعي الطباطبائي بأن فرعون نفسه لم تكن له ذرية (الطباطبائي، بدون تاريخ، جزء ١٤: ١٦١).

٨

الصورة القرآنيّة للخروج

٨-١ جَمْع بني إسرائيل سويّة

يشير العهد القديم ضمنياً الى أن بني إسرائيل استمروا في العيش سوية في منطقة شرق الدلتا في مصر حيث أستقر أجدادهم، يعقوب وأبناؤه الإثنا عشر، حين جاءوا الى مصر. وبالرغم من تأكيد العهد القديم على أن عدد نفوس بني أسرائيل كان قد اصبح كبيرا، فإنّ إدّعاءه الاخر بأنّ نساء بني إسرائيل كُنَّ في حاجة إلى قابلتين فقط لخدمة كل نساء بني إسرائيل يوحي بأن عدد بني إسرائيل لم يكن قد نما كثيرا (Noth, 1962: 23). بل ويوحي العهد القديم بأنه لو كانت القابلتان اكثر تعاونا مع فرعون في ما أراده منهما لتمكنتا من الحد من زيادة عدد بني إسرائيل. وهذا بدوره يعني ضمنياً بأن بني إسرائيل كانوا يعيشون سوية، وهو أمر يتوافق مع إدعاء العهد القديم بأن **كل** بني إسرائيل كانوا مُستَعبَدين في بناء مدينتي المخازن لفرعون. فالصورة التي يرسمها سِفر الخروج لبني إسرائيل في مصر هي صورة شعب أجنبي مُضطهد يعيش أفراده سوية في مستوطنة منفصلة لوحدهم. وكما وصفها ريدفورد، «تشبه الصورة صورة إقليم ملاصق لمصر لا ايدي عاملة اجنبية موزَّعة داخل البلاد» (Redford, 1997: 62).

إن إحدى المشاكل الرئيسة لهذه الصورة هي مخالفتها ما هو معروف عن معاملة الأجانب في مصر، خصوصا في عصر المملكة الجديدة (١٥٧٠-١٠٧٠ ق.م). على قدر تعلق الامر بمعاملة المصريين للقوى العاملة من العبيد الآسيويين، يؤكد ريدفورد على «عدم وجود دليل على ترك تكتلات إجتماعية سوية في مكان واحد من البلاد، حيث أن الهدف الأساسي من هذا الامر [جلب العمالة] هو توفير الحاجة من الأيدي العاملة في كل مكان في البلاد». ثم يستطرد ريدفورد قائلا بأن كون مجاميعا معينة عملت كل منها كوحدة واحدة «أُسكِنَت وقتيا في موقع واحد من البلاد لا يعني بأنها إستقرت بشكل دائمي هناك. ولا يوجد دليل خلال حكم المملكة الجديدة على أن أية مجموعة من السكان المُستَعبَدين حاولت على مر الزمن المحافظة على عاداتها وعلى نفسها ككيان عرقي

متميز» (Redford, 1997: 59-60).

من المعقول القول بأنه طوال فترة حكم الهكسوس كان بنو إسرائيل يعيشون تقريبا سوية كمجتمع واحد في ذلك الجزء من مصر. وبسبب تبوأ يوسف لذلك المنصب الرفيع خلال حكم الهكسوس، من المرجّح أن بني إسرائيل أستمروا في التمتّع بمعاملة خاصة من قبل الهكسوس حتى بعد زمن يوسف حين لم يعد لديهم أحد في منصب ذي سلطة عالية. إلا أنه لابد وان يكون كل ذلك قد تغيّر بعد طرد الهكسوس من مصر، إذ أنّ سوء معاملة السلطات المصرية للأجانب في مصر لم يكن لها نظير. لم يكن هناك سبب على الاطلاق يجعل السلطات المصرية يحسنون معاملة الأجانب من بني إسرائيل ويتركوهم يعيشوا بسلام وبراحة كما كان حالهم خلال حكم الهكسوس. لقد كان الفراعنة الذين تتابعوا بحاجة دائما الى أيدي عاملة من العبيد لبناء مختلف أنواع الأبنية التي كانوا يحلمون بها، ولم يكن لبني إسرائيل مفر من مصير العبودية هذا. إذا كان الفراعنة قد أعتادوا على جلب أسرى حملاتهم الحربية كعبيد الى مصر فلِمَ كانوا سيتركون بني إسرائيل يعملون من دون أستعباد في ما يرغبون من حِرَف؟ لابد أن يكون إنتهاء حكم الهكسوس قد قاد بني إسرائيل الى مرحلة من العبودية استغرقت عدة قرون. كما لابد وان يكون ذلك قد عَنى بأنّ بني اسرائيل لم يعودوا يعيشون في موقع معين من مصر كمجتمع متميز، ذلك أن أستعبادهم لابد وان يكون قد ادى الى توزيعهم أفراداً وجماعات في أجزاء مختلفة من مصر وحسب الحاجة للأيدي العاملة. من الجدير بالملاحظة أن نجد قبطاناً مصرياً لسفينة على النيل، أسمه أحمس، ينص في سيرته الذاتية على انه نتيجة لشجاعته خلال فتح أفاريس، عاصمة الهكسوس، كُوفئ بمنحه عبيد، رجل وثلاث نساء، أخذهم كغنائم من المدينة (*ANET*, 1950: 233). من المؤكد أن بني إسرائيل عوملوا بنفس الأسلوب وانتهى بهم الامر الى أن يؤخذوا من المدينة عبيدا، أفرادا وجماعات. ما كان هنالك من سبب لكي يحصل بني إسرائيل على معاملة أحسن من أمثالهم من محدودي الحظ من الأجانب في بقاع مصر الاخرى. في الواقع، كان للمصريين كل مبرر في ان يسيئوا بشكل استثنائي معاملة أولئك الذين لم يتعاونوا فحسب مع الهكسوس المطرودين بل وشاركوهم السلطة لبعض الوقت.

ينص العهد القديم على ان معاناة بني إسرائيل بدأت عندما «*قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف*» (الخروج، ١: ٨)، وأنه كان نفس الفرعون الذي استخدمهم في بناء بايثوم وباي–رمسيس (الخروج، ١: ١١)، أي رمسيس الثاني. تاريخيا، لا يمكن لهذا الإدعاء سوى أن يكون زائفا. ففي الوقت الذي أشترك فيه بنو اسرائيل كعبيد في بناء باي–رمسيس كان قد مضى على طرد الهكسوس من الدلتا حوالي ٣٠٠ سنة رزخ خلالها بنو اسرائيل تحت حكم حوالي خمسة عشر فرعون كره كل

واحد منهم حد الموت ذكرى الهكسوس، ناهيك عن الأجانب الذين أسسوا علاقات ودية مع **مغتصبي** الأراضي المصرية وشاركوهم في السلطة لبعض من الوقت. لذلك لابد ان يخلص المرء الى الإستنتاج بأن عبودية بني إسرائيل بدأت مباشرة بعد أن اصبحوا تحت حكم فرعون مصري، الذي من المُرجّح ان يكون أحمس الأول الذي أفلح في طرد الهكسوس أخيرا، وبأن ظروف معيشتهم انقلبت رأساً على عقب منذ ذلك الحين.

لابد أن بيير مونتي قد شعر بالضعف الواضح في نص العهد القديم مما دعاه الى الأقتراح بأن فراعنة السلالة الثامنة عشرة «لم يكترثوا بشأن هؤلاء البدو [بني إسرائيل]» الى الوقت الذي قرر فيه رمسيس الثاني بناء عاصمة جديدة في موقع أفاريس (Montet, 1974: 171)، بالقرب من المكان الذي عاش فيه بنو إسرائيل. إلا ان كون بني إسرائيل بدوا مسالمين ما كان سيعني بأنهم ما كانوا سيكونوا عبيدا مفيدين، كما أن سكنهم في شرق الدلتا ما كان سيجعلهم غير صالحين للاستخدام او في منأى عن أيدي الفراعنة الذين أعتادوا على جلب الأسرى حتى من خارج مصر لتسخيرهم في العمل. بالاضافة الى هذا، فأن مونتيت غضّ النظر عن الحقيقة الحاسمة في ان هؤلاء «البدو» كانت لهم علاقة وثيقة بألد أعداء الفراعنة، الهكسوس، وهو أمر لا يمكن أن يكون أي فرعون قد تغاضى عنه.

من المحتمل جدا ان **العديد** من بني إسرائيل جُمعوا من عدة أماكن في مصر وأُستخدموا في بناء باي-رمسيس. إلا أن ما يوحي به العهد القديم ضمنياً من أن **كل** بني إسرائيل أُستخدموا في مواقع باثوم وباي-رمسيس وأن الايدي العاملة المُستعبَدة هذه تكوّنت من بني إسرائيل **فقط** هما أمران ينقاضان الحقائق التاريخيّة. إذ لابد ان يكون الحجم الهائل لأعمال البناء في العاصمة الجديدة قد تطلّب جلب عدد كبير من العبيد، بعضهم من بني إسرائيل، من مختلف مناطق مصر. وإذ أفترضنا بأن إستعباد بني إسرائيل المستمر حولّهم على مر القرون الى عمال بناء ماهرين بشكل استثنائي، فمن المنطقي الاستنتاج بأنهم أستُهدِفوا بشكل خاص للعمل في موقع العاصمة الجديدة. ولكن حتى بالاخذ بنظر الاعتبار هذا، فإنه يبقى من الهراء الادعاء بأن رمسيس الثاني الذي شيّد مباني على طول البلاد وعرضها لم ينقل على الأقل قسما من هذه الأيدي الماهرة من العبيد الى مشاريع أخرى في أماكن أخرى. من الطبيعي أنّه حتى بعد إنتهاء العمل في العاصمة الجديدة في سنوات الحكم الأولى لرمسيس الثاني فإنّه لابد وأنّ بعض العبيد تُرِكوا في المدينة لإنجاز أعمال متنوعة أو لإكمال بعض مشاريع البناء المستمرة. كان بعض هؤلاء العبيد من بني إسرائيل، الذين كانت من ضمنهم عائلة موسى نفسه. ولكن خلال حوالي نصف القرن الذي مر بين إكمال بناء المدينة وعودة موسى

الى مصر، ليُخرِج بني إسرائيل منها، كان غالبية العبيد من بني إسرائيل وغيرهم قد نُقِلوا مرة اخرى الى مختلف مواقع البلاد التي تطلبت أيدي عاملة لتنفيذ مباني رمسيس الثاني الضخمة. علينا ان لا ننسى أن الحاجة للإيدي العاملة من العبيد كان احيانا ماسّة الى الحد الذي جعل المصريين يشنّون حملات عسكرية لجلب أسرى، كما حصل في الحملة الى «أرض الليبيين» في السنة الرابعة والأربعين من حكم رمسيس الثاني (انظر القسم ٢-٣). لذلك فمن المؤكّد أنّه حتى إشتراك الكثير من بني إسرائيل في بناء باي-رمسيس لم يؤد بهم الى التجمّع سوية في مكان واحد. لابد ان بني اسرائيل كانوا لايزالون منتشرين في كافة البلاد في وقت عودة موسى الى مصر، بالرغم من أن مجموعة منهم كانت في باي-رمسيس حيث كانوا مُستخدَمين بشكل دائمي.

بينما تناقض الصورة التاريخيّة لما حدث لبني إسرائيل رواية العهد القديم، فإنها تتفق تماما مع ما ورد في القرآن العظيم:

فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠). فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١). وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢). فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣). وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤). فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥). وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦). وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ (يُونُس: ٨٧).

إن حقيقة أن «ذُرِّيَّةٌ» من قوم موسى، أي **بعضاً** منهم فقط، آمنوا به يبدو متوافقا مع ما حصل لأنبياء آخرين لم يزدد عدد أتباعهم بين اقوامهم الا تدريجيا. ولكن من المرجّح أن إيمان **أقلية** فقط من بني إسرائيل بموسى له دلالة أكبر مما يقترحه هذا التفسير. إن إيمان أقليّة فقط لا يمكن تفسيره بخوف بني اسرائيل من إنتقام أسيادهم منهم، ذلك أن الآية ٨٣ من سورة يونس تُبيّن بأن الذين آمنوا كتموا إيمانهم وبالتالي كان يمكن للبقية عمل الشيء نفسه. إنّ موسىٰ لم يكن نبيّا فقط لبني إسرائيل ولكنّه جاء أيضا محرّرا لهم من بؤسهم،[٤٢] فلم إذن لم يؤمن به جميع بني إسرائيل؟ بالإضافة الى

[42] إن الإشارة الى «مَلَئِهِمْ»، أي رؤسائهم في العمل، في الآية ٨٣ من سورة يونس هي إشارة اخرى الى أن بني إسرائيل كانوا مُستَعبَدين.

ذلك، يبيّن القرآن العظيم أن إيمان «ذُرِّيَّةٌ» فقط من قوم موسى به كان بعد إنتصاره على السحرة وتحول هؤلاء الى دينه، وهي معجزة شهدها الكثير من الناس ولم تكن سرّا. إن معجزة عجز فرعون عن قتل موسى أو إيذائه بأي شكل، كما سبق شرحه في القسم ٧-١، كانت سببا آخر لجعل أي شخص، وبني إسرائيل على الخصوص، يؤمن بموسى. فإذا اخذنا بنظر الاعتبار كل هذا، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لم آمنت «ذُرِّيَّةٌ» فقط من قوم موسى به وهو الذي جاءهم على الأقل بأمل تحريرهم من العبودية؟ إن سبب إيمان «ذُرِّيَّةٌ» فقط من قوم موسى به هو ان **قلة** فقط من بني اسرائيل كانت تعيش في ذلك الوقت في باي-رمسيس حيث أستقر موسى بعد عودته من مدين.

قد يبقى البعض يجادل بأن **من المحتمل** أن الآية ٨٣ من سورة يونس تشير الى تجربة مرّ بها تقريبا كل نبي، وهي تصديق قلّة فقط من قومه لرسالته في المراحل الأولى من بعثته. إذا كانت هذه الحجة سليمة، فإنه لا يمكن اذن استخدام تلك الآية الكريمة للاستدلال على أنّ بني اسرائيل لم يكونوا يعيشون جميعا في باي-رمسيس. إلا أنّ هنالك الآية ٨٧ أعلاه التي لا يمكن فهمها إلا على أنها تشير الى وجود مجموعة صغيرة فقط من بني إسرائيل في باي-رمسيس عندما عاد موسى الى مصر، وكما هو مبيّن أدناه.

إن الأمر الإلهي في الجزء الأول من الآية ٨٧ من سورة يونس، «**تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا**»، واضح تماما في النص على وجوب إتّخاذ موسى وهارون لبني إسرائيل بيوتا في مصر. إلا أن هذا الأمر يثير فوراً السؤال التالي: ولكن ألم يكن بنو إسرائيل أصلا في مصر؟ بل أن عودة موسى الى مصر كانت لإنقاذ بني إسرائيل من عبوديتهم هناك، فما معنى الأمر الالهي بأن يتبوأ موسى وهارون لبني اسرائيل بيوتا في مصر إذاً؟ إن الإجابة على هذا السؤال، وكذلك فهم المخطط الذي وضعه الله لبني إسرائيل تحت قيادة موسى في مصر، يتطلّبان فهما سليما لإستخدام مصطلح «مصر» في القرآن الكريم. يرد هذا المصطلح في ثلاث آيات إضافة الى الآية ٨٧ من سورة يونس. لنتدبّر أولاً هاتين الآيتين الكريمتين:

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الاَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (يُوسُف: ٢١).

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (يُوسُف: ٩٩).

توضّح هاتان الآيتان من قصة يوسف بأن مصطلح «مِصْرَ» يشير الى الأرض التي استقر فيها اجداد بني إسرائيل الاوائل، أي مصر السفلى أو شمال مصر، أو بشكل اكثر تحديدا الدلتا الشرقية، التي كانت حينئذ تحت حكم الهكسوس. لا يمكن أن يكون مصطلح «مِصْرَ» في الآيتين الكريمتين أعلاه متضمّنا مصر العليا، أي جنوب مصر، أيضا لأنها كانت تحت حكم الفراعنة المصريين. لذلك فإن الأمر الإلهي لموسى وهارون بإتّخاذ بيوتا لبني إسرائيل في «مِصْرَ» عنى بأنه كان عليهم وقومهم أن يستقروا في الدلتا الشرقية، ربما في موقع قريب من المكان الذي عاش فيه أباؤهم الاوائل، حيث سيكونون قريبين من فرعون الذي كان مقيما في باي-رمسيس. إن هذا التفسير يعني، خلافا لإدعاء العهد القديم، بأن بني إسرائيل لم يكونوا **جميعا** يعيشون سوية كمجتمع متميز في باي-رمسيس أساساً. لا يبدو ان من الممكن تفسير الأمر الإلهي لموسى وهارون بأي شكل آخر. فلو كان **جميع** بني إسرائيل يعيشون في مكان واحد فما كان سيكون هناك معنى للأمر الإلهي لموسى وهارون بإتّخاذ بيوت لقومهما في مصر. وكان سيكون من الصعب أيضاً فهم أمر الله لموسى وهارون بالإستقرار في مصر في حين أن من المؤكد ان مستوطنة بني اسرائيل في مصر كانت ستكون مكان سكنهم الطبيعي. كما ذُكر سابقاً، إن هذه الإشارة الضمنيّة في القرآن إلى أن بني إسرائيل كانوا متفرقين في أنحاء مصر كلها ولم يكونوا يعيشون سوية كمجتمع منفصل يتفق تماما مع ما هو متوقع عن ظروف عيش بني إسرائيل وفقا لمعلوماتنا عن اسلوب معاملة الفراعنة للأجانب في مصر.

إنّ مما يدعم هذا التفسير للجزء الأول من الآية ٨٧ من سورة يونس هو جزئها الثاني حيث يأمر الله موسى وهارون بجعل بيوتهم وبيوت قومهم تلك «قِبْلَة». تعني كلمة «قبلة» في العربية، بشكل عامة، «الجهة». أما في السياق الديني الخاص في القرآن فهي مُستَعملة للإشارة الى المكان الذي يتجه نحوه المسلمون عند الصلاة. فالمسجد الحرام في مكة المكرمة الذي يحتضن الكعبة المُشرَّفة يُسمّى «قِبْلَة» صلاة المسلمين. من المعاني ذات الصلة لكلمة «قِبلة» هو «المقصد». فمثلا، ليس من الغريب ان تُستَخدَم كلمة «قِبلة» في العربية المعاصرة في جملة مثل «المكان الفلاني هو "قِبلة" الباحثين»، حيث يُقصَد بأن المكان المذكور بالذات هو الذي يقصده الباحثون للحصول على العلم. وهذا هو المعنى الذي أُستعِملت به كلمة «قِبْلَة» في الآية ٨٧ من سورة يونس. فالمعنى العام للأمر الإلهي الموجّه الى موسى وهارون في هذه الآية الكريمة هو أن يتخذا لهما ولقومهما بيوتا في الدلتا الشرقية وأن يجعلا هذه البيوت نواة ومركزا يتجمع حوله بنو إسرائيل الذين كان معظمهم في ذلك الوقت قد أُضطرِوا الى التفرق في أنحاء مصر البعيدة. وهكذا كان الله ﷻ يجمّع بلطف خفي بني

إسرائيل في مكان واحد مهيّئا إيّاهم لخروجهم المقدور من مصر.

إن التفسير أعلاه لمعنى مصطلح «مِصْرَ» في القرآن الكريم ولمعنى الأمر الإلهي الى موسى وهارون يوضّح سياق الذِكر القرآني الثالث لكلمة «مِصْرَ»: «**وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١). أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢)**» (الزُخْرُف: ٥١-٥٢). إنّ ورود هذه الحجة على لسان فرعون الهائج جاء بعد أن عانى وشعبه آثار الكوارث، أي في مرحلة متأخرة من إقامة موسى في مصر وقبل الخروج بقليل. عندئذ، خلال الـــ ٨-١٠ سنوات التي بقيها موسى في مصر، كان بنو إسرائيل، أو معظمهم على الأقل، قد هاجروا تدريجيا من مختلف انحاء مصر وتجمعوا حيث كان موسى وهارون ومجتمع بني إسرائيل الصغير الاصلي في باي-رمسيس يعيشون. فشكوى فرعون إذن بأن «الدلتا الشرقية» هي ملكه لها علاقة بتجمّع بني إسرائيل في موقع واحد من تلك المنطقة التي كانت تبدو بشكل متزايد كما لو كانت جزءا من مملكة موسى لا مملكة فرعون. إن هذا فقط يفسّر تأكيد فرعون الغاضب بأن «مِصْرَ» هي ملكه.

هناك آيات اخرى تماثل الآيات السابقة في إن من غير الممكن تفسيرها إلا بشكل يدعم الصورة أعلاه عن بني إسرائيل وهم في حالة تنقّل من كافة أنحاء مصر ليتجمّعوا في الدلتا الشرقية:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١). قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢). فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنْ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (الإسراء: ١٠٣).

لما كان قلب الخلاف بين موسى وفرعون هو رفض الأخير السماح لبني إسرائيل مغادرة مصر مع موسى فإنه لا معنى على الاطلاق للقول بأن محاولة فرعون **إستفزاز بني إسرائيل من الأرض** تعني محاولته إجبارهم على الخروج من مصر، كما يرى بعض المفسِّرين (أنظر مثلاً، تفسير الآيات أعلاه عند إبن كثير والجلالين). إلا ان المفسِّرون يحرصون على إغفال الإشارة الى التناقض الذي يخلقه تفسيرهم هذا. أما التفسير الصحيح لهذه الآيات فهو مختلف تماما. كما يتّضح من الآية ١٠١ من سورة الإسراء فإن محاولة فرعون **إستفزاز بني إسرائيل من الأرض** حصلت بعد الكوارث التي أصابته وشعبه، أي في المراحل الأخيرة من خلافه مع موسى. عندئذ كان معظم بني إسرائيل قد تجمعوا في المنطقة التي كان موسى وهارون قد سكناها بأمر من الله. لذلك فإن التفسير

الوحيد والصحيح للآية ١٠٣ من سورة الإسراء هو ان فرعون أراد إخراج بني إسرائيل من الدلتا الشرقية وتفريقهم مرة أخرى في شتى أنحاء مصر.

لقد غدا واضحا الآن السبب العملي لإستغراق خروج بني إسرائيل من مصر بضع سنين. إذ لما كان بنو إسرائيل منتشرين في أنحاء مصر، ولما كان عليهم الهروب من مصر سوية، بمساعدة إلهية، فقد كان عليهم ان يتجمّعوا سوية في مكان قريب من نقطة خروجهم المقدور في المستقبل، حيث أستغرقت هذه العملية ذلك الوقت. أما لماذا حصل الخروج في ذلك الوقت تحديدا فتجيبنا عليه الآية الكريمة ١٠٣ من سورة الإسراء، وهو أن فرعون كان قد قرر بأنه ما كان سيسمح بعد بتوسّع مستوطنة بني اسرائيل أكثر من ذلك وأنّه كان سيقوم بتفريق شملهم مرة أخرى. لذلك أمر الله بني إسرائيل بذلك الهروب غير المتوقع إجهاضا لخطة فرعون.

٨-٣ الخروج: هروب مَشرِقي

إن أحد الاختلافات بين الرواية القرآنيّة لقصة الخروج ومقابلتها في العهد القديم هو موقف فرعون من مغادرة بني إسرائيل. ينص العهد القديم على انه بعد كارثة وفاة أبكار المصريين أستسلم فرعون لطلب موسى وسمح له بإخراج بني إسرائيل من مصر لعبادة الرب:

> *فحدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر في ارض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه الى بكر الأسير الذي في السجن وكل بكر بهيمة. فقام فرعون ليلا هو وكل عبيده وجميع المصريين. وكان صراخ عظيم في مصر. لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت. فدعا موسى وهرون ليلا وقال قوموا اخرجوا من بين شعبي أنتما وبنوا إسرائيل جميعا. وأذهبوا اعبدوا الرب كما تكلّمتم. خذوا غنمكم أيضا وبقركم كما تكلّمتم [أردتم] واذهبوا وباركوني أيضا (الخروج، ١٢: ٢٩-٣٢).*

إلا أن فرعون ندم فيما بعد وقرر ملاحقة بني إسرائيل، الأمر الذي لا يعكس في نظر بعض الناقدين تغيرا في رأي المصريين بل، كما يشير هيات (Hyatt, 1971: 44)، تناقضا في رواية العهد القديم:

> *فلمّا أُخبِر ملك مصر أن الشعب قد هرب تغيّر قلب فرعون وعبيده على الشعب. فقالوا ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا. فشدّ مركبته وأخذ قومه معه (الخروج، ١٤: ٥-٦).*

خلافا للعهد القديم، ينص القرآن العظيم على أن موسى كان صريحا تماما طيلة جدله مع فرعون في أنّه كان يريد إخراج بني إسرائيل من مصر الى الأبد. لم يحاول موسى أبداً إخفاء ذلك بالإدعاء

بأنه كان يرغب فقط في إصطحاب بني إسرائيل في رحلة «*سفر ثلثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا*» (الخروج، ٥: ٣)، كما يذكر العهد القديم. أمّا الفرق الأكثر أهميّة بين القرآن والعهد القديم فهو تأكيد القرآن على ان فرعون لم يوافق على مغادرة بني إسرائيل لمصر:

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢). فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣). وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤). فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥). فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (الأَعْراف: ١٣٦).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦). فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧). وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨). وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩). فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠). وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١). أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢). فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣). فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤). فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (الزُخْرُف: ٥٥).

إن مغادرة بني إسرائيل مصر من غير موافقة فرعون تفسّر أمر الله لموسى بالهرب وقومه تحت جنح الظلام:

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى (طه: ٧٧).

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (الشُّعَراء: ٥٢).

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (الدُخَان: ٢٣).

لقد رأينا في القسم السابق ان هروب بني إسرائيل في تاريخ محدد، كما أمر الله، كان الهدف منه إستباق إجراء فرعون العدواني الجديد الهادف الى تشتيت بني إسرائيل في كافة أنحاء مصر. بعد

أمره لموسى وهارون بتأسيس تلك المستوطنة لتمكين بني إسرائيل من الخروج سوية، ما كان الله ليسمح لفرعون بتنفيذ خطته في تشتيت بني إسرائيل. لذلك أمر الله موسى بمغادرة مصر مع شعبه متخفّين تحت جناح ظلام الليل.

أزعج هروب موسى وشعبه غير المتوقع فرعون الذي قاد جيشاً لملاحقة بني إسرائيل. عندما لحق المصريون ببني اسرائيل أمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه ليشقّه ويفتح فيه طريقا يابسا حيث عبر عليه بنو إسرائيل الى الجهة الأخرى. ولكن عندما تبع فرعون وجنوده بني اسرائيل على نفس الطريق عاد البحر الى حالته الطبيعية ليهلك فرعون وجيشه غرقا:

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (يُونُس: ٩٠).

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى (٧٧). فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (طه: ٧٨).

فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣). وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُغْرَقُونَ (الدُخَان: ٢٤).

تزوّدنا مجموعة الآيات الكريمة التالية بمزيد من المعلومات عن خروج بني اسرائيل:

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٥٢). فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣). إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤). وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥). وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦). فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧). وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨). كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩). فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠). فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١). قَالَ كَلا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِي (٦٢). فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣). وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الأخَرِينَ (٦٤). وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥). ثُمَّ أَغْرَقْنَا الأخَرِينَ (الشُّعَراء: ٦٦).

لقد فهم العديد من المفسّرين معنى كلمة «مُشْرِقِين» في الآية ٦٠ من سورة الشعراء بأنه «عند شروق الشمس» (أنظر مثلا تعليقات القرطبي والطباطبائي والجلالين على هذه الآية الكريمة)، وهو فعلا أحد معاني هذه الكلمة. وفقا لصورة الخروج عند معظم المفسّرين فقد كان هروب بني إسرائيل في الليل فيما بدأ فرعون وجنوده في مطاردتهم في الصباح الباكر. الا أن هذا الفهم لا يمكن إلا أن

يكون خاطئ لأنه يناقض الآية ٥٣ من سورة الشعراء.

إن النص القرآني لا يشير الى أن ملاحقة فرعون وجنوده لبني اسرائيل كانت بعد **بضع ساعات** من هروبهم، كما ذهب المفسِّرون. بل تنص الآية ٥٣ من سورة الشعراء على أن فرعون بعث بعد هروب موسى وأتباعه رُسُلا الى المدن الأخرى لتجميع قوة لمطاردة الهاربين. ومن المؤكد أن عملية التعبئة هذه أستغرقت أياماً عديدة، بل بضعة أسابيع. من الجلي إذا أن فرعون وجيشه لا يمكن ان يكونوا قد بدأوا بمطاردة بني اسرائيل «عند شروق شمس» النهار التالي لليلة مغادرتهم. لو تدبّر المفسِّرون بعض الشيء الآية ٥٣ من سورة الشعراء لما فسّروا كلمة «**مُشْرِقِين**» بمعنى «عند شروق الشمس». حاول مفسِّرون آخرون، كإبن كثير، الإلتفاف حول هذا التناقض بإقتراح أن وصول فرعون وجيشه الى موضع بني إسرائيل، وليس تحرّكهم لملاحقة الهاربين، كان «عند شروق الشمس». ألا ان هذه المحاولة التوفيقية فاشلة لأنها تناقض الآية ٦٠ نفسها من سورة الشعراء التي تنص على ان المصريين «أتبعوا» بني اسرائيل لا «وصلوا» إليهم «**مُشْرِقِين**». إن هذه التفسيرات المخطوءة لا تخلق تناقضات غير موجودة أصلا في القرآن فحسب وإنما تخفي في الوقت نفسه معلومات مهمة عن الخروج تكشفها كلمة «**مُشْرِقِين**».

بالإضافة الى أنها تعني «عند شروق الشمس»، تعني كلمة «**مُشْرِقِين**» أيضا «بإتّجاه الشرق»، وهو معنى هذه الكلمة في الآية أعلاه. بعبارة اخرى، تخبرنا هذه الآية الكريمة بأن بني إسرائيل إتجهوا شرقا عند خروجهم من مصر وكذلك فعل فرعون وجنوده حين لاحقوهم. من الغريب حقا ان يغفل بعض المفسِّرون عن هذا المعنى الواضح ليختاروا معنى لا يقل خطأه وضوحا. هناك طبعا بعض المفسِّرين الذين فسّروا «**مُشْرِقِين**» بمعنى «نحو الشرق» (أنظر تعليق القرطبي على الآية ٦٠ من سورة الشعراء). يجب ان نتذكّر هنا ان القرآن العظيم يخبرنا بأن موسى كان منذ البدء صريحا وصادقا مع فرعون بشأن هدفه في إخراج بني إسرائيل، وبالتالي فإنه لابد ان يكون قد أخبر فرعون أيضا عن المكان الذي كان يريد ان يأخذ قومه اليه، أي أن فرعون كان على علم تام بالإتجاه الذي سلكه بني اسرائيل.

من المهم جذب الأنتباه هنا إلى أنّ القرآن العظيم يستخدم كلمتي «**مَشْرِق**» و «**مَغْرِب**» فقط للإشارة الى الجهات الاربع، وكما في هذه الآية الكريمة، على سبيل المثال: «**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**» (البقرة: ١١٥). أي تشمل كلمة «**مَشْرِق**» في كتاب الله كافة جهات نصف الدائرة من الشمال الى الجنوب التي يقع فيها الشرق، أي التي تتضمّن جهات الشرق والجنوب الشرقي والشمال الشرقي، فيما تشمل كلمة «**مَغْرِب**» كل جهات نصف الدائرة من

الشمال الى الجنوب التي يقع فيها الغرب، أي التي تتضمّن جهات الغرب والجنوب الغربي والشمال الغربي. فكل الجهات التي تُنسَب الى الشرق هي «مَشَارِقِ» وكل الجهات التي تُنسَب الى الغرب هي «مَغَارِبِ»: «فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ» (المعارج: ٤٠). إن هذا الاستعمال الشامل لكلمتي «مَشْرِق» و «مَغْرِب» له علاقة بتغيّر موضعي مشرق ومغرب الشمس خلال أيام السنة، ذلك أن المعنى الحرفي لكلمة «مَشَارِقِ» هو في الواقع «الأماكن التي تشرق منها الشمس» وكلمة «مَغَارِبِ» هو «الأماكن التي تغرب منها الشمس».

لما كان هروب بني إسرائيل تقريبا بإتجاه «الجنوب الشرقي» فإنّ القرآن الكريم يشير اليه بأنه هروباً نحو الشرق وذلك بإشارته إلى أنّ المصريّين طاردوا بني إسرائيل «مُشْرِقِينَ».

إن عدم لحاق المصريين ببني إسرائيل إلا من بعد ان كان هؤلاء قد وصلوا إلى البحر يؤكّد هو الآخر بأنّ خروج المصريّين في إثر بني إسرائيل كان بعد خروج بني إسرائيل بما لا يقل عن إسبوعين، إذا اخذنا بنظر الاعتبار المسافة من باي-رمسيس إلى البحر التي تتجاوز ١٢٠ كيلومتر. من المُرجَّح أنّ بني إسرائيل أستمرّوا في السير من بعد خروجهم الى أن وصلوا إلى البحر حيث لم يعد بأمكانهم التقدّم أكثر. لقد جاء تحرّر بني إسرائيل النهائي مع خطر إقتراب جيش فرعون منهم، إذ عندما أصبح الفريقان على مسافة قريبة من بعضهما بحيث كان كل منهما يرى الفريق الاخر (الشعراء، ٦١)، أمر الله موسى بشق البحر وعبوره مع شعبه. بتركه المصريين يقتربون الى هذا الحد من بني اسرائيل قبل أن يتدخل لأنقاذهم، حقق الله ﷻ هدفين رئيسين. اولا، عرّض بني اسرائيل الى امتحان جدّي لإيمانهم. بينما فشل معظم بني اسرائيل في الامتحان (الشعراء، ٦١)، برهن موسى وبعض من اتباعه بأنهم مؤمنون حقيقيون (الشعراء، ٦٢). ثانيا، أرى الله المصريين معجزة اكبر من كل المعجزات التي كان قد اراهم اياها، مانحاً أياهم فرصة اخيرة للايمان برسوله، إلا انهم فوتّوا هذه الفرصة.

٨-٣ ما عدد بني إسرائيل الذين خرجوا مع النبي موسى؟

رأينا في الفصل الأول أن العهد القديم مليء بالتناقضات الداخلية وأنه يحتوي على الكثير من البيانات الخاطئة بشكل جلي كعدد عدد بني إسرائيل الذين هربوا مع موسى من مصر. فالعهد القديم ينص صراحة على أن عدد الرجال الذين خرجوا مع موسى تاركين مصر هو حوالي ٦٠٠,٠٠٠ رجلا (الخروج، ١٢ :٣٧؛ الأعداد، ١: ٤٦). إلا أنّه من غير الممكن توفيق هذا العدد مع إدعاءات العهد القديم الأخرى بأن إقامة بني إسرائيل في مصر دامت ٤٣٠ (الخروج، ١٢: ٤٠-٤١) أو

٤٠٠ سنة (التكوين، ١٥: ١٣)، وأن عدد رجالهم عند دخولهم مصر كان سبعون رجلاً فقط (التكوين، ٤٦: ٢٦-٢٧؛ الخروج، ١ :٥). كما ذُكِر أيضاً في العهد القديم بأن بني إسرائيل كانوا سيخرجون من مصر خلال الجيل الرابع من سلالة إبراهيم، وفقا للتكوين (١٥: ١٦)، أو الجيل الرابع من سلالة يعقوب، كما يشير الخروج (٦: ١٤-٢٦) ضمنيّاً. بالإضافة الى ذلك، هناك عدد من نصوص العهد القديم التي تبيّن، على خلاف ما تقدّم من إدعاءات ذلك الكتاب نفسه، بأن عدد بني إسرائيل كان أقل من عدد شعوب أخرى في كنعان (التثنية ٧: ١، ٧،١٧؛ ٩: ١؛ ١١: ٢٣). كما أن من غير الممكن توفيق عدد بني إسرائيل الضخم في العهد القديم مع إدعاء هذا الاخير بوجود قابلتين فقط للعناية بنساء بني اسرائيل (الخروج، ١: ١٥).

سنناقش أولا عدم تطابق عدد بني إسرائيل الهاربين في العهد القديم مع الحقائق التاريخية من مصادر من خارج العهد القديم، قبل أستشارة القرآن العظيم بشأن هذا الأمر.

ليس الإعتراض على إدعاء العهد القديم بأن عدد رجال بني اسرائيل الهاربين من مصر كان ٦٠٠,٠٠٠ بجديد. يشير هيز مثلا الى مقالة نُشرت في القرن الثامن عشر كتبها الألماني هـ. س. رايماروس عن «عبور بني إسرائيل للبحر الأحمر» حدّد فيها إستحالات يخلقها التفسير الحرفي لرواية العهد القديم عن عبور البحر. مشيراً الى إدعاء العهد القديم بأن عدد رجال بني إسرائيل الذين عبروا البحر كان ٦٠٠,٠٠٠، إضافة الى أناس اخرين غير محددين (الخروج، ١٢: ٣٨)، ومن تخمين عدد النساء والأطفال والحيوانات الذين كانوا في معية ذلك العدد من الرجال، استنتج راماروس بأن الخليط الذي عبر البحر كان سيكون متكوّنا من «حوالي ثلاثة ملايين من البشر، ٣٠٠ ألف ثور وبقرة، و ٦٠٠ ألف خروف ومعزة» وتبعاً لذلك، «لابد أن ذلك تطلّب حوالي خمسة آلاف عربة لنقل المؤونة و٣٠٠ ألف خيمة لسكن الناس، بمعدل عشرة أشخاص لكل خيمة. ولو كانت هذه الجموع قد مشت على شكل صف عرضه عشرة أشخاص، لكان الثلاثة ملايين شخص سيشكّلون طابورا طوله حوالي ١٨٠ ميل [٣٠٠ كيلومتر]. كان هذا سيتطلب تسعة أيام على الأقل لعبور البحر». ولنترك جانبا مسألة مدى دقة هذه الحسابات حيث أن ما يهمّنا ملاحظته في هذا المثال هو أن عدد الـ ٦٠٠,٠٠٠ في العهد القديم هوجم بشدة من قبل النقّاد منذ القدم كما أكد هيز (Hayes, 1977: 50) الذي استشهدنا اعلاه بصياغته لما قاله رايماروس.

يتفق الباحثون المحدثون على أن العدد ٦٠٠,٠٠٠ هو مبالغة فلكية. إذ يشير فيليب هيات الى أن العدد الكبير المزعوم لبني إسرائيل لا يمكن أن يكون موثوقا إذا أخذنا بنظر الاعتبار العدد الذي يمكن ان يكون قد أُستُخدِمَ في مصر (Hyatt, 1971: 139)، فيما يقول ريدفورد ساخراً «في صباح

الخروج كان عدد بني إسرائيل حوالي ٢,٥ مليون (بإستخلاص الرقم استقرائيا من سِفر الأعداد، ١: ٤٦)؛ بينما كان كل سكان مصر في ذلك الوقت يتراوح بين ٣ الى ٤,٥ مليون فقط!» (Redford, 1992: 408). أما باروخ هالبيرن، أستاذ التاريخ القديم والدراسات اليهودية في جامعة ولاية بنسلفانيا الأمريكية، فيرفض حتى الرقم ٨٠ ألف الذي يذكره الكاهن المصري مانيثو (Halpern, 1992: 105). كما أشار فرانك يوركو إلى أنّه إذا كان عدد بني إسرائيل «تضمَّن في البدء سلالة يعقوب فقط فإن ٦٠٠٠، أو حتى ٦٠٠، كان سيكون رقما أكثر معقولا» (Yurco, 1997: 49). كما أقترح هيات هو ألآخر بأن «من المرجَّح أن يكون الرقم الصحيح بضعة آلاف» وأن «التراث ضخمّ العدد في الفترة بين الخروج و[تكوّن] أولى الروايات» (Hyatt, 1971: 139). ولاحظ هيات وباحثون آخرون (مثلا Dever, 1997: 72) أيضاً بأن الصحراء بين مصر وفلسطين لا يمكن ان تكون قد أعالت ٢-٣ مليون إنسان مع ماشيتهم كما تدّعي نسخة الخروج في العهد القديم. كما اعترض الباحثون على النتائج الضمنيّة لهجرة مثل هذا العدد الكبير من الناس الى كنعان والتي لا يوجد أي دليل من علم الآثار يؤيد حدوثها.

تلخيصا لما سبق، إن الإدعاء بأن ٦٠٠,٠٠٠ من رجال بني إسرائيل رحلوا مع عوائلهم وحيواناتهم الحية وعدد أخر غير محدد من الناس هو ببساطة أمر مستحيل. يرفض كثير من الباحثين تاريخيّة خروجٍ من النوع الذي يصفه العهد القديم، أي كونه هجرة لبضعة ملايين من بني إسرائيل من مصر الى كنعان. لذلك فإن تقليل هذا العدد بشكل كبير يجعل من الخروج حدثا يمكن ان يكون قد وقع حتى في أعين العديد من الباحثين الذين يرفضون رواية العهد القديم عن الخروج. إن خروج عدد قليل نسبيّاً من الناس يمكن ان يكون قد وقع من دون إحداث أضطراب رئيس في المنطقة. وكما يذكر وارد: «هناك بعض التلميحات هنا وهناك تشير الى أن شيء شبيه بالخروج يمكن ان يكون قد حصل، ولكن على مقياس أصغر بشكل كبير، إلا أنه لا توجد كلمة في نص او مصنوعة آثارية تعطي مصداقيّة لرواية العهد القديم كما نعرفها اليوم» (Ward, 1997: 105). مؤكدا غياب أي دليل من خارج العهد القديم على «رواية العهد القديم للأقامة في مصر او هجرة على مقياس كبير لبني اسرائيل الى خارج ذلك البلد»، يذهب جيمس فاينشتاين الى الاستنتاج بأن «إذا كان هنالك خروج تاريخي، فإن المرجّح أنه شمل عدداً صغيراً من الساميين الذين هاجروا من مصر في نهاية القرن الثالث عشر أو أوائل القرن الثاني عشر ق.م» (Weinstein, 1997: 87, 98). سواء يقبلون او يرفضون في النهاية أحتمال تاريخيّة الخروج، فإن ما يتفق عليه الباحثون هو أن عدد الهاربين من بني إسرائيل كان سيكون قليلا، أقل بكثير من الرقم المستحيل ٢-٣ ملايين. إن هذا

يتفق بالفعل مع ما قاله القرآن العظيم حول هذا الامر قبل أربعة عشر قرنا مضت.

على الخلاف من إدعاء العهد القديم المُبالَغ فيه، وفي توافق مع مؤشرات البحث الآثاري والتاريخي، ينص القرآن العظيم على أن عدد بني إسرائيل الذين تركوا مصر مع موسى كان قليلا. وتأتي هذه الإشارة الى العدد القليل في وصف فرعون لبني إسرائيل بأنهم «**شِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ**»: «**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ** (٥٢). **فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ** (٥٣). **إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ** (٥٤). **وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ** (٥٥). **وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ** (٥٦)» (الشُعَراء: ٥٢-٥٦). تبيّن هذه الآيات تشجّع فرعون على ملاحقة بني إسرائيل بحقيقة كونهم مجموعة صغيرة، ربما بضعة آلاف، بالمقارنة مع جيشه الضخم. يناقض هذا بشكل واضح ما يشير اليه العهد القديم ضمنياً حول مغادرة ٢-٣ مليون من بني إسرائيل لمصر مع موسى. إن الكلمة العربية «**شِرْذِمَة**» التي وردت في الآية ٥٤ من سورة الشعراء تُستَخدَم للإشارة الى مجموعات صغيرة. فمجموعة من عشرات الآلاف لا يُقال عنها «**شِرْذِمَة**». كما تحمل هذه الكلمة أيضاً معنى الحرمان من الحلفاء. أي ان فرعون قال لقومه أن عدد بني إسرائيل قليل وليس لهم حلفاء يعتمدون عليهم.

إن وصف فرعون لبني إسرائيل الفارين منه بـــ «**شِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ**» هو دليل آخر على نوع الخطر الذي رآه في مغادرتهم والذي قاوم حصوله بقوة لمدّة طويلة (أنظر القسم ٥-٢). إذ يذكِّر فرعون شعبه هنا بأنهم يجب أن يدمروا هؤلاء **الشرذمة القليلين** قبل ان يتّحدوا مع ساميين آخرين ويصبحوا **كثيرين وأولي حلفاء**. ويتّضح قلق فرعون هذا أكثر حين يُتبِع وصفه لبني أسرائيل بأنهم «**شِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ**» بقوله «**وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ**»، أشارة الى خوفه من «تجمّع» بني إسرائيل مع حلفاء آخرين. إذ لم يشكك فرعون أبدا بإعتقاده الخاطيء بأن موسى كان سيأخذ بني إسرائيل خارج مصر ليجمع المزيد من الساميّن ومن ثمّ يعود معهم لإخراج المصريين من باي-رمسيس وإعادة حكم المملكة السامية.

إن أحد الأمثلة على تأثير العهد القديم على المفسِّرين المسلمين هو أنهم غالبا ما يدّعون بأن عدد بني إسرائيل عند مغادرتهم مصر كان «ستمائة الف وسبعين ألف». إن إستخدام الرقم السحري «ستمائة الف» جدير بالملاحظة (أنظر مثلا القرطبي الذي يذكر في تفسيره للآية ٨٣ من سورة يونس بأن إبن عباس قال أن بني إسرائيل كانوا «ستمائة ألف»). من الواضح أن هؤلاء المفسِّرون نقلوا هذه المعلومة مباشرة من العهد القديم. في الواقع ان أية اشارة الى أن عدد بني اسرائيل كان كبيرا يعكس تأثّرا برواية العهد القديم. وما يزيد الطين بلّة أن نجد بعض المفسِّرين يقررون عند تفسيرهم للآية ٥٣ من سورة يونس على وجه الخصوص بأن بني إسرائيل كانوا «جمع عظيم» رغم

ان الآية الكريمة التي تليها تشير بوضوح الى قلة عدد بني إسرائيل (أنظر تفسير القرطبي)! إن من المُحيّر حقا أن يُساء بهذا الشكل تفسير آية غاية في الوضوح في إشارتها إلى قلة عدد بني اسرائيل.

قام رمسيس الثاني، وهو الرجل الهرم الذي من المرجَّح أنه كان في التسعينات من عمره، بنفسه بملاحقة بني إسرائيل لأن المواجهة مع موسى كانت قد أصبحت قضية شخصية بالنسبة له. إذ أراد رمسيس الثاني أن يرى بعينيه تدمير بني إسرائيل. إلا أن حقيقة أن بني إسرائيل لم يكونوا شعبا كبيرا لابد وأن تكون في أسهمت في إقناعه بالاشتراك شخصيا في ذلك العمل العسكري. إن رمسيس الثاني الهرم لم يظن بأنه كان سيقود معركة عسكرية كبيرة. فقد كان ذلك تحرّكا على مقياس صغير ضد مجموعة صغيرة من العبيد السابقين العُزّل وقائدهم. لم يتوقَّع رمسيس الثاني المتهالك معركة من أي نوع بل مجرد إستسلام بني إسرائيل الكامل للذبح. إلا ان ما حصل كان مختلفا تماما. لابد أن ما حدث كان مفاجأة تامة لرمسيس الثاني، مفاجأة غير مرغوب فيها بالتأكيد.

٨-٤ بنو إسرائيل بعد الخروج

يورِد القرآن الكريم معلومات تاريخيّة محدودة عن بني إسرائيل بعد مغادرتهم لمصر مباشرة مما له علاقة مباشرة بموضوع هذا الكتاب. مما يجدر ذكره على وجه الخصوص هو ان القرآن الكريم لا يحتوي أية معلومات تؤيّد رواية العهد القديم عن غزو بني إسرائيل لكنعان. في الحقيقة، إنّ الصورة التي جاءت في العهد القديم، تحديدا من الفصل الثالث عشر لسِفر الأعداد والى نهاية سِفر يوشع، تصف غزوا سريعا نسبيّاً، كاملا ومستمرّا بشكل منتظم من قبل بني إسرائيل الموحَّدين تحت قيادة موسى ويوشع تتناقض بصورة مهمة مع الوصف الموجود في سفر آخر من أسفار العهد القديم. فسِفر القضاة يصوّر هذا الغزو على شكل عملية اكثر تدريجيةً قامت بها قبائل من بني إسرائيل تعمل بصورة منفردة، ولم تنجح دائما في محاولاتها الاولى في الغزو (Miller, 1977). لا عجب إذن أن نجد بأن الحفريات الآثارية في مواقع غزو كنعان وفقا للعهد القديم قد كشفت عن مشاكل تاريخيّة هائلة في رواية العهد القديم (مثلا Dever, 1992). إلا ان الموضوع المعقّد حول إستقرار بني إسرائيل في كنعان يقع خارج مجال هذه الدراسة ولن نحتاج للتعرض اليه وذلك لعدم وجود تفاصيل ذات صلة به في القرآن العظيم.

إلا أن القرآن العظيم يذكر بعض الأحداث ذات العلاقة بحياة بني إسرائيل بعد الخروج. وصورة بني إسرائيل هنا هي صورة شعب يُسيء أفراده التصرف بإستمرار في مختلف المواقف على الرغم من المعجزات التي شهدوها، كاشفين عن صفات سيئة من عدم الصبر والتشكّي وضعف الأيمان

والتشكيك المستمر في أحكام موسى وتعليماته. من الحوادث التي يشير اليها القرآن العظيم في أكثر من موضع هي عبادة بني إسرائيل للعجل أثناء غياب موسى لأربعين يوما قضاها في خلوة مع الله (البقرة: ٥١-٥٤؛ الأعراف: ١٤٨-١٥٣؛ طه: ٨٣-٩٨). كشفت هذه الحادثة والحوادث التي سيرد ذكرها أدناه أيضا حجم التأثير الكبير الذي تركه العيش بين المصريين على بني إسرائيل. إذ أنّهم عادوا للسقوط بكل سهولة فريسة لعبادة وثنية لعجل بعد أن تركهم موسى لمدة خلوته القصيرة نسبيّا مع الرب، وبالرغم من وجود هارون بينهم. لابد أن عدد الذين عبدوا العجل من بني إسرائيل كان من الضخامة بحيث جعل هارون يخشى أن يؤدي تدخّله لأنهاء سلوكهم الوثني الى انشقاق كبير في مجتمع بني اسرائيل، وهو ما كان موسى قد أمره أن يتفاداه: «**قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢). أَلَّا تَتَّبِعَنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣). قَالَ يَبْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)**» (طه: ٩٢-٩٤).

من أول أحداث ما بعد الخروج التي يذكرها القرآن العظيم هي لقاء بني إسرائيل بقوم من عبدة الأوثان. إذ يخبرنا القرآن عن طلب بني إسرائيل من موسى ان يجعل لهم صنما ليعبدوه، على غرار ما كان يفعل أولئك القوم، ورفض موسى لطلبهم وتعنيفه لهم على جهلهم هذا. يبدو ان القرآن يشير ضمنياً إلى أن بني إسرائيل لم يحاربوا أولئك القوم:

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨). إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩). قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠). وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١). وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (الأعراف: ١٤٢).

كان أحد الأهداف الرئيسة للخروج هو دخول بني إسرائيل الى **الأرض المُباركة** او **المُقدَّسة**، كما يتّضح من الآيات التالية:

وَقَالَ الْمَلا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧). قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ

الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨). قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (الأعْراف: ١٢٩).

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ (القَصَص: ٥).

لما كانت بعض اجزاء الأرض المقدسة أصلا تحت حكم أتباع للمصريين، ولما كان الخروج أدى الى غرق فرعون، وفي النهاية سقوط تلك الأرض بيد بني إسرائيل، فإن القرآن يستخدم الفعل **يرث** للإشارة الى استيلاء بني اسرائيل على الأرض المقدسة، كما يتّضح في الآيات المذكورة أعلاه.

ولكن من الضروري قبل أن نتقدّم أكثر أن نتعرَّف على الأرض المُشار أليها **بالأرض المُباركة او المُقدَّسة** في القرآن العظيم. تذكر الآيات الكريمة التالية **الأرض المُباركة** التي كان قد قُدِّر لبني إسرائيل إحتلالها:

وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (الأَنبِيَاء: ٧١).

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (الأَنبِيَاء: ٨١).

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (الأعْراف: ١٣٧).

يمكن إستنتاج عدد من الحقائق عن الأرض المُباركة من الآيات الثلاث السابقة. تبيّن الآية الكريمة ٧١ من سورة الأنبياء بأنّ الأرض المُباركة هي تلك التي ذهب اليها النبي إبراهيم في مرحلة ما بعد تركه لقومه الذين حاولوا حرقه حيا بسبب تعاليمه الدينية، والتي عاش فيها النبي لوط أيضا. وتخبرنا الآية ٨١ من سورة الأنبياء بأنها الأرض التي حكم فيها سليمان. أخيرا، إن يعني تعبير «**مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا**» في الآية ١٣٧ من سورة الأعراف بأن الله أورثَ بني إسرائيل **كل** الأرض المُقدَّسة. كما يمكن أن يعني هذا التعبير ضمنيّا بأن الأرض المُقدَّسة كانت كبيرة الى الحد الذي يبرّر الإشارة الى **مشارقها ومغاربها**. من الواضح أن هذه الآيات لا تبرّر مساواة الأرض المقدسة بكنعان، إلا أنها تبيّن بأن الأولى كانت جزءاً من الأخيرة.

في مجموعة الآيات التالية معلومات مهمة أخرى عن تاريخ بني إسرائيل بعد خروجهم من

مصر مباشرة:

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠). يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١). قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢). قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣). قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤). قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥). قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (الْمَائِدَة: ٢٦).

من الملاحظ أن تمرّد بني إسرائيل ورفضهم دخول الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ عن طريق القتال بحجة أنه كان سيكون عليهم قتال قوم أقوياء، يعني أنهم أنفسهم لم يكونوا قوما أقوياء. كما أن من الملاحظات ذات الدلالة أن نجد أن الرجلين المؤمنان لم يحاولا إقناع بني إسرائيل في دخول الأرض المقدسة على أساس أنهم أمة قوية ولكن بتذكيرهم بأن النصر لابد وأن يكون حليفهم لأن دخولهم الأرض كان سيكون إطاعة لأمر الله. إن هذا يتفق مع الوصف القرآني لبني إسرائيل الذين فرّوا من مصر بأنهم أمة قليلة العدد، فيما يتعارض مع إدعاء العهد القديم بأن رجال بني إسرائيل فقط الذين غادروا مصر كانوا ٦٠٠,٠٠٠. كما أنّ إستخدام بني إسرائيل لتعبير «رَبُّكَ» عند خطابهم لموسى، وكأنّ رب موسى غير ربّهم، هو مؤشّر آخر على ما سبقت الإشارة اليه من تغلغل الأفكار الإشراكية عميقا في عقول بني إسرائيل نتيجة عيشهم بين المصريّين.

ونجد معلومات أخرى عن بني إسرائيل بعد الخروج مباشرة في مجموعة الآيات التالية:

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣). وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (النِّسَاء: ١٥٤).

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ

فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠). وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١). فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (الأعراف: ١٦٢).

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ (٥٠). وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١). ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢). وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣). وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤). وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥). ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦). وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧). وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨). فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩). وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠). وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (البقرة: ٦١).

من الممكن أن القرية التي أُمر بني إسرائيل بسكناها في الآيتين ١٦١ من سورة الاعراف و ٥٨ من سورة البقرة كانت في الأرض المُقدَّسة. إن إستخدام كلمة «الْبَابَ» في الآيتين المذكورتين يوحي بوجود إرتباط مع الآيات ٢١-٢٦ من سورة المائدة التي تتحدث بوضوح عن فشل بني إسرائيل في تنفيذ أمر الله بدخول الأرض المُقدَّسة. أما كلمة «حِطَّةٌ» التي وردت مرّتين في الآيتين ١٦١ من سورة الاعراف و ٥٨ من سورة البقرة فقد حيّرت المفسِّرين الذين اقترحوا عدة معاني غير مقنعة.

إذا إفترضنا أن رفض بني إسرائيل دخول الأرض المُقدَّسة وما تلاه من عقوبة إلهية لهم

بتشريدهم خارجها لمدّة أربعين عاماً حصلا بعد خروجهم من مصر بوقت قصير، فإن الحدث الموصوف في الآية ٦١ من سورة البقرة يجب ان يكون قد وقع في وقت ما خلال تلك الأربعين عاما. إلا أن بني إسرائيل االقليلي الصبر ما كانوا سينتظروا لسنوات قبل أن يصرّحوا بضيقهم مما كانوا يُرزقون من المن والسلوى (البقرة: ٥٧). لذلك فإن هذا الحدث لابد أن يكون قد حدث مُبكِّرا في سنوات العقاب الأربعين. إن الآية ٦١ من سورة البقرة لا تحدّد المدينة التي ذهب بنو إسرائيل للعيش فيها، إلا ان المضمون الواضح هو أنها كانت **خارج** الأرض المُقدَّسة.

إن الآية ٢٦ من سورة المائدة التي تذكر حرمان بني إسرائيل من دخول الأرض المُقدَّسة لمدّة أربعين عاماً تعني ضمنيّاً بأنهم دخلوها بعد ذلك. كما أن هناك إشارات صريحة في القرآن العظيم الى دخول بني إسرائيل للأرض المُقدَّسة بعد إنتهاء عقوبة الأربعين عاماً. وهنا أيضا نجد هذا الأمر موصوفا على أنه **وِراثة** لشعب فرعون من قبل بني إسرائيل:

فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧). وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨). كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (الشُّعَراء: ٥٩).

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥). وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦). وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧). كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨). فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (الدُخان: ٢٩).

فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦). وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧). وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (الأَعْراف: ١٣٨).

من الواضح أن الآية ١٣٨ من سورة الاعراف هي إستمرار للآية ١٣٦ من تلك السورة حيث تروي حادثا من الواضح حصوله قبل دخول بني إسرائيل الى الأرض المُقدَّسة المُشار اليه في الآية ١٣٧ من نفس السورة. إن المقصود من الإشارة الى دخول بني إسرائيل الى الأرض المُقدَّسة (الاعراف: ١٣٧) مباشرة بعد ذكر هلاك فرعون وجنوده (الاعراف: ١٣٦) هو التأكيد على أن هذه العقوبة الإلهية أدت، لاحقا، الى إحتلال بني إسرائيل للأرض المُقدَّسة. كما أشرنا في القسم ٣-١، لا يذكر القرآن العظيم أحيانا الأحداث بحسب تسلسلها التاريخي وذلك لسبب أو لآخر. إلا أنّ من

الممكن عادة تحديد هذه الحالات بسهولة من نفس مجموعة الآيات، كما في الحالة اعلاه، أو بالمقارنة مع آيات قرآنيّة أخرى.

يجب فهم نهاية الآية ١٣٧ من سورة الاعراف على أنها تشير الى ما بناه فرعون وشعبه في الأرض المُقدَّسة لا في مصر. من الواضح أن إحتلال بني إسرائيل للأرض المُقدَّسة سبّبَ دمار مباني فرعون وشعبه في الأرض المُقدَّسة لا في مصر. قد يشير هذا **التدمير** إلى حصول غزو عسكري في بعض أجزاء الأرض المُبارَكة.

كما ذُكر سابقاً، من الواضح أن الأرض المُشار إليها في الآية ١٣٧ من سورة الاعراف والتي يصفها الله بقوله «**الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**» هي نفس الأرض التي ذُكِرَت في الآيتين ٧١ و ٨١ من سورة الانبياء والتي تسمّيها الآية ٢١ من سورة المائدة «**الأرْضَ الْمُقَدَّسَةَ**» والتي تقع في كنعان. إلا ان بعض المفسِّرين أقترحوا خطأ بأن الأرض المُشار إليها في الآية ١٣٧ من سورة الاعراف تشمل مصر أيضاً (أنظر مثلاً تعليق القرطبي على الآية ١٣٧ من سورة الاعراف). إن مما مهّد لتفسير القرطبي الخاطئ هو فشله في الربط بين عبارة «**الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**» في الآية ١٣٧ من سورة الاعراف مع نفس العبارة في الآيتين ٧١ و ٨١ من سورة الأنبياء، وعلى الأخص مع عبارة «**الأرْضَ الْمُقَدَّسَةَ**» في الآية ٢١ من سورة المائدة، مسيئاً فهم عبارة «**الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**» على أنّها تشير الى أنّ الأرض بُوركَت بـــ «إخراج الزروع والثمار والانهار». كما أقترح الجلالين ان مباركة الأرض لها علاقة بـــ «الماء والشجر» ولكنهما مع ذلك أدركا بإن تلك الأرض هي كنعان (أنظر تفسير الجلالين للآية ٧: ١٣٧). إن البركة المشار إليها في الآيات المذكورة أعلاه هي بركة روحية ولذلك سُمِّيت الأرض في الآية ٢١ من سورة المائدة بـــ «**الأرْضَ الْمُقَدَّسَةَ**»، رغم ان هذه البركة تعني أيضاً أنها أرض جميلة ومثمرة.

كما أساء المفسِّرون أيضا فهم كلمة «**الأَرْضَ**» في الآية ١٠٤ من سورة الإسراء معتقدين بأنها تشمل مصر (أنظر تعليق القرطبي وإبن كثير على هاتين الآيتين): «**فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا** (١٠٣). **وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا** (١٠٤)» (الإسراء: ١٠٤). إلا أن قراءة شاملة للآيات القرآنيّة ذات العلاقة تبيّن بوضوح مطلق بأن «**الأَرْض**» المقصودة في الآية ١٠٣ من سورة الإسراء هي الدلتا الشرقية في مصر السفلى (شمال مصر)، كما بيّنا في القسم ٨-١، بينما «**الأَرْضَ**» في الآية ١٠٤ من سورة الإسراء تشير بدون شك الى الأرض المُقدَّسة. إن الخطأ في تحديد هذه الأرض من قبل المفسِّرين يعني أيضاً فشلهم في إدراك أن الآية ١٠٤ من سورة الإسراء تشير الى وعد الله الثاني بإخراج بني إسرائيل من

الأرض المُقدّسة بعد إفسادهم في الأرض وتصرّفهم فيها بكِبَر، وهو الوعد المذكور في بداية سورة الإسراء نفسها:

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤). فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥). ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦). إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧). عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (الإسراء: ٨).

إن هنالك سوء فهم شائع لما يمثّله «الوعدان» اللذان تشير اليهما هذه الآيات الكريمة. إن هذين «الوعدين» لا يشيران الى «إحتلالين» لبني اسرائيل للأرض المُقدّسة وإنما الى «إنتقامين» إلهيين يضعان حدّا لتلكما الإحتلالين. فقوله تعالى «**وَعْدُ أُولاهُمَا**» إنّما يشير الى الوعد الإلهي بإنهاء أول الاحتلالين، حيث يصف الله هذا الوعد بقوله ﷻ «**بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ**»، فيما يبيّن قوله «**وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا**» بأن هذا الإنتقام هو المقصود بالوعد الأول. أمّا «**وَعْدُ الآخِرَةِ**» فيشير إلى الوعد الإلهي الثاني الذي يتبع وينهي إحتلال بني إسرائيل الأخير للأرض المُقدّسة، ويصف هذا الوعد قوله الحكيم «**لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا**». إن هذه الملاحظة تعني فيما تعنيه بإن تعبير «الأرض الموعودة» الذي إستخدمه بنو إسرائيل منذ قرون طويلة، والذي شاع أستعماله بين المسلمين أيضا نقلا عن بني إسرائيل، هو تعبير خاطئ تماما يعكس فهما مشوّها لما كان قد أنزله الله في التوارة وأعاد ذكره في القرآن العظيم.

لقد وقع الاحتلال الأول عند دخول بني إسرائيل الأرض المقدّسة بعد أربعين عاماً على الخروج، فيما تحقّق الوعد الأول مبكّرا في القرن السادس ق.م عندما سقطت مملكة اليهودية على يد البابليين بقيادة نبوخذ نصر الثاني (٦٣٠-٥٦٢ ق.م) الذي دمّر القدس وأخذ اليهود سبايا الى المنفى في بابل. أما التجمع الثاني والأخير لبني إسرائيل في الأرض المقدسة فهو الذي حدث في القرن العشرين وشهد إعادة تكوين دولة إسرائيل. إن إستخدام الله لكلمة «**لَفِيفًا**» هو مظهر باهر بشكل أستثنائي من مظاهر الإعجاز القرآني لأن هذه الكلمة تعني «خليطاً من أنواع شتى ومن كل مكان»، وهو أدق ما يمكن أن يوصَف به سكّان الارض المُقدّسة اليوم من بني اسرائيل الذين تجمّعوا هناك **من كل مكان**

من العالم.

والآن، إن كون دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة حدث بعد أربعين عاما من الخروج، الذي حصل بدوره عام ١٢١٢ ق.م، يعني أننا نستطيع تحديد تاريخ دخول بني إسرائيل للأرض المقدسة في عام ١١٧٢ ق.م بالضبط. بعبارة أخرى، ولتفادي أية لادقة مُتَضَمَّنة في تحديد تاريخ وفاة رمسيس الثاني في عام ١٢١٢ ق.م، من الأوثق تحديد دخول بني إسرائيل للأرض المقدسة بدلالة سنوات حكم الفراعنة. ويأخذنا هذا الى السنة الحادية عشرة من حكم الفرعون الثاني من السلالة العشرين، أي رمسيس الثالث (١١٨٢-١١٥١ ق.م). من المثير للأنتباه هو أن رمسيس الثالث كان مشغولا في سنة حكمه الحادية عشرة في حملة عسكرية كبيرة سحق فيها غزاةً حاولوا إحتلال الدلتا. فهل شغل هذا الغزو رمسيس الثالث ويسّر دخولا غير مُعكَّر الصفو لبني إسرائيل الى الأرض المُقدّسة؟ إن هذا يبدو محتملا بل ومُرجّحا. من المهم ملاحظة أن التحريات الآثارية الحديثة تُشير بشكل متزايد الى تاريخ في القرن الثاني عشر وليس الثالث عشر ق.م لدخول بني إسرائيل للأرض المُقدّسة (Rendsburg, 1992)، وهو أمر يتفق تماما مع التأريخ القرآني للخروج. إن القرآن العظيم لا يخبرنا كيف دخل بنو إسرائيل الأرض المُقدّسة ولا أية مدن أحتلوا أولاً.

من الضروري الإشارة الى أن معظم الباحثين لا يأخذون محمل الجد إدعاء العهد القديم بضياع بني اسرائيل أربعين سنة في البرية، أي لا يعتقدون بوجود أساس تاريخي لهذا الإدّعاء، على الارجح لأنه يبدو حدث ديني بحت. لذلك، يعتبر الباحثون تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر هو نفس تاريخ دخولهم الى الأرض المُقدّسة. وهذا بدوره يعني بأنه حتى إذا تمكّن الباحثون من تحديد أحد التاريخين بصورة صحيحة فمن المُحتَّم أن يكون تحديدهم للثاني خطأ. فمثلاً قدّم غاري ريندزبورغ من جامعة كورنيل في بحث له صورة مقنعة على أن تاريخ أحتلال بني اسرائيل لكنعان وأستقرارهم فيها كان في منتصف القرن الثاني عشر ق.م. ولكن بسبب إهماله للعقوبة الإلهية التي استغرقت اربعين سنة نراه يصل الى الاستنتاج بأن الخروج نفسه كان في تلك الفترة ايضا. من المثير للأهتمام، وفي توافق مع استنتاجاته، يقدّر ريندزبورغ بأن الخروج كان قد حصل في عام ١١٧٥ ق.م، متزامنا مع حرب رمسيس الثالث ضد «شعب البحر» في سنة حكمه الثامنة (Rendsburg, 1992). إن هذا التاريخ قريب جدا من ١١٧٢ ق.م الذي هو تاريخ دخول بني إسرائيل إلى الأرض المُقدّسة وفقا لحساباتنا المبنيّة على الرواية القرآنيّة، إلا أن هذا التاريخ الأخير مشتق من تأريخ حادثة الخروج في سنة هلاك رمسيس الثاني. بعبارة أخرى، إن الدليل المتماسك الذي يقدّمه ريدزبيرغ هو عن تاريخ إستقرار بني إسرائيل في كنعان، إلا أن تحديده لتاريخ الخروج لا يعدو أن

يكون تخميناً. من جهة أخرى، إن تحديد تاريخ دخول بني إسرائيل الى الأرض المُقدّسة وفقا الرواية القرآنيّة في عام ١١٧٢ ق.م، والذي يتفق مع الدلائل الآثارية، تم التوصّل اليه من تحديد تاريخ الخروج بشكل الدقيق في عام ١٢١٢ ق.م، إذ يبلغنا القرآن أن الخروج أنهى حياة رمسيس الثاني. وهكذا فإن اللُقيّات الآثارية تقدّم دليلا مباشرا على دقّة التاريخ القرآني لدخول بني إسرائيل الى الأرض المقدسة وفي الوقت نفسه دليلا غير مباشر على تاريخ خروجهم من مصر.

والآن، هل للمرء ان يتوقّع وجود سجلات في مصر تشير، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، الى دخول بني إسرائيل الى الأرض المُقدّسة؟ يبدو أن هذا يعتمد على عدد من العوامل. إن أحد العوامل المهمة هنا هو الكيفيّة التي دخل بها بني إسرائيل الى الأرض المُقدّسة. إذ أنه إذا كان الخروج قد حدث بشكل قريب من وصف العهد القديم له، أي على شكل غزو ضخم لمدن كنعانية، فإن مضمون ذلك واضح. فقد كانت تلك المدن تحت إدارة أتباع لفرعون ولذلك فلابد أن أولئك الرؤساء المحليين قاموا بإبلاغ رئيسهم في مصر عن تقدّم بني إسرائيل، كما في حالة رسائل العمارنة المسمارية من القرن الرابع عشر ق.م التي تحتوي على شكاوى من الحكّام المحليّين في كنعان الى فرعون عن تهديدات كانوا يواجهونها من أعداء مصر. أما توفّر مثل هذه السجلات لنا اليوم فهو أمر مختلف تماما يعتمد على عدة عوامل. من جهة أخرى، إذا لم يكن دخول بني إسرائيل حادثا كبيرا بالنسبة للمصريين فيجب ان لا نستغرب إذا مر من دون أن يُلاحَظ، رغم أن الظهور التدريجي لمملكة جديدة لا يمكن ان يكون أمرا ثانويا يسهل إهماله.

٨-٥ ستيلي إسرائيل لمرنبتاح

في عام ١٨٩٦ عثر فليندر بيتري في خرائب معبد-مقبرة مرنبتاح في طيبة الغربية على ستيلي من الغرانيت الأسود طولها ٢,٢٥ متر تحتوي على ترنيمة تُمَجّد، بلغة شعرية، إنتصار مرنبتاح على الغزاة الليبيين في معركة الساعات الست في ربيع السنة الخامسة من حكمه في عام ١٢٠٧ ق.م. تحتوي هذه الستيلي ذات الثمانية والعشرين سطراً، والموجودة منها نسخة ثانية مهشمة الى اجزاء عديدة في معبد الكرنك، على ذكر سريع لحملة عسكرية ناجحة لمرنبتاح في كنعان في وقت ما خلال السنوات الخمس الأولى من حكمه. وتسجّل الستيلي قهر فرعون لمدن أشكيلون وجيزير في جنوب كنعان وينوام في الشمال.

إلا أن الضجة الاستثنائية التي سبّبها اكتشاف هذه الستيلي بالذات لا يعود الى حفظها للمعلومات أعلاه ولكن لإحتوائها على الإشارة الوحيدة المعروفة عن بني إسرائيل في الكتابات المصرية القديمة

والتي هي أيضا اقدم اشارة من نوعها من مصادر من خارج العهد القديم[٤٣]. هكذا تنتهي الترنيمة الشعرية لهذه الستيلي، والتي أصبحت تُعرّف بـــ «ستيلي إسرائيل»:

الأمراء منحنون قائلون «الرحمة»!

لا أحد يرفع رأسه بين الأقواس التسعة.

الخراب لتيهينو؛ هاتّي قد هُدَّأت؛

كنعان منهوبة مع كل شر؛

أشكيلون نُهبَت وجيزير قد استولي عليها

يانوام جعلت كأنها لم تكن

إسرائيل أصبح هباء، لم تعد له ذرية

هورّو[٤٤] أصبحت أرملة لمصر!

كل الأراضي سوية هدأت؛

كل من كان غير هادىء تمت السيطرة عليه من قبل ملك مصر العليا والسفلى، با-إن-ري ميري-آمون، إبن رع: مرنبتاح هوتيب-هير-ماآت[٤٥]، أُعطِي حياة مثل رع كل يوم (*ANET*, 1950: 378).

تحتوي الكتابة الهيروغليفية على علامات صامتة تحدد نوع الكلمة المرتبطة بها وتعرف بـــ «المُحدِّدات» determinatives. فمثلاً المُحَدد المرتبط بكلمة كنعان أعلاه هو ذلك الخاص بالبلاد الأجنبية. ولكن بينما نجد، وكما متوقع، أن المُحدِّدات المستخدمة مع أشكيلون وجيزير ويانوام تبيّن بأن هذه هي مدن، فإن المُحدِّد المُرتَبِط بـــ «إسرائيل» هو ذاك الذي يُستَعمَل لشعب وليس لمكان.

---

[43] ترد ثاني أقدم إشارة الى «إسرائيل» خارج العهد القديم في ستيلي ميشا ملك موآب التي يُنسَب تاريخها الى ما بعد ٨٤٩ ق.م والتي نقرأ فيها عن «إسرائيل» المملكة (*ANET*, 1950: 320). أما أقدم إشارة خارج العهد القديم إلى «إسرائيلي» فوردت في كتابات للملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) التي تحتوي على إشارة الى «آهاب الإسرائيلي» (*ANET*, 1950: 279). مما يجدر ملاحظته هو انه من بعد أقدم ذكر لبني اسرائيل في مصدر خارج العهد القديم وذلك في ستيلي مرنبتاح نجد أن العالم القديم، كما نعرفه من النصوص والمصنوعات التي عُثر عليها خلال التحريّات الآثارية، يصر على الصمت لمدّة ثلاثة قرون ونصف عن اية اشارة الى بني إسرائيل الذين أنشأوا مملكة كبيرة ومزدهرة خلال ذلك الوقت! إن هذا مثال حي على أن من الخطأ النظر الى غياب الدليل من نص او مصنوعات آثارية على انه يمثّل ما يُعرف بـــ «دليل سلبي». من المنطقي أنه كلما توغّلنا في التاريخ القديم كلما كان صمت التاريخ، كما نراه من خلال علم الآثار، أكثر دون معنى.

[44] «الأقواس التسعة» هم الأعداء التسعة التقليديّون لمصر. «تيهينو» كان إسما لليبيين. «هورّو» كانت أرض الحوريين المذكورين في العهد القديم، أو فلسطين الكبرى (Pritchard, 1950: 376-378). أما «هاتّي» فكانت أرض الحيثيين الذين كان والد مرنبتاح، رمسيس الثاني، قد وقّع معهم معاهدة سلام في عام حكمه الحادي والعشرين بعد معركة قاديش، وهي معاهدة ألتزم بها مرنبتاح أيضا.

[45] هذه أسماء مختلفة لمرنبتاح.

كما أشار الباحثون الى انه لما كانت أسماء البلاد والمدن الأجنبية تعتبر إعرابياً مؤنثة، فإن إستخدام الكاتب لضمير مذكّر مع «إسرائيل» يبيّن معرفته بحقيقة أن إسرائيل هو أسم لجد سُمِّي القوم على إسمه (Bimson, 1991: 14).

من ملاحظة الصبغة الشعرية لنص الستيلي ولغياب دليل وثائقي مستقل، يعتقد بعض الاكاديميين بأن الحملة على كنعان المسجّلة على الستيلي لم تحصل إطلاقاً وأن الإدعاء ليس سوى محض مبالغة فرعونية. إلا أن كيتشن يُشير الى وجود دليل خارجي على أن مرنبتاح «قاد على الاقل حملة واحدة في فلسطين»، وهذا الدليل هو كتابة في معبد أماندا في النوبة يُذكر فيها لقب مرنبتاح «مُقيّد جيزير» بالشكل البارز الذي يُذكَر فيه لقب «المستولي على ليبيا» الذي يشير الى حربه المعروفة مع الليبيين (Kitchen, 1966: 60).

أكتشف فرانك يوركو على الجدار الغربي الخارجي للبلاط في معبد الكرنك نحوتاً بارزة لمعركة شخّصها على أنها عرض صوري لحملة مرنبتاح الكنعانية. إعتمد يوركو في تشخيصه على عدة تشابهات بين الجداريات وبين نص ستيلي إسرائيل. أولاً، تبيّن الجداريات أربعة مشاهد للمعركة، وهذا هو نفس عدد المعارك المذكورة في الستيلي. ثانياً، إن ثلاثة من مشاهد المعارك هذه هي ضد مدن محصّنة، بينما يصوّر المشهد الرابع بوضوح، بالرغم من فقدانه لجزءه الأعلى، معركة في منطقة مرتفعة مع عدو كنعاني ليس له مدينة محصنة. إن هذا يتطابق مع إشارة الستيلي الى ثلاث معارك ضد مدن ومعركة رابعة ضد شعب، بني إسرائيل، لا يرتبط ذكره بمدينة. ثالثاً، إن اسم إحدى المدن المحصّنة في الجداريات هو أشكيلون التي هي احدى المدن المذكورة في الستيلي. أخيراً، لاحظ يوركو عدم وجود إشارة الى أية معركة أخرى قام بها مرنبتاح في كنعان في أي من نُصُب مرنبتاح، مستنتجا بأنه لابد أن الجداريات والستيلي هما سجلان للحملة الوحيدة التي قام بها مرنبتاح في كنعان (Yurco, 1997). من السخرية أنه إذا كان تشخيص يوركو لرابع مشاهد المعارك على أنه هجوم مرنبتاح على بني إسرائيل صائباً، فإن هذا يعني بأن بني اسرائيل كانوا لايزالون شعبا بدون مدينة محصّنة حتى مرحلة حكم مرنبتاح المتأخرة، وهذا بدوره يمثّل عقبة لا يمكن تجاوزها للنظرية التي يؤيدها يوركو نفسه التي تفترض بأن تاريخ الخروج وقع مباشرة بعد الموت المزعوم لأكبر أبناء رمسيس الثاني (أنظر القسم ٢-٤). إذ ليس هنالك باحث يمكن ان يقترح بأنه بعد حوالي ٥٥ سنة من مغادرتهم لمصر، وهي الفترة من وفاة إبن رمسيس الثاني البكر التي يُعتَقَد أنّها كانت في السنة السابعة عشر من حكم والده الذي أمتد ٦٧ عاما والى السنة الخامسة من حكم مرنبتاح، كان بنو إسرائيل لا يزالون شعبا بدون مدينة.

سواء كانت تلك الجداريات تصف فعلا حملة مرنبتاح الكنعانية أم لا هو أمر لا علاقة له بقضية تاريخيّة الخروج. بل حتى لو لم تحصل حملة مرنبتاح في كنعان فعلا وأنها محض مغالاة فرعونية، كما تعتقد قلة من الباحثين، فإن ستيلي مرنبتاح تبقى محافظة على أهميتها في كونها تكشف عن معرفة المصريين بوجود شعب يسمى بني إسرائيل خارج مصر، في مكان ما من كنعان، قبل السنة الخامسة من حكم خليفة رمسيس الثاني. ويتعمّق جون بيمسون، الباحث من ترنتي كوليج، أكثر في تحليله لدلالات هذه الحجة مشيرا الى أنه «إذا كان بنو إسرائيل معروفين لكتّاب مصريين **بدون** حصول مواجهة في ساحة قتال تجعلهم موضوع إهتمامهم» فإن «هذا يجعل من الامر دليلا اقوى على أهميّة بني اسرائيل في عهد [مرنبتاح]» (Bimson, 1991: 24). من بعد ذكر كل هذا يجب التأكيد على أن ملاحظة كيتشن عن وجود قطعة مكتوبة مستقلة تُسمّي مرنبتاح بـــ «مقيّد جيزير» إضافة الى «المستولي على ليبيا» هي بالتأكيد دليل مقنع على أن حملة مرنبتاح في كنعان حصلت فعلاً.

تحدّد الستيلي تاريخها بأنّه السنة الخامسة من حكم مرنبتاح. من الواضح أن وجود بني إسرائيل في كنعان في السنة الخامسة من حكم مرنبتاح يتّفق مع تحديد القرآن الكريم للخروج بأنه كان في نهاية حكم رمسيس الثاني. من المثير للأهتمام ان هنالك إعتقاد بأن حملة مرنبتاح الكنعانية من المرجّح أن تكون قد حصلت قبل نهاية السنة الثالثة من حكم مرنبتاح، وربما خلال السنة الأولى من حكمه (Bimson, 1991: 10). إن هذا يطرح الفرضيّة المحتملة بأن حملة مرنبتاح في كنعان كانت لقمع تمرّدات حصلت في بعض المدن بعد وصول أخبار الهزيمة الدرامية لرمسيس الثاني وجيشه وهلاكهم الى المناطق المحيطة بمصر. لقد أنتهى الفرعون المخيف الذي حكم منفردا لمدّة ٦٧ سنة وإنتهى معه فريق من جيشه. من الممكن ان هذه الاخبار بدت لبعض الحكام المحلّيين في فلسطين فرصة أكبر من أن تُفوَّت لتجريب حظهم مع الحاكم الجديد.

لندرس بعضاً من السيناريوهات المحتملة التي توحيها ستيلي مرنبتاح، مع عدم تناسي أن هذه تبقى لا أكثر من إحتمالات ممكنة في غياب دليل يؤيدها. إذا كان اولئك الذين تصورّهم الجدارية كقوم بدون مدينة مُحَصَّنة هم فعلا بنو إسرائيل فإن هذا يعني بأن حملة مرنبتاح الكنعانية لابد ان تكون قد حصلت قبل دخول بني إسرائيل الى المدينة المذكورة في الآية الكريمة التالية: «**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ**

الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ» (البَقَرَة: ٦١). إلا انه إذا كان المشهد الرابع من جداريات المعركة يعني فقط بأن بني إسرائيل لم يكونوا يعيشون في مدينة **محصنّة** فلا سبب يدعو لرفض احتمال ان يكون الهجوم قد حصل بعد دخول بني إسرائيل الى تلك المدينة غير المسمّاة التي تشير اليها الآية الكريمة أعلاه بكلمة «**مِصْرًا**» التي تعني «مدينة». في هذه الحالة، من الممكن ربط هجوم مرنبتاح على بني إسرائيل بالربط في الآية ٦١ من سورة البقرة بين دخول بني إسرائيل إلى مدينة ما وتعرضهم لــ «**الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ**».

والآن هنالك النقطة المهمة التالية. بينما يعتقد أغلبية الباحثين أن حملة مرنبتاح الكنعانية حصلت فعلا ويعارضون، ولديهم ما يبرّر ذلك، الرأي المعاكس، فإنهم يفترضون، ولكن هذه المرة من غير مبرّر، بإنه إذا كان مرنبتاح قد قام فعلا بتلك الجولة العسكرية في كنعان فإنه لابد ان تكون كافة تفاصيل الستيلي صحيحة. وعلى وجه التحديد، أن غزو مرنبتاح وسيطرته على اشكيلون وجيزير ويانوآم لا يضمن بالضرورة أنه كانت له مواجه مع بني إسرائيل أيضاً، كما تدعي الستيلي. أولاً، يجب أن نتذكّر أن أشكيلون وجيزير ويانوآم كانت مدناً معلومة المواقع ولذلك فأن من المحتمل جدا أن يكون مرنبتاح قد غادر مصراً متوجّها نحوها. بل أنه ما كان سيتوجه نحو كنعان إن لم يكن قد تناهي الى علمه حدوث ما لا يسرّه في مكان او امكنة ما هنالك. بعبارة اخرى، ما لم تكن قد وصلت مرنبتاح أخبار عن إستقرار بني إسرائيل في مدينة معيّنة فإنه لا يمكننا إفتراض أن مرنبتاح وجيشه بقوا يتجولّون في كنعان الى ان عثروا على بني إسرائيل التائهين في الارض. ولكن إذا كان مرنبتاح قد هاجم بني إسرائيل في المدينة التي كانوا قد استقروا فيها لذكرت الستيلي اسم تلك المدينة. وتبقى هذه المشكلة قائمة ما لم يفترض المرء بأن بني إسرائيل كانوا يعيشون في إحدى المدن الثلاث المذكورة في الستيلي. أما الحل الآخر بأن صغر عدد بني اسرائيل جعلهم يعيشون في مدينة صغيرة لا تستحق الذكر فيعود بنا الى حيث بدأنا، إذ كيف يمكن ان يكون مرنبتاح قد عرف موقعهم أساسا؟

في سياق استخدامه للحجة التالية للوصول الى استنتاج مختلف، أشار ريندزبورغ (Rendsburg, 1992: 517) الى أنه بينما «لم يحجم كُتّاب العهد القديم خجلا عن الكتابة عن هزائم بني إسرائيل» فإنه لا توجد أية إشارة الى هجوم مرنبتاح المزعوم في العهد القديم. النقطة الاخرى التي يمكن اثارتها دعما لفرضية أن مرنبتاح لم يصطدم أبداً ببني إسرائيل في كنعان هو مبالغة الستيلي البحتة في أن «إسرائيل أصبح هباء، لم تعد له ذرية»، وهو امر من الواضح عدم صحته. أشار بريتشارد (Pritchard, 1950: 378) الى أن الادعاء بفناء ذرية بني إسرائيل هو تفاخر «تقليدي» بالقوة في ذلك

الوقت. إلا ان هذا لا يلغي إحتمال أن تكون كلمات المبالغة التي أُستُخدِمت في وصف هزيمة بني إسرائيل بالذات قد نبعت من رغبة مرنبتاح في الإنتقام ممن كان السبب في فناء والده وجيشه. لاشك أنّه كان لمرنبتاح سبب قوي لإدّعاءه إفناء بني إسرائيل. لذلك، ومع التأكيد على غياب الدليل على صحة الاستنتاج التالي، يبدو من المرجّح لنا أن مرنبتاح لم يلتق أبداً ببني إسرائيل في كنعان بالرغم من انه قاد فعلا حملة هناك. من الضروة ملاحظة عدم وجود دليل مستقل على إدعاء مرنبتاح خوض معركة ضد بني إسرائيل. وإذا كانت حملة كنعان لم تحصل إطلاقاً فإن هذا يرجّح بشكل أكبر صحة النظرة أعلاه من أن ذكر بني إسرائيل ذاك كان مجرد إنتقام دون كيخوتي فارغ لمرنبتاح الملئ بمشاعر المرارة ممن سبّبَ وفاة والده المُهينة.

إن ستيلي مرنبتاح تمثّل مشكلة عويصة لاعتقاد بوكاي بأن مرنبتاح كان فرعون الخروج. ولتبرير تناقض ما ورد في الستيلي مع نظريته، أقترح بوكاي بأن بني إسرائيل لم يكونوا يعيشون في مصر فقط وأن إعلان مرنبتاح تدميره لبني إسرائيل كان يشير فقط الى بني اسرائيل الذين حاربهم في كنعان. ولكن احدى مشاكل هذه المحاولة التفسيرية هذه هي أنه بخلاف معالجتها للإنتصارات الثلاثة الأولى حيث تُذكر أسماء مدن، تشير الستيلي في إدعاء الإنتصار الرابع الى «اسرائيل» كشعب وليس مدينة. بعبارة اخرى، وفقا لنظرية بوكاي كان من المتوقّع من الستيلي أن تذكر إسم مدينة رابعة من المفروض ان بني إسرائيل كانوا يعيشون فيها. بالإضافة الى ما سبق، إن إفناء شعب ما لا يمكن أن يعني سوى إفناء كل فرد منه. فكيف يمكن إذن أن يكون مرنبتاح قد طرح هذا الإدعاء إذا كان بنو إسرائيل لايزالون يعيشون في مصر، بل وكانوا أيضاً وراء الكثير من المشاكل هناك، بضمنها الكوارث، هذا طبعا إذا كان هو فرعون الخروج؟

إن الصورة القرآنيّة التي يعرضها هذا الفصل عن ظروف معيشة بني إسرائيل في مصر والأحداث التي أدت الى خروجهم منها هي متماسكة ومتجانسة الأجزاء، إضافة الى إتّفاقها مع ما هو معروف، أو مُتوقّع وفقا لما هو معروف، عن تلك الحقبة من مصادر مستقلة. وهذه الصورة تختلف تماما بالتأكيد عن مقابلتها في العهد القديم التي لا تدحضها الدلائل من خارج العهد القديم فحسب، ولكن حتى نصوص العهد القديم نفسه التي تناقض بعضها البعض.

٩

ولادات ومذابح: حقائق وأساطير

٩-١ مذبحتا فرعون لبني إسرائيل

كما تقدّم ذكره، يدّعي العهد القديم بأن فرعون، بعد أن شهد التزايد المستمر في نفوس بني إسرائيل، خاف أن يقفوا الى جانب أحد أعداءه في حرب ما ليستعيدوا حريتهم. لذلك حاول أن يوقف هذه الزيادة باسلوبين كان مصيرهما الفشل قبل أن يلجأ الى أكثر الاجراءات تطرّفا وهو قتل الذكور من المواليد الجدد:

ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف. فقال لشعبه هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا. هلم نحتال لهم [عليهم] لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون الى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون [ويخرجون] من الأرض [البلاد]. فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم. فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس. ولكن بحسبما أذلوهم هكذا [رغم هذا الذل] نموا وأمتدوا. فأختشوا [فخاف المصريون] من بني إسرائيل. فأستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف. ومرّروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل. كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفا [إستخدم المصريّون بني إسرائيل بلا رحمة].

وكلّم ملك مصر قابلتَي العبرانيات اللتين إسم إحداهما شِفرة وأسم الأخرى فوعة. وقال حينما تولّدان العبرانيات وتنظرانهن على الكراسي [اي كراسي الولادة]. ان كان ابنا فأقتلاه وإن كان بنتا فتحيا. ولكن القابلتين خافتا الله ولم تفعلا كما كلّمهما ملك مصر. بل إستحيتا الأولاد. فدعا ملك مصر القابلتين وقال لهما لماذا فعلتما هذا الأمر وإستحييتما الأولاد. فقالت القابلتان لفرعون ان النساء العبرانيات لسن كالمصريات. فإنهن قويات يلدن قبل أن تأتيهن القابلة. فأحسن الله الى القابلتين. ونما الشعب وكثر جدا. وكان إذا خافت القابلتان الله أنه صنع لهما بيوتا [بسبب خوف القابلتين من الله رزقهما الله بعائلة خاصة بهما]. ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلا كل ابن يولد تطرحونه في النهر. لكن كل بنت تستحيونها (الخروج، ١: ١-٢٢).

لقد رأينا سابقا بأن زيادة عدد بني إسرائيل المزعومة لا يمكن ان تكون صحيحة. لذلك لابد أن هنالك سبب آخر وراء قتل فرعون للذكور من مواليد بني اسرائيل. بالاضافة الى هذا، وكما تقدم شرحه في القسم ٨-١، إن طرد الهكسوس من مصر أدّى إلى تشريد بني اسرائيل في كافة أنحاء مصر حيث تمّ استخدامهم كأيدي عاملة في مختلف مواقع البناء. لابد أن مشاريع البناء الضخمة التي لانهاية لها لرمسيس الثاني والتي شملت كافة أنحاء مصر أدّت الى المزيد من التشتيت لبني إسرائيل في تلك الفترة بالذات. لذلك فإن الخطر الذي شكله عدد بني إسرائيل الكبير، والذي يدعي العهد القديم بأن رمسيس الثاني أراد السيطرة عليه، لا يمكن ان يكون صحيحاً اساسا. في الحقيقة أن إدعاء العهد القديم بأن فرعون قتل الذكور من مواليد بني إسرائيل الجدد تقليلا لعددهم لا يمكن قبوله حتى إذا مُحّص في سياق رواية العهد القديم. إذ حتى لو كان بنو إسرائيل يعيشون مجتمعين في موقع واحد، كما يشير العهد القديم ضمنيّاً، فإن الايحاء بأن فرعون أضطر الى اللجوء الى قتل الذكور من مواليدهم الجدد يعني غفلته هو ومستشاريه عن الحل الواضح تماما وهو تفريق بني اسرائيل وتوزيعهم على مواقع البناء في مختلف انحاء مصر. من الجلي أن هذا المعنى الذي تتضمنّه حتما رواية العهد القديم هو غاية في السخف لأن حاجة رمسيس الثاني للأيدي العاملة من العبيد كانت كبيرة الى الحد الذي أضطرّه لتجهيز حملات عسكرية لغزو أراضي مجاورة لجلب عمّال سخرة، كما يتّضح، على سبيل المثال، في حملة النائب سيتاو على أرض الليبيين (أنظر القسم ٢-٣).

مؤكّدا على أن نص العهد القديم أعلاه يحتوي على عناصر متناقضة، أشار هوتمان كمثال الى أن «أستخدام عبيد كأيدي عاملة وقتل صغار الذكور هما أمران لا يتوافقان لأن هذا الاخير يجعل من الاول مستحيلا» (Houtman, 1993: 261). بالإضافة الى هذا، إذا كان فرعون قد أراد فعلا السيطرة على عدد بني إسرائيل الذي كان قد اصبح كبيرا، وبالتالي مصدر خطر، لِمَ إذا لَم يقتل الذكور من الكبار بالاضافة الى الصغار؟ إذ أن قتل الصغار فقط ما كان سيزيل خطر بني إسرائيل القائم حينئذ، حيث كان عددهم قد اصبح كبيرا اساسا، كما يدّعي العهد القديم. إن إستخدام بني إسرائيل كعبيد لا علاقة له بالسيطرة على عددهم. فقد كان امرا شائعاً عند الفراعنة المصريين إستعباد الأجانب لينفّذوا مشاريعهم في البناء، كما وضّحنا سابقاً. كما أن من غير الممكن ان تكون مذابح فرعون للذكور من مواليد بني إسرائيل الجدد قد هدفت الى تقليل عدد بني إسرائيل. إن تفسير العهد القديم للحادثتين أعلاه على أساس انه رد فعل على الخطر المتزايد **لشعب** بني إسرائيل لا يمكن أن يكون صحيحاً.

يتفق القرآن الكريم مع العهد القديم على أن فرعون شن حملة شرسة لقتل كل الذكور من المواليد

الجدد لبني إسرائيل، ولكنه يشير الى أن اسلوب القتل كان الذبح وليس الاغراق في النيل. أما إلقاء موسى وهو طفل رضيع في النهر فقد كان خطة اوحى الله بها الى ام موسى لتنفذّها حالما تحس بإقتراب الخطر من حياة ولدها. إذ أمرها الله ﷻ أن تضع الطفل في **تابوت**، وليس **سلة من البردي** كما يقول العهد القديم، وأن ترميه في النهر، واعداً إياها بأنه سيعيد طفلها إليها وبأنه سيجعله أيضاً أحد رسله:

نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣). إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ (٤). وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ (٥). وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦). وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ (٧). فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨). وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (القصص: ٩).

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧). إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨). أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (طه: ٣٩).

إن أحد المضامين الهامة لتأكيد القرآن الكريم على أن عدد بني إسرائيل كان قليلاً، خلافا لإدعاء العهد القديم، هو أن قتل فرعون للذكور من مواليد بني اسرائيل الجدد من لا يمكن ان يكون قد تم بهدف السيطرة على عدد بني اسرائيل. وفعلا لا يؤيّد القرآن الكريم في اي موضع فيه إدعاء العهد القديم بأن ذلك القتل هدف الى السيطرة على او تقليل عدد بني اسرائيل. إن القرآن العظيم لا ينص صراحة على هدف حملة القتل التي شنّها فرعون. إلا ان هنالك اجماع بين العلماء المسلمين على ان دافع فرعون في القتل هو ما تناهى الى علمه عن قرب ولادة ولد من بني اسرائيل سيتسبّب في هلاكه. إن هذا هو المضمون الوحيد لرواية القرآن العظيم. وفقا للشيخ عبد القادر الكيلاني، عندما عثرت إمرأة فرعون على الطفل وجلبته الى فرعون «فأخذ بلحيته وهزّها. فقال فرعون: "هذا المولود الذي يكون زوال ملكي على يديه فلابد من قتله"». ولكن إمرأة فرعون تمكّنت من إقناعه بأن الطفل لا يمكن أن يكون واعيا لما يفعله، فوافق فرعون على عدم قتله. كما أنها نجحت في إقناع

فرعون بأن يترك الطفل يتربّى في قصره (الكيلاني، ١٩٨٩: ٦١-٦٢). أما عن كيفية معرفة فرعون بالخطر الذي كان بأنتظاره من أحد الذكور من مواليد بني إسرائيل الجدد فإن للمفسِّرين والمؤرّخين المسلمين وجهات نظر مختلفة. إذ أشار البعض الى أن فرعون رأى مناما فسَّره له بعض الكهنة، وقال آخرون أن بعض الكهنة والمنجمين أبلغوه بالخبر المقلق عن الولادة الوشيكة، فيما أشار آخرون الى تنبؤات لأنبياء سبقوا عهد موسى كانت قد حدّدت زمان ومكان ولادته (إبن الأثير، ١٩٢٩: ٩٦؛ حجازي، ١٩٥٤، ج ٢٠ :١٩؛ إبن خلدون، ١٩٦٦: ١٥٣؛ الرازي، ١٩٠٦: ٤٢٥؛ الطبرسي، ١٩٦١، ج ٢٠: ٢٦٣؛ الطبري، ١٩١٠: ١٩-٢٠؛ الطبري، بدون تاريخ: ١٩٩-٢٠٠؛ أبو السعود، ١٩٠٦: ٣٤٤؛ القرطبي، ١٩٤١: ٢٤٨-٢٤٩؛ إبن كثير، ١٩٨٥: ٢٩٧؛ ١٩٨٨: ٦٠٧؛ المراغي، ١٩٤٦ج، ج ٢٠: ٣٣؛ الطباطبائي، بدون تاريخ: ج ١٤: ١٦١).

أشار هوتمان أيضاً الى وجود موروث تراثي يهودي مستقل عن العهد القديم نجد فيه بأنه «ليست الزيادة الهائلة لعدد بني إسرائيل بل خوف فرعون من ولادة منافس له هو الذي يُقدّم سببا لافعاله [تجاه بني إسرائيل]» (Houtman, 1993: 262). إن هذا بالتأكيد يناقض رواية العهد القديم. ولكن، كما ذُكر في القسم ٤-٢، إن رواية العهد القديم عن بعض الأحداث ليست بالضرورة أكثر دقة من مقابلاتها في غيره من كتب اليهود الدينية. إن هنالك إشارات إلى وجود موروثات تراثية يهودية تناقض بشكل صارخ قصة العهد القديم. من الممكن إن هذا التراث كان كتابيا او شفهيا. في الحالة الأولى، من الممكن ان هذا التراث كان التوراة نفسها. وفقا للمؤرخ اليهودي جوزيفوس، فإن فرعون نظّم مذابحه للذكور من مواليد بني إسرائيل الجدد بعد أن اخبره كاهن عن نبؤته بأنه ذلك كان وقت ولادة «الذي سيذل سيادة المصريين ويرفع بني إسرائيل، إذا تسنى له بلوغ مرحلة الرجولة» (Josephus, *JA*, *II*: 205-209).

هناك فرق جوهري آخر بين رواية القرآن العظيم لقصة موسى ورواية العهد القديم يتمثّل في أن القرآن العظيم يتحدّث عن **حملتين** قام بهما فرعون لقتل ذكور من بني إسرائيل لا حملة واحدة. بينما حصلت الحملة الأولى قرب تاريخ ولادة موسى وهدفت الى قتله، أنطلقت الثانية في وقت ما بعد عودة موسى من مدين الى مصر وإنتصاره على السحرة الذين اعتنقوا دين موسى:

وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠). قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١). رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢). قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣). لأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤). قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (

١٢٥). وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦). وَقَالَ الْمَلا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (الأعْراف: ١٢٧).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣). إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤). فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ (٢٥). وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (غَافِر: ٢٦).

إنه لأمر ذي دلالة أن تتحدث الآيات أعلاه عن قلق فرعون وحاشيته من خطر بني إسرائيل على دين مصر وليس على أمنها. كما ذُكِر في القسم ٧-٥، كان هذا هو الخطر الذي أعتقد فرعون وحاشيته أن بقاء موسى وبني إسرائيل داخل حدود مصر يشكّله. بعبارة اخرى، شعر فرعون أولاً بالخطر القادم من بني إسرائيل عندما علم بقرب ولادة طفل منهم سيجعله يفقد ملكه. وبعد عودة موسى الى مصر كان خوف فرعون هذه المرة هو أنه إذا سمح لبني إسرائيل بمغادرة مصر فإنهم سيرجعون ثانية في صحبة جيش غاز للسيطرة على باي-رمسيس، إلا أن إبقاءهم داخل حدود مصر كان هو الآخر يقلقه لأن دين موسى كان يمكن أن يدمّر دين فرعون أكثر مما فعلت حملة أمنحوتب الرابع ضد الإله آمون.

تَستخدِم الإشارات الست في القرآن العظيم الى حملتي القتل لفرعون نفس التعابير تقريبا (البقرة: ٤٩؛ الأعراف: ١٢٧، ١٤١؛ إبراهيم: ٦؛ القصص: ٤؛ غافر: ٢٥) والتي تعني بأن فرعون لجأ الى **قتل أو ذبح أبناء** بني إسرائيل وترك **نساءهم** أحياء. يوحي إستخدام نفس المصطلحات لوصف المذبحتين بعدم وجود فرق جوهري بين ما حصل في كلتي الحالتين على قدر تعلّق الامر بالفعل نفسه. إلا ان هنالك أختلاف واضح بين الهدف من وراء كل من المذبحتين. إذ بينما هدفت الحملة الدموية الأولى الى قتل الطفل موسى، كان الهدف من الثانية إرهاب بني إسرائيل وإجبارهم على عدم إتّباع موسى، كما يتّضح في الآيتين ١٢٧ من سورة الاعراف و ٢٥ من سورة غافر. ومن الجدير ملاحظة أن المذبحة الثانية لم تُقترَح إلا كرد فعل على بعثة موسى، وهو مؤشّر واضح على ان الهدف منها كان صرف بني إسرائيل عن دعوة موسى لا تقليل عددهم. إن الهدف الاكثر عمومية هذا لحملة القتل الثانية يمكن ان يكون قد عنى بأن القتل لم يشمل فقط **المواليد الجدد** من الذكور بل ربما طال ضحايا اكبر سنا أيضاً. من غير الممكن إستبعاد هذا الإحتمال على أساس لغوي لأن كلمة

«أبْنَاءَ» يمكن أن تعني أيضاً ذكورا بالغين (أنظر مثلا الآية ٢٣ من سورة النساء). من جهة أخرى، من المحتمل أيضا القول بأن قتل الذكور البالغين كان سيعني ببساطة خسارة ايدي عاملة. لكن يبدو من المُرجَّح أن حملة القتل الثانية، خلافا للحملة الاولى، لم تهدف الى قتل **كل** الذكور من المواليد الجدد للعوائل التي شملتها المجزرة. إلا أن كل هذه تبقى فرضيّات طالما أستمر غياب الدليل عليها او ضدها.

لا يوجد مؤشر **صريح** في القرآن حول طول الفترة التي أستغرقتها حملة القتل الثانية، أي فيما إذا توقفت في تاريخ معين أم أستمرّت حتى خروج بني إسرائيل من مصر. ولكن لما كانت تلك الحملة قد أُطلِقت قبل أن تبدأ الكوارث بضرب قوم فرعون، يبدو من المعقول القول بأن فرعون أوقف حملة الإضطهاد الدموي في وقت ما لاحقا أملا في أن يؤدي ذلك الى إيقاف الكوارث. إن هذا يبدو احتمالا مرجّحا تماما إذا تذكّرنا بأن هذه العقوبات كانت من التأثير بمكان على فرعون وقومه بحيث أنه اضطر في النهاية بأن يعد موسى بالسماح لبني إسرائيل بمغادرة مصر حالما توقفت الكوارث، رغم انه لم يلتزم بكلمته:

وَقَالَ الْمَلا مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧). قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨). قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩). وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠). فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١). وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢). فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣). وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمْ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤). فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (الأعراف: ١٣٥).

لابد أن شكوى بني إسرائيل لموسى معاناتهم قبل مجيئه ومن بعده أشارت بشكل رئيسي إلى حملتي الذبح اللتين قام بهما فرعون، بالإضافة الى عبوديتهم المستمرة بالطبع.

لقد رأينا بأن فرعون نفّذ المذبحة الأولى للذكور من مواليد بني اسرائيل الجدد لأنه لم يستطع

معرفة هوية الطفل الخطير كيما يستهدفه لوحده. ولكن لماذا شنّ فرعون حملة ذبح ثانية للأطفال الذكور من بني اسرائيل مع أن مصدر الخطر كان واضحا هذه المرة، متمثّلا في شخص موسى؟ بعبارة اخرى، لماذا لم يأمر فرعون ببساطة بقتل موسى نفسه ليضع حدا لمخاوفه منه؟ الجواب هو أنه درس فعلا هذا الحل: «**فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ (٢٥). وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦). وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)**» (غافر: ٢٥-٢٧). إلا ان فرعون فشل في تنفيذ خطته لأن موسى كان تحت حماية الله، وهي التي يشير اليها موسى في قوله «**إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ**». وفيما يلي آيات كريمة أخرى تشير الى حماية الله لموسى وهارون التي منعت فرعون من ان يؤذيهما، وهو أمر سبق وان أشرنا اليه في القسم ٧-١:

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠). قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١). قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي (١٢). وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣). وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي (١٤). قَالَ كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥). فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الشُّعَراء: ١٦).

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنْ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢). قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي (٣٣). وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِي (٣٤). قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (الْقَصَص: ٣٥).

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢). اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣). فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤). قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥). قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (طه: ٤٦).

لقد رأينا في هذا القسم بأن القرآن الكريم ينص على أن فرعون أرتكب بحق بني اسرائيل مجزرتين لا واحدة كما يوحي العهد القديم. كما يختلف القرآن العظيم عن العهد القديم بشأن هدف المجزرة التي ارتكبها فرعون في وقت ولادة موسى.

٩-٣ مذبحة هيرودس لقتل النبي عيسى؟

رغم أن هذا الكتاب يهتم بشكل رئيس ببعض مراحل تاريخ موسى وبني إسرائيل فإنه ليس بخروج عن موضوع الكتاب أن نناقش أجزاءا معيّنة من رواية العهد الجديد لقصة عيسى، ذلك أن دراسة الروايتين القرآنيتين لولادة موسى وعيسى ومقارنتهما مع نظيرتيهما في العهدين القديم والجديد، على التوالي، يكشف عن إرتباط مهم بين روايتي العهدين القديم والجديد. يبيّن البحث في هذا الموضوع بأن رواية العهد الجديد عن مذبحة هيرودس للأولاد الصغار في بيت لحم وما جاورها من المناطق وتفاصيل أخرى ذات صلة قد نُقِلت في الواقع من قصة ولادة موسى في سِفر الخروج، ولذلك فهي ليست بوقائع تاريخيّة.

يروي كتاب مَتّى في العهد الجديد الأحداث التي حصلت بعد ولادة عيسى مباشرة كما يلي:

ولما وُلِد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام هيرودس الملك إذا مجوس من المشرق قد جاءوا الى اورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود. فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له. فلما سمع هيرودس الملك أضطرب وجيمع اورشليم معه. فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح. فقالوا له في بيت لحم اليهودية. لأنه هكذا مكتوب بالنبي. وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا. لأن منك يخرج مدبّر يرعى شعبي اسرائيل.

حينئذ دعا هيرودس المجوس سرا وتحقّق منهم زمان النجم الذي ظهر. ثم أرسلهم الى بيت لحم وقال أذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبي. ومتى وجدتموه فأخبروني لكي آتي أنا ايضا واسجد له. فلما سمعوا من الملك ذهبوا واذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق حيث كان الصبي. فلما رأوا النجم فرحوا فرحا عظيما جدا. وأتوا الى البيت ورأوا الصبي مع مريم أمه. فخرّوا وسجدوا له. ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهبا ولبانا ومُرا. ثم إذ أُوحي اليهم في حلم أن لا يرجعوا الى هيرودس أنصرفوا في طريق اخرى إلى كورتهم.

وبعدما انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلا قم وخذ الصبي وأمه وأهرب الى مصر وكن هناك حتى اقول لك. لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه. فقام واخذ الصبي وأمه ليلا وانصرف الى مصر. وكان هنالك الى وفاة هيرودس. لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر دعوت ابني.

حينئذ لما رأى هيرودس أن المجوس سخروا به غضب جدا. فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كل تخومها من أبن سنتين فما دون بحسب الزمان الذي تحقّقه من المجوس. حينئذ تمّ ما قيل بإرميا النبي القائل. صوت سُمع في الرّامة نوح وبكاء وعويل كثير. راحيل تبكي على اولادها ولا تريد أن تتعزّى لأنهم ليسوا بموجودين.

لما مات هيرودس إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلا. قم وخذ الصبي وامه واذهب الى ارض إسرائيل. لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي. فقام واخذ الصبي وامه وجاء الى ارض إسرائيل. ولكن لما سمع ان ارخيلاوس يملك [أصبح ملكا] على اليهودية عوضا عن [خلفا لــ] هيرودس أبيه خاف ان يذهب الى هناك. واذ أُوحي اليه في حلم انصرف الى نواحي الجليل. وأتي وأسكن في مدينة يقال لها ناصرة. لكي يتم ما قيل بالأنبياء إنه سيُدعى ناصريا (متى ٢ : ١-٢٣).

إن أول ما يُلاحظ هنا هو أنه بالرغم من أن ذبح الأطفال الذكور وإنقاذ عيسى من القتل كانت ستكون حوادثا رئيسة في حياة السيد المسيح فإنّها لم تُذكر سوى في كتاب مَتّى. أما مرقس ويوحنا فلا يذكران أصلا حادثة ولادة عيسى أساسا، ولذلك لا يمكن إستنتاج شيء من إهمالهما لمذبحة الأطفال المزعومة. إلا ان هذا العذر لا ينطبق على كتاب لوقا الذي يصف بكثير من التفصيل الظروف التي أحاطت بولادة عيسى. كيف يمكن إذن لكتاب من كتب العهد الجديد يتناول بالتفصيل ولادة عيسى أن يهمل تماما ذكر مذبحة هيرودس المزعومة لأطفال بيت لحم التي استهدفت حياة عيسى؟ من الواضح أن مؤلِّف كتاب لوقا لا يمكن ان يكون قد عرف بوقوع هكذا حادثة ثم قرر إهمالها بالكامل وحذف كل إشارة اليها من سيرة عيسى. ومما يستبعد اكثر امكانية حدوث مثل هذا السيناريو هو ان الحادثة المزعومة كانت ستؤكد المكانة الخاصة لعيسى وبالتالي فإن كاتب العهد الجديد كان سيدوّنها بالتأكيد لو علم بوقوعها. إلا أن هذا الإستنتاج الذي من المُحتّم الوصول اليه والذي يجيب سؤالا واحدا يثير آخر. إن قتل كل الأطفال الذين يقل عمرهم عن سنتين في بيت لحم وما جاورها كان سيكون كارثة رهيبة من المُحتَّم أن تعيش في ذاكرة الناس لقرون، فلِمَ إذا كان مؤلِّف كتاب لوقا، الذي كتب بتفصيل مسهب عن ولادة عيسى، جاهلا تماما بالمذبحة المزعومة؟ بل مع أنّ الكاتب يدّعي معرفة ويبدي اهتماما بذكر حادثة حصلت قبل ولادة عيسى مباشرة، «*وفي تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يُكتَتب كل المسكونة [يتم إحصاء كل سكان الامبراطورية]. وهذا الإكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والي سورية*» (لوقا، ٢: ١-٢)، فإنه، ومن دون تفسير، يبدي جهلا تاما بمذبحة الأطفال الصغار من الذكور. يبدأ كتاب لوقا بما يلي:

إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المُتيقَّنة عندنا كما سلّمها الينا الذين كانوا منذ البدء مُعاينين وخُدّاما للكلمة رأيت أنا أيضا إذ قد تتبعتُ لك كل شيء من الاول بتدقيق أن اكتب على التوالي اليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي عُلِّمت به (لوقا، ١: ١-٤).

إذا قبلنا إدعاء مؤلِّف كتاب لوقا عن امتلاكه لمعرفة دقيقة عن التاريخ الذي يسرده فليس أمامنا سوى الاستنتاج بأن مذبحة الاطفال الصغِار التي يذكرها متّى لم تحدث على الإطلاق.

إن العلم بوقوع كارثة رهيبة مثل مذبحة أطفال بيت لحم وما جاورها ما كان سيتطلّب معرفة تفاصيل ولادة عيسى بالذات ولكن مجرد معلومات عامة عن تاريخ تلك المنطقة في الحقبة المعنيّة. بالرغم من إهمال المؤرخين الرومانيّين لتسجيل تاريخ فلسطين فإن المؤرخ اليهودي جوزيفوس (٣٧ –١١٠ ق.م) قام بتدوينه. إذ كتب جوزيفوس بتفصيل عن تاريخ هيرودس الكبير Herod the Great (٣٧–٤ ق.م) الذي يزعم العهد الجديد أنه هو الذي أصدر أمر المذبحة. يصف جوزيفوس في كتاباته، التي أصبحت مصدر كل الكتابات اللاحقة عن هيرودس، تاريخ ذلك الملك الذي يشهد على وحشيّته لا مع أعدائه فحسب ولكن حتى مع افراد عائلته، حيث قتل أكبر اولاده وإحدى زوجاته وإبنيهما. إلا ان الامر ذي الدلالة هنا هو خلو تاريخ هيرودس الدموي الذي دوّنه جوزيفوس من أية إشارة الى مذبحة أطفال بيت لحم المذكورة في كتاب متّى! من المؤكّد لو أن هذه الحادثة كانت قد حصلت حقاً لَحَظَت بالذكر في سجل تاريخي يروي فيما يرويه من تاريخ هيرودس أفعاله الوحشية. وهكذا نجد مرة أخرى أن الإستنتاج الذي لابد من التوصّل اليه هنا هو أن المذبحة التي يروي متّى تفاصيلها لم تقع على الاطلاق. لابد من التأكيد هنا على أن هذا الاستنتاج لا يمثّل شكلا من أشكال **الأدلة السلبية**، ذلك أن جوزيفوس دوّن تاريخا تفصيليا عن هيرودس ليس فيه أي ذكر للمذبحة المزعومة.

قد يُشكك البعض في موثوقية هذا الإستنتاج لكونه مأخوذ من كتابات جوزيفوس. إذ أن مذبحة هيرودس المزعومة كانت ستعني ضمنيّاً بأن عيسى كان حقا نبي، إن لم يكن المسيح نفسه، وهو أمر لا يقبله اليهود. لذلك، فإن إهمال ذكر هذه المذبحة ليس سوى أمر مُتوقَّع من قبل مُدافِع متحمّس عن الدين اليهودي مثل جوزيفوس. إلا أن هنالك أكثر من سبب لرفض هذا الإعتراض. أولاً، إن ذكر حادثة المذبحة من قبل جوزيفوس كان سيؤكد فقط **إعتقاد هيرودس** بأن عيسى كان سيشكّل خطرا عليه في المستقبل، ولكنّه ما كان سيبرهن صحة هذا **الإعتقاد** الذي يقف وراء فعل هيرودس المزعوم. ثانياً، حتى إذا كان ذكر المذبحة سيكون بمثابة تسليم بأن عيسى كان شخصا ذا مكانة روحية خاصّة فإن هناك سبب قوي للقول بأنها كانت ستُذكَر في كتابات جوزيفوس المتوفّرة اليوم لأن هذه الكتابات تذكر عيسى اساساً وتُسبِغ عليه مختلف أشكال المديح. فكتاب «الحرب اليهودية» *The Jewish War* لجوزيفوس يلقّب عيسى بـــ «صانع المعجزات»، ناسباً إليه عدة أفعال إعجازية، بل ويذهب الى حد القول بأن كلمة «إنسان» قد لا توفيه حقه من الوصف (Josephus, *JW*:

398-400)! كما ذكر جوزيفوس بأن عيسى أُقيمَ من بين الأموات في اليوم الثالث بعد صلبه. كما ترد كل هذه التفاصيل بشكل أكثر إختصارا في كتاب آخر من كتب جوزيفوس، «العصور اليهودية القديمة» *Jewish Antiquities*، الذي يذهب الى حد الإدعاء بأن عيسى كان هو المسيح (Josephus, *JA, XVII*: 63-64)! لقد شكّك النقّاد في أصالة رواية جوزيفوس المزعومة عن عيسى التي بدت لهم **أكثر مسيحية** من أن يكتبها مؤرخ يهودي. إلا ان هناك مؤرخون آخرون يقبلون أصالة هذه الكتابات بحجة إحتوائها على نقاط لا تتوافق مع التراث المسيحي ولا توحي بأن كاتبها مسيحي ولكن تصوّره كمراقب شاك (Williamson, 1974: 396-397). إلا أنّ هنالك حُجج قوية أثارها النقّاد ضد أصالة تلك المقاطع المثيرة للجدل. أما حجتهم الرئيسة ضد أصالة رواية كتاب «الحرب اليهودية» فهو وجود ذلك النص في النسخة السلافيّة فقط من الكتاب وغيابه من النسخة الإغريقية. أما الحجج الأنتقادية الرئيسة ضد أصالة نص كتاب «العصور اليهودية القديمة» فهي كما يلي: ١) لا يمكن لمؤرخ يهودي أن يكون قد وصف عيسى بأنه بالمسيح؛ ٢) بينما يذكر المطران والمؤرخ يوسيبوس القيساري (توفي حوالي ٣٤٠ م) هذه المقاطع المثيرة للجدل فقد أشار اللاهوتي الإغريقي أوريغون (تقريبا ١٨٥-٢٥٤ م) بوضوح الى أن جوزيفوس لم يؤمن بأن عيسى هو المسيح؛ ٣) وأخيرا، يقطع ذلك المقطع المشكوك في أصالته إنسيابيّة نص يصف فيه جوزيفوس سلسلة من اعمال الشغب (Feldman, 1965: 49). إن معظم الباحثين يرفضون أصالة الفقرات عن عيسى الواردة في كتابي جوزيفوس. من المؤكد أن تلك الاشارات الى عيسى هي غير اصيلة وانها قد زُيِّفت من قبل كُتّاب مسيحيين، إلا ان هذا غير ذي صلة بنقاشنا الحالي. سواء كانت تلك المقاطع عن عيسى في كتابات جوزيفوس أصيلة أم مزورة فإنها تثير السؤال المهم التالي: لماذا لم يُشِر كاتب تلك المقاطع في كتابي جوزيفوس الى المذبحة المزعومة للأطفال التي كان هدفها قتل الطفل عيسى؟ إن الجواب الوحيد هو أن ذلك الكاتب لم يكن على علم بالمذبحة المزعومة. لو كانت هذه الحادثة قد وقعت فعلا لعلم بها ذلك الكاتب ولأشار اليها.

يتفق القرآن تماما مع الاستنتاج الذي يظهر مرارا خلال النقاش أعلاه، حيث لا يذكر كتاب الله إطلاقاً حصول اية مذبحة أستهدفت حياة عيسى حين كان طفلا. يذكر القرآن الكريم بأن النبي عيسى كان صانع معجزات استثنائي، كما يذكر مختلف النعم التي أغدقها الله عليه، والتي لا يرد ذكر بعضها حتى في كتب العهد الجديد كتكلّم عيسى في المهد وخلقه من الطين طيرا حيّا، ولكن لا توجد في القرآن أية إشارة الى المذبحة المذكورة في كتاب متّى: «**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ**

وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الاكْمَهَ وَالابْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ» (المَائِدَة: ١١٠). من المهم ملاحظة ان القرآن العظيم ينص في هذه الآية الكريمة على أن الله تدخّل فعلا لحماية عيسى، ولكن من بني إسرائيل لا من هيرودس. كما تبيّن الآية أيضا بأن ذلك حصل بعد أن كان عيسى قد بدأ بصنع المعجزات التي أدعى الكافرون بها من بني اسرائيل بأنها كانت سحرا. من الجلي أن هذا يجب ان يكون قد حصل بعد بدء عيسى بدعوته، وهو أمر لابد أن يكون قد حدث بعد وصوله إلى عمر مناسب. في الواقع، كان هروب عيسى الى مصر أحد مظاهر تلك الحماية الإلهية إذ أنها لم تحصل حين كان طفلا صغيرا هاربا من خطر هيرودس، كما يوحي كتاب متّى، ولكن عندما كان شابا وأضطر الى الهرب من معاداة بني إسرائيل له، وكما هو في تفسير الشيخ عبد القادر الكيلاني (١٩٨٩: ٩٢) لهذه الحادثة:

> وهكذا اليهود أرادوا أن يقتلوا عيسى ابن مريم، على نبيّنا وعليهما الصلاة والسلام، لأنهم حسدوه لمّا ظهرت الآيات والمعجزات على يده، فأوحى الله عز وجل اليه أن اخرج من بلادهم الى مصر فخرج وهو إبن ثلاث عشرة سنة. أخذه قَرابة له وهرب به فقوي أمره، وانتشر ذكره في تلك البلاد فاجتمعوا (على) أن يُهلكوه فما قدروا وكان الله «غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ» (يوسف: من ٢١).

وهنا أيضا لا نجد إشارة الى حملة هيرودس المزعومة لذبح الأطفال. مما تجدر ملاحظته أيضا هو أن لوقا يذكر في كتابه بأنّه عندما كان عيسى في الثانية عشرة من عمره جلس في باحة المعبد في القدس مع المعلّمين وأصغى لهم وسألهم أسئلة، وأنهم أُعجِبوا بفهمه ومعرفته (لوقا، ٢: ٤٢-٤٧). ربما من الممكن ربط هذه الحادثة بشكل ما بالحسد الذي أكنّه رجال السلطة الدينية من بني إسرائيل لعيسى والذي أدى في النهاية الى هربه الى مصر. ويجدر أن نذكر بشكل سريع أنّ الذي أصحب عيسى الى مصر كان «قرابة له» وليس «خطيب مريم»، إذ يشير القرآن إلى أن مريم لم تتزوج أبدا لأنها كانت منذورة لله (آل عمران: ٣٥-٣٧؛ مريم: ١٦-١٧). إن الرواية القرآنيّة لقصة عيسى وأمه مريم لا تحتوي على شخصية ثالثة تقابل شخصية يوسف في العهد الجديد.

ولكن هل وقعنا هنا في فخ **الدليل السلبي** بنفينا حدوث المذبحة المذكورة في كتاب متّى على اساس عدم ذكرها في القرآن؟ إن الإجابة هي بالتأكيد لا لأن هنالك دليل قرآني على أنه لو كانت مذبحة الاطفال الصغار في بيت لحم قد وقعت فعلا فإنها كانت ستُذكَر في كتاب الله. يتمثّل هذا

الدليل في ذكر القرآن للخطر الذي تعرّض له موسى عند ولادته، مؤكّدا فضل الله في إنقاذ رسول المستقبل: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧). فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨). وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩)» (القصص: ٧-٩). فلو كانت مثل هذه الحادثة قد حصلت لعيسى فإن القرآن ما كان سيهمل الإشارة إليها.

بالإضافة الى هذا، هنالك عدد من الآيات الكريمة التي يذكّر فيها الله موسى بفضله عليه، بما في ذلك تدخلّه لإنقاذه من الخطر الذي هدد حياته بعد ولادته مباشرة: «وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧). إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨). أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩)» (طه: ٣٧-٣٩). إلا أن الله لا يشير بأي شكل من الأشكال الى حدوث مثل هذا التدخّل في حالة عيسى في الآية ١١٠ من سورة المائدة أعلاه التي يذكّر الله فيها عيسى بمختلف النعَم التي اغدقها عليه.

يتمثّل الدليل الآخر على لاتاريخيّة قصة متّى عن مذبحة هيرودس لصغار الأطفال من الذكور في بيت لحم في الآيات التالية: «فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧). يَا أُخْتَ هَارُونَ[46] مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨). فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠). وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١). وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢). وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣). ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤)» (مرْيَم: ٢٧-٣٤). تبيّن هذه الآيات بأن أخبار عيسى، الطفل المعجزة، أنتشرت بين الناس بعد ولادته مباشرة. لذلك، لو كان الملك قد أراد فعلا قتله لأستطاع العثور عليه بسهولة ولما أحتاج إلى قتل كافة الأطفال دون الثانية من العمر، في بيت لحم وما جاورها، ليضمن قتل عيسى.

من الواضح إذن أتّفاق القرآن العظيم والتاريخ المُدوَّن على أن مذبحة الأطفال في بيت لحم وما جاورها التي يذكرها كتاب متّى في العهد الجديد لم تحصل أبداً. إلا ان التشابه الصارخ بين المذبحة

---

[46] عندما ينسب القرآن الكريم شخصا ما الى قومه فإنه يصف ذلك الشخص بأنه «أخ» او «أخت» ذلك القوم (أنظر مثلاً الشعراء: ١٠٦، ١٢٤، ١٤٢، ١٦١؛ ق: ١٣). فعبارة «أُخْتَ هَارُونَ» تعني إمرأة من قوم سُمّوا بإسم هارون ولا تعني إمرأة إسم أخيها هارون كما يسيء البعض الفهم. لقد حدّد المفسّرون هوية هارون في هذه العبارة القرآنية بأنه النبي هارون، اخو النبي موسى.

الخيالية الواردة في كتاب مَتّى والمذبحة **الحقيقية** التي نفّذها فرعون بقتله الذكور من حديثي الولادة من بني إسرائيل وقت ولادة موسى لابد وأن يقودنا الى إستنتاج واحد وهو ببساطة أن واضع كتاب مَتّى اقتبس قصته الخيالية من قصة مذبحة فرعون الحقيقية. من المرجّح أن مؤلِّف كتاب مَتّى أراد أن يُبيّن أن ما تلقّاه عيسى، نبي النصارى، من عناية إلهية لم يقّل عما تلقّاه موسى، نبي اليهود. إلا أنّ من الصعب جدا فهم مثل هذا الدافع ذلك أن ولادة عيسى كانت بحد ذاتها معجزة، وهي حقيقة يؤكدها كتاب مَتّى نفسه. بالإضافة الى ذلك، فإن ولادة عيسى كانت معجزة فريدة من نوعها وأكبر بكثير من معجزة تدخّل الله لحماية حياة موسى الطفل من القتل.

إن إحدى الحقائق التي أغفلها مخترع قصة المذبحة في كتاب مَتّى عند نقله لأحداث معينة من قصة ولادة موسى وتطبيقها على ولادة عيسى هو أن عيسى الطفل كان يختلف تماما عن موسى الطفل. إن الأخير لم يظهر للناس كطفل يختلف عن باقي الأطفال بشكل خارق للعادة، وهو أمر مكّنه من أن ينشأ في قصر عدوّه نفسه، فرعون، من دون أن يثير شك أحد بأنه يمكن ان يكون الطفل الذي كانوا يريدون قتله. أما الطفل عيسى فقد كان أعجوبة فريدة من نوعها وما كان يمكن لحقيقته ان تُخفى على الناس. لقد خُلق عيسى لكي يُعرَف من قبل الناس ولكي تصل اخبار كونه طفلا معجزة الى كل مكان. إذ انه كان الطفل الذي، من بين ميّزاته، وُلِد من غير أب وكان نبيا منذ ولادته وتكلم في المهد وجرت على يده معجزات عديدة. إن إهمال مؤلف كتاب مَتّى لهذا الاختلاف المهم بين عيسى وموسى في طفولتهما جعله يطبّق قصة المذبحة الحقيقية التي استهدفت موسى على عيسى من غير تحوير بعض التفاصيل التي لا تتّفق مع طفولة عيسى، وبالتالي حمل هذا التطبيق الأخرق دليلا آخر على لاتاريخية القصة المُختَلَقة في كتاب مَتّى وعلى أنها ليست سوى نسخة غير مُتقَنة من قصة موسى الحقيقية.

من الممكن الاعتراض على التفسير اعلاه لأصل قصة مذبحة الأطفال في كتاب مَتّى على أساس أن العهد القديم لم يذكر بأن مذبحة فرعون للذكور من مواليد بني إسرائيل الجدد هدفت إلى إزالة الخطر الذي كان سيشكّله احدهم ولكن إلى السيطرة على الزيادة المستمرة في عدد بني اسرائيل. إلا أننا أشرنا في ما تقدّم الى وجود موروثات تراثية وكتابات يهودية، بضمنها كتب جوزيفوس، تناقض العهد القديم يمكن ان يكون مؤلِّف كتاب مَتّى قد علم منها الدافع الحقيقي لمذبحة فرعون.

هناك نقاط مهمة أخرى تدعم الإستنتاج بأن قصة المذبحة في كتاب مَتّى لاتاريخيّة. أولاً، إن ما تناهى الى علم فرعون عن الولادة الوشيكة لطفل من بني إسرائيل سيتسبّب في هلاكه تبيّنت صحته لاحقا، إذ كان موسى فعلا السبب في وضع حد لحكم وحياة فرعون. على العكس من هذا، إتّضح

بأن الادعاءات بأن عيسى كان سيصبح «*ملك اليهود*» (متّى، ٢: ٢)، وفقا لما جاء على لسان المجوس الثلاثة، و «*مدبّر يرعى شعبي اسرائيل*» (متّى ٢: ٦)، حسب نبوءة ميخا (٥: ٢)، والتي جعلت هيرودس يضطرب، هي إدّعاءات غير صحيحة نهائيا. في الواقع، تؤكّد كتب العهد الجديد، بما في ذلك كتاب متّى نفسه، بأن عيسى عُومِل بإذلال وإهانة قبل وفاته لإدعائه بأنه «*ملك اليهود*» (متّى، ٢٧: ١١؛ مرقس، ١٥: ٢؛ لوقا، ٢٣: ٣) وبأنه لم يصبح أبداً «*ملك اليهود*»، وهي عبارة كتبها الجنود الرومان على صليبه ليسخروا منه. والآن، إن حقيقة أن عيسى لم يصبح أبداً «*ملك اليهود*» تعني أن قصة المذبحة التي أوردها متّى تحمل بين طيّاتها عدم مصداقيّتها. فلو كانت هناك فعلا نبوءة أخبرت بشكل صحيح عن مكان وزمان ولادة عيسى وحددت هويّته، كما مُصوَّر في قصة المجوس، فإن مثل هذه النبوءة الشديدة الدقة ما كانت ستُخطئ في الإدعاء بأن عيسى كان سيصبح «*ملك اليهود*» كما أعتقد المجوس. إذ ان مثل هذه النبوءة الدقيقة كانت ستبيّن بأن عيسى ما كان سيشكّل أي خطر على الملك، سواء كان هيرودس أوغيره. كانت مثل هذه النبوءة ستخبر بأن الله لم يكن قد كتب لعيسى أن يخلع أي ملك أو يقود اليهود في ثورة أو يشترك في أي شكل من أشكال التمرد ضد السلطات الحاكمة.

ثانياً، ما كان لأية نبوءة تخص مستقبل عيسى لتزعج هيرودس بالذات. لأنّ مثل هذه النبوءة كانت ستكشف بأن عيسى كان سيفعل ما فعل في اليهودية في وقت في المستقبل لن تكون فيه تحت حكم هيرودس الذي سيكون قد مات قبل ذلك بزمن طويل. في الحقيقة، إن هيرودس كان مكتوباً له أن يموت في آذار في السنة الرابعة ق.م ولم يكن مُقدَّرا له أن يعيش الى الوقت الذي يكون فيه لعيسى أتباع. للسببين أعلاه، لا يمكن للمرء قبول إدعاء العهد الجديد بأنه كانت هناك نبوءة تخبر بدقة عن حقائق متعددة عن عيسى وفي نفس الوقت تخطئ وتضلّل الناس بالأدعاء بأن عيسى كان سيصبح ملك اليهود.

ثالثا، إن رواية متّى عن المذبحة التي أمر بها هيرودس تحتوي على عدد من نقاط الضعف. فمثلا يخبرنا متّى ان المجوس صدّقوا هيرودس حين قال لهم «*اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبي. ومتى وجدتموه فأخبروني لكي آتي أنا ايضا واسجد له*» (متّى، ٢: ٨) وأنهم كانوا سيخبروه عن مكان الطفل لو لم يُأمَروا في المنام بأن لا يفعلوا. ثم يستطرد متّى ليقول أن هيرودس علم من «*رؤساء الكهنة وكَتَبة الشعب*» بأن المسيح سيولد في بيت لحم في اليهودية. ولكن بدلا من إرساله لرجاله للبحث عن الطفل نجد هيرودس يطلب من المجوس أن يعودوا إليه بالاخبار عن الطفل حديث الولادة، معتمدا كليا على استجابتهم طوعيا لطلبه! بالإضافة الى هذا، يبدو من أمر هيرودس بقتل

كافة الأطفال الذكور دون الثانية من العمر أنه انتظر وقتا طويلاً قبل أن يتخذ أي أجراء لتسوية قضية كانت لها مثل هذه الأهميّة بالنسبة له! لقد أحتاج هيرودس الى سنتين ليدرك أن المجوس خدعوه ومن ثم ليستشيط غضباً! إن هيرودس الذي يحدّثنا التاريخ عنه هو بالتأكيد أكثر تهوّرا وأقل صبراً من ذلك الذي يصوّره العهد الجديد.

مما يجدر ذكره هو أن قصة ولادة عيسى في العهد الجديد تحمل تشابهات صارخة مع قصة ولادة موسى في العهد القديم. فالدور الذي يلعبه المجوس الثلاثة في كتاب مَتّى شديد الشبه بدور القابلتين في سِفر الخروج. وكما أمر فرعون القابلتين بقتل ذكور بني إسرائيل حديثي الولادة، وهو امر لا يمكن تفسيره إذا اخذنا بنظرا الاعتبار أنهما كانتا من بني إسرائيل، فإن المجوس الذين قدموا لتقديم إحترامهم للنبي عيسى أُمروا من قبل هيرودس بأن يدلّوه على مكانه. ولكن كما فعلت القابلتان، لم ينفّذ المجوس أمر الحاكم القلق. إن الصورة في كتاب مَتّى عن وجود إتصال مباشر بين الملك هيرودس والمجوس الثلاثة تشترك مع قصة العهد القديم عن ولادة موسى في عرضها لأحداث تجري على مقياس صغير أسماه هوتمان بـــ «جو القرية» (Houtman, 1993: 188). بعد أخذه لعيسى خارج مصر، أُمِرَ يوسف من قبل ملاك قال له: «*قم وخذ الصبي وامه واذهب الى ارض إسرائيل. لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي*» (مَتّى، ٢: ٢٠). إن هذا أيضاً يذكّر بقوة بتبليغ الرب لموسى «*أذهب إرجع لمصر. لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك*» (الخروج، ٤: ١٩).

هكذا فإن قصة مَتّى عن قتل هيرودس للذكور من الأطفال الصغار قد نُسِخَت في الحقيقة من قصة أفعال فرعون الوحشية في وقت ولادة موسى. بالرغم من ان قراءة سريعة لقصة مَتّى قد توحي بتماسكها، فإن قراءة مُتمعّنة لها كفيلة بكشف أنها نسخة منقولة بتصرّف من قصة موسى ولكنها طبعا ليست تاريخيّة بخلاف المصدر الذي نُقِلَت عنه. إن ذكر هروب عيسى الى مصر يشير الى أن هنالك أثر من الحقيقة في قصة مَتّى. ولكن بينما يمكن ان تكون بعض التفاصيل في قصة مَتّى عن ولادة عيسى صحيحة، فإن معظم باقي المعلومات التي تتعلّق بهيرودس، وخصوصا أمره المزعوم بقتل الأطفال الذكور، هو من إختراع مؤلِّف كتاب مَتّى. لقد بيّن رانديل هيلمز (Helms, 1989) بأنّ مادة كتاب مَتّى، وفي الواقع باقي كتب العهد الجديد ايضا، قد بُنِيَت على روايات في العهد القديم.

والآن، إذا كانت رواية مَتّى عن الإجراءات التي قام بها هيرودس لمواجهة ولادة عيسى مُختَلَقة، فلِمَ لا يشكّك المرء في مصداقيّة الإدّعاء بأنّ تاريخ ولادة عيسى كان خلال حكم هيرودس اساسا! ولكن مَتّى ليس لوحده هنا، إذ يبدو أن لوقا أيضا يشير ضمنياً إلى أن ولادة عيسى حصلت عندما

كان هيرودس ملكا على اليهودية. يروي لوقا أن ملاكا ظهر للنبي زكريا، الموصوف بأنه كاهن في عهد هيرودس، ليخبره بأنه سيرزق بولد. إن إبن زكريا المقصود هو النبي يحيى الذي وُلِد قبل ولادة عيسى بقليل. لذلك يمكن الإفتراض بأنّ لوقا أيضا يشير الى أن عيسى ولد عندما كانت اليهودية تحت حكم هيرودس. إلا أن لوقا يفسد سياقه التاريخي هذا بإشارته إلى تعدادٍ لسكان جميع انحاء الأمبراطورية الرومانية وقع عندما كانت مريم حاملا. ثم يستطرد ليقول «*وهذا الإكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والي سورية*» (لوقا ٢: ٢). المشكلة هنا هي أنه بينما مات هيرودس في السنة الرابعة ق.م، فإن التعداد الوحيد للسكان خلال حكم كيرينيوس في سوريا كان في عام ٦-٧ م، أي بعد حوالي عقد من وفاة هيرودس (أنظر الدراسة المفصلة Brown, 1993: 547-555)! ومن الجدير ملاحظته ايضا هو أنه لما كان هيرودس قد مات في العام الرابع ق.م، فأن إدعاء مَتّى بذبح هيرودس للأطفال الذكور الذين يقل عمرهم عن سنتين يعني ضمنياً بأن عيسى لا يمكن أن يكون قد وُلِد قبل العام السادس ق.م. إن هذا يوسّع الفجوة بين تاريخ ولادة عيسى المُتضمَّن في إشارة لوقا الى التعداد وبين تاريخ ما خلال حكم هيرودس.

كما ينص لوقا على أنه لكي يسجّل في التعداد «*فصعد يوسف أيضا من الجليل من مدينة الناصرة الى اليهودية الى مدينة داود التي تُدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليُكتَتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى*» (لوقا، ٢: ٤-٥). إلا أن أحد الاخطاء في هذا النص هو ان تعداد كيرينيوس اعلاه شمل اليهودية فقط وليس الجليل ايضا، وبالتالي فإنه لم يكن هنالك فعلا سببا يبرر مغادرة يوسف الجليل وذهابه الى اليهودية (Brown, 1993: 549-550).

شاهدنا مما تقدّم في هذا القسم بأنّ العهد القديم يدّعي بأن فرعون قام بمذبحة أطفال واحدة خلال حياة موسى بينما الحقيقة هي انه أرتكب مذبحتين، فيما يدّعي العهد الجديد بأن هيرودس ارتكب مذبحة أطفال خلال حياة عيسى بينما الحقيقة هي أنه لم يفعل! إن مؤلّف كتاب مَتّى هو الذي أختلق قصة هذه المذبحة المزعومة التي صاغها على غرار قصة ولادة موسى.

٩-٣ قصة ولادة النبي موسى: حقيقة لا موتيف أدبي

هناك ميل عام لدى الباحثين إلى رفض تاريخيّة الأحداث المذكورة في السجلات **التاريخيّة** القديمة بالنظر اليها على أنها «موتيفات أدبية» literary motifs. لقد عُرِّف الموتيف على أنه «أصغر عنصر في الحكاية له القدرة على البقاء في التراث» (Thompson, 1946: 415). إن تصنيف قصة ما بالكامل أو لبعض من خيوط أحداثها على أنها «موتيف أدبي» يُقصَد به هو أنها أما

نُقِلت من أعمال أدبية أخرى أو أنها أُلِّفت من قِبَل كاتبها. إنّ المعنى الذي تتضمّنه الحالتان واحد وهو أن تلك الحوادث لا أساس تاريخي لها. ليس بالامر المُفاجئ أن نجد بأنّ هذا المنحى قد طُبِّق على قصة ولادة موسى بهدف الوصول الى الإستنتاج بأن أحداث معينة على الأقل من القصة ليست سوى موتيف أدبي وأنها لم تكن يوما جزءا من التاريخ.

إن هيات هو أحد الباحثين الذين يجزمون بأن رواية العهد القديم للمرحلة المبكّرة من حياة موسى الطفل (الخروج، ٢: ١-١٠) هي «اسطورة، ويجب قرائتها على هذا الأساس لا على أساس أنها تاريخ» (Hyatt, 1971: 62). ويبني هيات إستنتاجه على دراسة نشرها دونالد ريدفورد عن «الموتيف الأدبي للطفل المتروك». جمع ريدفورد في هذه الدراسة ٣٢ قصة من العالم القديم تشترك جميعها بموتيف «البطل الذي يُترَك في طفولته» (Redford, 1967: 211). صنّف ريدفورد أسباب ترك الطفل في تلك القصص الى ثلاث فئات: (١) عار مصاحب لظروف ولادة الطفل؛ (٢) خطر يهدّد حياة الطفل من ملك يخشى ان يخلعه الطفل من عرشه في المستقبل؛ (٣) إنقاذ الطفل من مذبحة عامة.

يستشهد الباحثون الذين ينظرون الى قصة ولادة موسى على أنها موتيف شائع بقصة سرجون الأكدي (عاش حوالي ٢٣٠٠ ق.م) بالذات التي تحمل تشابها مع قصة ولادة موسى تأكيدا لنظرتهم هذه. فيما يلي النص الكامل الذي وصل الينا لقصة سرجون الأكدي والمكتوبة بصيغة المتكلّم:

سرجون، الملك العظيم، ملك أكد، هو أنا.
أمي كانت خائنة، وأبي لم أعرفه.
أخ (أو أخوة) أبي أحبوا التلال.
مدينتي هي أزوبيرانو، التي تقع على ضفاف الفرات.
أمي الخائنة حملت بي في السر.
وضعتني في سلة الأسل[47] وأحكمت إغلاق غطاءها بالقار.
رمتني في النهر الذي لم يرتفع فوقي.
حملني النهر وأوصلني الى آكي، ساحب المياه.
آكي، ساحب المياه، رفعني عندما غرف بكوزه.
آكي، ساحب المياه، أتّخذني إبنا له وربّاني.
آكي، ساحب المياه، عيّنني بستانيّه.

---

[47] نبات تُستعمل أوراقه الأسطوانية الطويلة في صنع مقاعد الكراسي وغيرها.

عندما كنت بستانيًا منحتني عشتار حبها،
ولأربع سنوات و [...] تمتعت بالملكية.
ملكت وحكمت الشعب ذو الشعر الأسود؛
سيطرت على الجبال الهائلة بمعاول قاطعة برونزية،
تسلّقت المديات العالية،
قطعت المديات الواطئة،
طفت ثلاث مرات بأراضي البحار.
سيطرت يدي على دلمون،
والى الدر الكبير صعدت، أنا [...]،
[...] غيرت و [...].
أي ملك كبير يأتي بعدي،
[...]،
دعه يملك ويحكم الشعب ذو الشعر الأسود؛
[دعه يسيطر على] [الجبال] الهائلة بمعاول قاطعة [برونزية]،
[دعه] يتسلّق المديات العالية،
[دعه يقطع المديات الواطئة]،
دعه يطوف [بأراضي] البحر ثلاث مرات!
دع يده تقتنص دلمون،
دعه يذهب [الى] الدر الكبير [...]!
[...] من مدينتي أكد
[...] ... [...] (*ANET*, 1950: 119).

من الواضح وجود بعض التشابه بين قصة ولادة موسى وقصة سرجون الأكدي. ويرى الباحثون في هذه العناصر المشتركة موتيف أدبي شائع، قاصدين ضمنياً بأن هذه التفاصيل المتشابهة لاتاريخيّة (أنظر مثلاً Hyatt, 1971: 62; Irvin, 1977: 191-192; Noth, 1962: 26-27; Rogerson & Davies, 1989: 354; Widengren, 1977:516). إلا أن من الممكن تشخيص عدد من العيوب الاساسية في هذا المنحى الشائع بين الباحثين.

أولا، هنالك المشكلة الرئيسة في كيفية تمييز الموتيفات الأدبية، ذلك أن تعريف تومسن أعلاه للموتيف مرن جدا. لِمَ يُنظَر الى تلك العناصر المتشابهة في قصة ولادة موسى وقصة سرجون على

أنها موتيف أدبي؟ يبدو أن الإجابة هي أن هذه العناصر تمثّل أحداثاً غير عادية أو نادرة أو غير محتملة الحصول، وبالتالي فإن ظهورها في كلتي الحالتين لا يمكن أن يكون، وفقا لرأي الباحثين، بسبب تاريخيّتها. إلا ان هذه الفرضية تفتقر الى البرهان وتحتوي بالتأكيد على عيوب. ولنأخذ مثالا. من حين لأخر نسمع ونرى تقاريرا اخبارية عن إنهيار بناية لسبب ما وعن إنتشال شخص حي من تحت أنقاضها بعد بضعة أيام من الحادث. من المحتمل أن تكون بعض تلك التقارير قد أختُلِقت لأسباب مختلفة، ألا ان الغالبية العظمى منها هي تقارير عن حوادث وقعت فعلا. وهكذا نجد أمامنا العديد من التقارير الاخبارية عن حوادث مختلفة ولكنها متشابهة، أو حتى تكاد تكون متطابقة، وفي نفس الوقت **ونادرة**. فهل يعني هذا بأننا يجب أن ننكر تاريخيّة تلك الحوادث لأنها نادرة ولا يمكن أن تكون قد وقعت بالمُعدّل الذي توحي به التقارير الاخبارية، وأن نستنتج بأن هذه التقارير الاخبارية منقولة عن بعضها؟ قد يبدو للبعض ان هذا المثال عن **تقارير أخبارية** لا يشبه حالة الأعمال **الأدبية** التي عالجها ريدفورد وغيره من الباحثين. ولكن في الواقع إن هذا التمييز العشوائي هو المشكلة بحد ذاته. فقد **أختار** الباحثون أن يعتبروا روايتي ولادة موسى وسرجون، وروايات غيرهما من الأحداث، كأعمال **أدبية**، بينما كان بمقدورهم أن ينظروا اليهما ككتابات **تاريخيّة**. إن هذا **الاختيار** هو فرضية تحتاج الى برهان، وهو بالتأكيد ليس ببرهان بحد ذاته على أي شيء.

لنأخذ مثالا أقرب الى الحالة التي تهّمنا هنا. تشترك الحالات الإثنتان والثلاثين التي أوردها ريدفورد (Redford, 1967) في دراسته المشار إليها أعلاه، والتي بعضها لاتاريخية بشكل واضح، إمّا أسطورية (خاصة بالبشر) أو خرافية (خاصة بالآلهة)، في تضمّنها على عنصر **الطفل الذي تنبذه أمه ويعثر عليه ويُربّيه شخص آخر**. إلا ان هذا العنصر الذي يُقدَّم على أنه «موتيف ادبي» يكاد يكون في وقتنا هذا فقرة يومية في الصحف ونشرات الاخبار. فهل هنالك شخص عاقل يمكن أن يوحي بأن التقارير الاخبارية عن أطفال رُضّع منبوذين يتم العثور عليهم وتبنّيهم من قبل آخرين تمثّل «موتيفا ادبيا»؟ بالطبع لا، لأن هذه أحداث معروف عنها أنها **حقيقية**، وهي تحدث في كافة أنحاء العالم لأسباب مختلفة كالفقر أو العار او اللامسؤولية. فقط عندما تكون هنالك حادثة مزعومة معيّنة لم تقع فعلا يكون هنالك تبرير للتفكير في تفسير محتمل لظهور التقرير الكاذب. ويمكن لهذا التفسير أن يكون أي شيء، بما في ذلك أنه نتاج لصحافة الأخبار المُختلَقة. إن هذا يعني بأن وصف العناصر المتشابهة بين قصة ولادة موسى وسرجون بأنها «موتيف أدبي» **لا يبرهن** لاتاريخيتها كما يدّعي بشكل تضليلي مستخدمي دراسة الموتيف كأداة للتحقيق التاريخي. إن هذه النزعة في الحقيقة **تفترض** بأن هذه الروايات لاتاريخيّة. سواء كانت قصة سرجون وغيرها من القصص الشبيهة

حقيقية أم لا هو أمر لا علاقة له بقضية تاريخيّة قصة ولادة موسى.

كمثال آخر على الإستخدام الأخرق لموتيف ادبي مزعوم لنفي تاريخيّة أحداث معيّنة هو تطبيق هذا المنحى على قصة يوسف التي كثيرا ما يُشار الى تشابه عناصر فيها مع «قصة الأخوين» المصرية القديمة. نجد في هذه القصة الأخيرة أخا أكبر له بيت وزوجة، وأخا أصغر مسؤول عن أعمال الحقل الشاقة. في أحد الأيام أثناء العمل بالحقل، نفذت البذور التي كانت مع الأخوين فأرسل الأخ الأكبر أخاه الأصغر ليجلب له بعض البذور من الدار. وفي الدار حاولت الزوجة أن تغوي أخا زوجها. عندما رفض الأخ الأصغر الأنصياع لزوجة أخيه قامت هذه بالتشكّي الى زوجها متّهمة أخاه الاصغر بمحاولة غوايتها وضربها عند رفضها محاولاته. عند ذاك أراد الأخ الأكبر قتل أخيه ولكن الأخير فرّ عندما علم من بقرتين عن نوايا أخيه. وتتضمن القصة الكثير من الحوادث الأخرى وتفاصيلها (*ANET*, 1950: 23-25).

لقد أتجه إنتباه الباحثين الى موضوع «الغاوية المرفوضة» الذي يظهر أيضا في قصة يوسف الذي رفض دعوة زوجة سيده الى الزنا (مثلاً Irvin, 1977; Pritchard, 1950: 23; Thompson, 1977: 155). إن ما يجعل أية محاولة للربط، بشكل مباشر أو غير مباشر، بين قصة يوسف والقصة المصرية سخيفة بصورة خاصة هو أن موضوع «الغاوية المرفوضة» كان دائما موجودا في الحياة الواقعية. بل ليس هنالك اي مبرر على الاطلاق للتشكيك في تاريخيّة ذلك الجزء بالذات من قصة يوسف. كما أن من الممكن جدا أن تكون القصة المصرية نفسها مستقاة من واقعة حقيقية لـــ «غاوية مرفوضة». في هذه الحالة، يمكن أن يكون هذا الموضوع نفسه الجزء الواقعي الوحيد من القصة المصرية. لذلك، فإن تصنيف هذا الموضوع على أنه «موتيف ادبي» ومن ثم إستخدامه لنفي تاريخيّة قصة يوسف هما أمران بلا معنى.

تبيّن الأمثلة أعلاه أن تصنيف خيط أحداث ما على أنه موتيف هو عملية عشوائية لا تحكمها قواعد مُعرَّفة بشكل واضح ولكن تسيّرها إستنتاجات يصر الباحثون على الوصول إليها معتمدين على تشخيصهم المزعوم للموتيفات. من الممكن لدراسة الموتيف أن توصل المرء بسهولة الى أية إستنتاجات يريد الوصول اليها. وهكذا، إذا أراد أحدهم **إثبات** أن قصة ولادة موسى هي غير تاريخيّة فكل ما عليه القيام به هو الاستشهاد ببعض العناصر المشتركة مع قصة سرجون ليعلن بعدها بأنه قد **برهن** على ما يريد! وبنفس الاسلوب يتم الاستشهاد بموضوع «الغاوية المرفوضة» في القصة المصرية القديمة لإثبات لاتاريخيّة قصة يوسف **من دون أي شك**! في الحقيقة، إن أسلوب تحليل الموتيف لا يمكن إستخدامه إطلاقاً لإثبات لاتاريخيّة حدث ما. إن مثل هذه المحاولات لا تقود سوى

إلى إستنتاجات زائف.

هنالك نقطة مهمة اخرى. إن قصتي موسى ويوسف هما قصتان تاريخيّتان طويلتان ومعقدّتان، وعند أخذ كل تفاصيلهما بنظر الاعتبار نجد أنهما تختلفان تماما عن القصص التي جمعها ريدفورد، بما فيها قصة سرجون وقصة الأخوين المصرية القديمة، على التوالي. لقد أوردنا أعلاه قصة سرجون بالكامل لتبيان ضآلة التشابه بينها وبين قصة موسى. ويمكن الوصول الى الإستنتاج نفسه عند مقارنة قصة يوسف مع قصة الأخوين المصرية القديمة. إن التشابهات بين قصة موسى وقصة سرجون وبين قصة يوسف وقصة الأخوين هي تافهة مقارنة بالإختلافات الكثيرة بين تلك القصص. لذلك فإن محاولة نفي تاريخيّة قصتي موسى ويوسف بالتحليل الموتيفي لجزء ضئيل من كل من القصتين هو إجراء ضال ومُضلِّل تماماً.

لقد رأينا في القسم السابق بأن أجزاء مهمة من قصة ولادة عيسى المذكورة في كتاب مَتّى هي في الحقيقة مُستعارة من قصة موسى وأن رواية مَتّى هي غير تاريخيّة. إلا ان من المهم جداً التأكيد على أن هذا الإستنتاج لم يُتوصَّل إليه بسبب من التشابهات بين مذبحة هيرودس المزعومة التي ذكرها مَتّى ومذبحة فرعون المذكورة في سجلات أقدم. إن نفي تاريخيّة الأحداث التي أوردها مَتّى مبني على غياب أية إشارة إليها في القرآن العظيم. لو كانت تلك الأحداث قد وقعت فعلا فإنها كانت ستُذكر حتما في القرآن الكريم، كما فُصِّل سابقاً. كما تشير الإعتبارات التاريخيّة بقوة إلى أن حلقة حوادث هيرودس المذكورة في قصة مَتّى لولادة عيسى ليس لها أساس في التاريخ. إن الاستنتاج بأنّ مؤلِّف كتاب مَتّى لابد أن يكون قد اقتبس قصته من قصة ولادة موسى، ومن ثم مناقشة الدافع وراء هذا الاقتباس، جاءا **بعد** ان تمت البرهنة على لاتاريخيّة رواية مَتّى وليس العكس. إن التشابه بين رواية مَتّى وقصة موسى ما كان سيكون كافيا للتشكيك في الأصالة التاريخيّة للأولى. وبالرغم من ضعف هذا الإحتمال، فليس هناك ما يمنع حصول أحداث متشابهة في حياتي كل من موسى وعيسى. إننا نذكر هذا للتأكيد والتبيين بوضوح بأن التحليل المستخدم للوصول الى الإستنتاج بلاتاريخية مذبحة هيرودس يختلف تماماً عن ذلك المُستعمَل في دراسات الموتيف.

١٠

أسماء دينية: حقائق وروايات خيالية

١٠-١ الهبيرو أو العبيرو

في نهاية القرن التاسع عشر كانت هنالك موجة إثارة بين باحثي العهد القديم بسبب إكتشاف ما أصبح يُعرَف بـــ «رسائل العمارنة» التي نُشرت في عام ١٨٨٨-١٨٩٢ م. وُجدَت هذه الرسائل في العمارنة في مصر الوسطى، في موقع عاصمة أمنحوتب الرابع. تمثّل هذه الرسائل، المكتوبة باللغة الأكدية، المراسلات الدبلوماسية التي استلمها أمنحوتب الثالث (١٣٨٦-١٣٤٩ ق.م) وإبنه وخليفته أمنحوتب الرابع (١٣٥٠-١٣٣٤ ق.م) من ولاة الأمبراطورية المصرية في كنعان. كان سبب هذه الإثارة إشارة هذه الوثائق الى أُناس يُعرَفون بـــالـــ «عبيرو»، الذين تصفهم الرسائل كمجموعات مثيرة للاضطرابات إشتركت في تمردات ضد السلطات المصرية في عدة مدن فلسطينية. تلقّف باحثو العهد القديم هذه النقطة، وساووا بين مصطلح «عبيرو» ومصطلح «عبري» الوارد في العهد القديم، فأعتبروا رسائل العمارنة مصدرا من خارج العهد القديم يدعم ما ذكره سِفر يوشع عن غزو بني إسرائيل لأرض كنعان. وساهم تأريخ هذه الرسائل في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن الرابع عشر ق.م في تعزيز هذه النظرة لأنه كان في توافق مع ما كان يُعتقد لفترة من الزمن بأنه تاريخ غزو كنعان من قبل يوشع.

إلا أن الإثارة التي سبّبتها رسائل العمارنة لم يُكتَب لها أن تدوم طويلاً حيث بيّنت نصوصا أُكتشفت لاحقا بأن «العبيرو»، التي كانت مكتوبة على شكل «هبيرو» في الوثائق المسمارية، **لم تكن** «مجموعة عرقية أقتصر وجودها على القرن الرابع عشر ق.م في فلسطين ولكن طبقة إجتماعية كانت موجودة طوال الألف الثاني ق.م وفي كل مناطق الشرق الأدنى القديم» (Miller, 1977: 249). جمع غرينبيرغ (Greenberg, 1955) مجموعة كبيرة من الوثائق القديمة التي تحتوي على مصطلح «عبيرو» والتي يرجع أصلها إلى مناطق مختلفة من الشرق الادنى، بضمنها مصر، وتغطي حقبة الألف الثاني ق.م بكاملها. إن أهم ما تبيّنه هذه الوثائق هو أن العبيرو كانوا لايزالون

موجودين في مصر حتى وقت متأخّر تأخّر حكم رمسيس الرابع (١١٥١-١١٤٥ ق.م)، أي بعد الخروج بحوالي خمسة عقود، كما تشهد بذلك الإشارة الى «٨٠٠ عبيرو» من بين الرجال الذين أرسلهم ذلك الفرعون لقلع الحجارة في وادي حمامات (Greenberg, 1955: 57).

بينما يساوي الباحث مينديهال بين مصطلحات **العبريين وبني إسرائيل والعبيرو**، فإن ميلر ينتقد هذا الرأي مشيرا إلى أنّ «فرضية كون عبيرو وعبري وإسرائيلي مترادفات هي، على الاقل، من المرجّح أن تكون فرضية تبسيطية بشكل مفرط» (Miller, 1977: 279). ويؤكد ميلر «أن قضية العلاقة (إن وُجِدَت) بين العبيرو والعبريين تبدو أقل وضوحا اليوم مما كانت عليه خلال أي مرحلة من مراحل البحث السابقة» (Miller, 1977: 267). ويرفض ديفير أيضاً مساواة العبريين بالعبيرو مقترحاً بأنه «إضافة الى مشكلة أصل الكلمة اللغوي وتحديد الهوية العرقية هناك السؤال الأكبر فيما إذا كان الآباء patriarchs المُصوَّرين في سِفر التكوين يشابهون عبيرو عصر العمارنة كطبقة إجتماعية-إقتصادية. فالآباء هم رعاة بدو مسالمون (باستثناء ما ورد في سِفر التكوين، ١٤)[48]، بينما العبيرو هم قطاع طرق وعادة في صراع دائم مع السلطة الحضرية» (Dever, 1977: 118). كما يؤكّد تومسن هو الآخر على أنه «يجب أن لا يُعتَبر العبيرو ببساطة ساميين؛ كما ان أساس ربط هويّتهم بعبريي العهد القديم ليس قويا جدا». ويضيف تومسن بأن «العبيرو كانوا عبيدا في مصر منذ وقت أمنحوتب الثاني (١٤٥٣-١٤١٩ ق.م) على الأقل، وكانوا لايزالون موجودين هناك خلال عصر رمسيس الرابع» (Thompson, 1977: 156).

ترفض الغالبية العظمى من الباحثين اليوم النظرة التي تعتبر «عبيرو» و «عبري» مصطلحين مترادفين. من جهة أخرى، يميل الكثير من الباحثين الى رفض أن يكون التشابه الواضح بين كلمتي **عبري وعبيرو** محض صدفة. مما يدعم هذا الموقف إشارات في وثائق رمسيسية تبيّن بأن العبيرو أخذوا نصيبهم من العبودية كعمال في مواقع البناء، وهو أمر شبيه بالضبط لما حدث لبني إسرائيل وفقا للعهد القديم. وتكتسب الوثائق التي تعود الى عهد رمسيس الثاني، مؤسّس باي-رمسيس، أهميّة خاصة. تأتي أحدى تلك الاشارات من منتصف فترة حكم رمسيس الثاني في بردية لايدن رقم ٣٤٨ من ممفيس، وهي إشارة يرى إبراهام ملامات أنها «دليل مرجّح على عبودية بني إسرائيل في مصر». في هذه الوثيقة، يستشهد الكاتب بتعليمات كان قد أستلمها سابقاً من سيده، أحد موظفي رمسيس الثاني، تتعلق بأعمال بناء في العاصمة الجديدة باي-رمسيس:

---

[48] في الفصل ١٤ من التكوين نجد إبراهيم وهو يحارب لتحرير إبن أخيه لوط من الأسر.

لقــد أستلمت الرسالة التي أرسلها سيدي [إليّ] والتي تنص: «إعط حصص ذرة الى الجنود والعبيرو الذيــن يســحبون صـــخور الى البوابة الضخمة لرمسيس-ميامون [حياة، رخاء، صحة!] «محبوبة مــيآت»، التي تحت سلطة رئيس ميدجاي آمينيموني». سأعطيهم حصص الذرة كل شهر وفقا للنظام الذي أمرني به سيدي (*LEM*, 1954: 491).

ويشير كازي، الذي يربط بين عبيرو وعبري كظاهرة إجتماعية لا كمجموعة عرقية، الى اوستراكون[٤٩] ostracon نُشِرت الكتابات عليها لاحقا يعود تاريخها الى السلالة التاسعة عشرة تُشير أيضاً الى العبيرو وهم مشغولين بحمل الصخور (Cazelles, 1973: 14). أما كينيث كيتشن، فليس لديه أي شك في ما تعنيه الوثائق:

بــدون شـــك، كـــان مخلوطا مع العبيرو اولئك الذين يظهرون في العهد القديم كعبريين، وخصوصا مجموعـــات عشـــائر إســـرائيل، الذين سكنوا الدلتا الشرقية منذ تلك الأيام البعيدة عندما قدم أجدادهم يعقوب ويوسف في البدء الى مصر هرباً من المجاعة (Kitchen, 1982: 70).

مثل الكثير من الباحثين الاخرين (مثل Noth, 1962: 21-22)، يوافق ملامات على أن هنالك بعض الروابط العرقية بين العبريين والعبيرو. إلا أنه يرى بأن العبريين يشملون عرق أوسع من بني إسرائيل بمعنى أن كل شخص من بني إسرائيل هو عبري ولكن ليس كل عبري هو بالضرورة من بني إسرائيل، وهي نظرة مُتضمَّنة في الاقتباس أعلاه من كيتشن أيضاً. لذلك فإن حقيقة أن عبيرو وعبريين أستُخدِموا كعمال عبيد في بناء باي-رمسيس لا يعني بالضرورة، حسب رأي ملامات، أن بني إسرائيل كانوا أيضاً مشتركين في أعمال البناء (Malamat, 1997: 18). فبالإضافة الى مشكلة العلاقة، إن وجدت، بين العبريين والعبيرو، هناك أيضا الغموض في الفرق، إن وجد، بين عبري وإسرائيلي.

أما العهد القديم، فإنه لا يلقي اي ضوء على الاصل اللغوي لمصطلح «عبري». بالاضافة الى هذا، فإنه يستخدم مصطلحي «عبريين» و «بني إسرائيل» بشكل متبادل ومن غير تمييز بينهما (مثلا الخروج، ١: ٧، ٩، ١٥، ١٦ و ١٩). يلاحظ هوتمان (Houtman, 1993: 123) بأنه لما كان العهد القديم يستخدم مصطلح «عبري» كإسم عرقي فإنه يجب ان يكون مرادفا لمصطلح «إسرائيلي». لكن بينما أصل الإسم الأخير واضح، ذلك أن إسرائيل هو الإسم الذي عُرف به يعقوب في أواخر حياته (التكوين، ٣٢: ٢٨)، فإن العهد القديم لا يتضمّن أية إشارة البتة الى أصل كلمة «عبري» التي تبدو

[49] شِقة من حجر الكلس الابيض.

وكأنها مرادفة لإسرائيلي. في القرن التاسع عشر، أقترح باحثو العهد القديم أن كلمة «عبري» قد أُشتِقّت من «ايفير» التي تعني «عبر» أو «جهة أخرى»، لأن العهد القديم ينص على أن إبراهيم **عبر** الى كنعان من بلاد ما بين النهرين، أي من **الجهة الأخرى** من الفرات أو نهر الأردن. ولاتزال هنالك اقلية من الباحثين تعتنق هذا الرأي (مثل McCarter, 1992).

قبل الشروع في رواية قصة بني إسرائيل في مصر خلال عصر موسى، يذكر العهد القديم كلمة «عبري» ست مرات، ثلاث منها تشير الى يوسف (التكوين، ٣٩: ١٤، ١٧؛ ٤١: ١٢). في واحدة من الاشارات المتبقية يطلق يوسف على بلاده الأصلية إسم «أرض العبريين» (التكوين، ٤٠: ١٥)، وفي أخرى يُسمّي إخوته بإسم «العبريين» (التكوين، ٤٣: ٣٢). وأخيراً إن أول إشارة الى كلمة «عبري» في العهد القديم ترد في عبارة «إبراهيم العبري» (التكوين، ١٤: ١٣). من الواضح أن هذا الإستخدام بالذات ينفي أية علاقة أصل لغوي بالأسم «إبراهيم».

بإختصار، لا يقدّم العهد القديم أي مفتاح للغز أصل كلمة «عبري» ولا يبيّن أي فرق بينها وبين كلمة « إسرائيلي». من جهة أخرى، بينما يرد مصطلحا «بني إسرائيل» و «يهود» في القرآن الكريم فإن مصطلح «عبري» غير موجود فيه. إن هذه الحقيقة القرآنيّة هي التي ستكون أساس تحليلنا لأصل كلمة «عبري» في القسم القادم.

١٠-٣ ماذا يعني إسم «عبري»؟

من الضروري لفهم أصل اسم «عبري» ملاحظة أنه قبل وروده في قصة يوسف في العهد القديم، حيث يظهر خمس مرات، ورد مرة واحدة وذلك عندما وُصِف إبراهيم بـ «إبراهيم العبري» (التكوين، ١٤: ١٣). إذا كان مصطلح «عبري» مصطلحا عرقيا مهما وقديما قِدَم إبراهيم على الأقل، فإن من الغريب جدا أن نجد كتابا يهتم بشدة بالقضايا العرقية وبتاريخ شخصيات ويتابع تاريخ الآباء بالتفصيل لا يشير الى «العبريين»، بإستثناء إشارته الى العبري الاول، إلا في هذه المرحلة المتأخرة من الكتاب التي تمثّلها قصة يوسف. أمّا الحقيقة الأخرى ذات الصلة المثيرة للاهتمام التي تجدر ملاحظتها هي ان يوسف «العبري» كان اول من دخل مصر من بني اسرائيل. هنالك ملاحظة اخرى مهمة جدا وهي أن ستيلي مرنبتاح لا تشير الى «إسرائيل» بمصطلح «عبيرو» (أنظر القسم ٨-٥)، بالرغم من أن المصطلح الأخير كان شائعاً في مصر. واضعين هذه الحقائق في إذهاننا، نستطيع الأن التقدم لتقصّي أصل كلمة «عبري».

نحن نعلم بأن بني إسرائيل كانوا مستعبدين للعمل في مصر، تماماً كما كان العبيرو. ولكن عند

تفصيله لمعاناة بني إسرائيل المُستعبَدين، لا يشير العهد القديم الى تعرّض أية مجموعة الى نفس المعاملة السيئة من المصريين التي تلقّتها المجموعة العرقية التي يمثّلها العبريون او بنو إسرائيل، مع أننا نعرف بالتأكيد أن بني إسرائيل لم يكونوا لوحدهم في تلك المعاناة. كما أن من غير الممكن تخيّل أن رمسيس الثاني أستخدمهم في أماكن كانوا سيكونون فيها لوحدهم العمال من العبيد (أنظر القسم ٨-١). لماذا إذن صمت العهد القديم المطبق هذا عن اية مجموعة عرقية أخرى شاركت بني إسرائيل معاناتهم؟

إن مؤلفي سِفر الخروج كانوا يعرفون تفاصيلا دقيقة عن طبيعة عمل البناء الذي كان بنو إسرائيل مُستخدمين فيه، مثل إستخدام القش في صناعة الطابوق وفرض نظام الحصص الأنتاجية، ولذلك فلابد أنهم كانوا أيضا على علم بوجود عبيد من غير بني إسرائيل مُسخَّرين في أعمال البناء تلك. لهذا فإن إغفال مؤلفي العهد القديم لأي ذكر لأولئك الناس لا يمكن أن يكون غلطة بريئة ولابد أنه كان متعمدا. فالسؤال هنا إذن ليس فيما إذا كان كتّاب سِفر الخروج متعمّدين في إغفالهِم لحقيقة أنّ بني إسرائيل لم يكونوا في الإستعباد لوحدهم ولكن السؤال هو عن الدافع وراء إغفالهم المتعمد هذا.

إن الإشارة الى أن أقواما من غير بني إسرائيل كانوا أيضا مستعبدين من قبل فرعون في أعمال سخرة كانت ستسلب تجربة بني اسرائيل المروّعة من **فرادتها** التي يؤكدها العهد القديم ضمنياً بقوة. لقد كان مُحرّرو العهد القديم ضد هذا تماما، ذلك أن إختيار فرعون لبني إسرائيل **بالذات، ولهم فقط**، لتلك المعاملة القاسية كان عنصر أساسيا في قصة العهد القديم لإستعباد بني إسرائيل. إذا كان أناس آخرين قد تعرّضوا الى مثل هذه المعاملة السيئة من فرعون فإن ما حدث لبني اسرائيل كان سيبدو أقل إثارة ومأساوية. في تلك الحالة، ما كان سيكون الامر قصة **شعب مظلوم** بقدر ما هو قصة **فرعون ظالم**. إنّ هذه النزعة نفسها هي التي تقف وراء عرض العهد القديم المُضلِّل لقتل فرعون للذكور من مواليد بني اسرائيل الجدد على أنه أستهدف عدد **شعب** بني إسرائيل لا ذلك **الفرد** المعيّن من بني إسرائيل الذي كان سيكون مصدر خطر كبير على فرعون في المستقبل، وكما بيّنا في الفصل السابق.

إن هذا التلاعب بالتاريخ بهدف وضع **شعب** بني إسرائيل في قلب الأحداث مسؤول أيضاً عن تشويه العهد القديم لمعنى تفضيل الله **لشعب بني إسرائيل** على **باقي الشعوب**. يشير هذا التفضيل الى إرسال الله لعدد كبير من الأنبياء الى بني إسرائيل، مما يعني بأن سبب التفضيل ليس **شعب** بني إسرائيل بل **أفراد** منهم هم الأنبياء. بعبارة اخرى، إن الله أغدق على بني إسرائيل فضلاً كبيراً

بإرساله الكثير من الأنبياء اليهم، إلا أن هذا يجب ان لا يُفهَم على أنه نعمة **أستحقّها** بنو اسرائيل ولكن كفضل من الله الجواد الكريم. فقد منّ الله على الكثير من الشعوب والأقوام المختلفة بما شاء من المزايا والنعم. إن هذه النعم هي في النهاية إمتحان للناس، فمن شكر وأتّبع طريق الحق زاده الله من فضله ومن جحد وأنكر قصمه وجعله عبرة للباقين. إلا أن تفضيل الله ﷻ لبني اسرائيل عُرِضَ من قبل مؤلّفي العهد القديم على أنه مؤشّر على تميّز **شعب** بني إسرائيل، أي **كل** بني إسرائيل، عن باقي الشعوب والامم. من المهم هنا ملاحظة أن مفهوم «الشعب المُختار» في العهد القديم يتناقض تماما مع صورة بني إسرائيل كما يبيّنها العهد القديم نفسه، حيث نجد هذا الشعب يرتكب الذنوب والمعاصي مثل غيره من الشعوب، بل وكان مصدر أذى ومعاناة مستمرة لأنبيائه أنفسهم. بل أن ظهور أنبياء في بني إسرائيل أكثر مما ظهر في غيرهم من الشعوب، وبالأخذ بنظر الاعتبار سوء معاملتهم لأولئك الأنبياء، يعني بأنّهم أرتكبوا في حق أنبياء الله من الآثام أكثر مما فعلت غيرهم من الأمم، وهو ما أكده الله ﷻ في غير موضع في كتابه الكريم:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (البَقَرَة: ٩١).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (البَقَرَة: ٨٧).

تتّفق **فرادة** تجربة **شعب** بني إسرائيل في مصر، كما هي مُصوّرة في العهد القديم، تماما مع **فرادة** موقعهم «كالشعب المختار» للرب. إن ما هو **فريد** بشأن شعب بني اسرائيل له علاقة بظهور **أفراد** معيّنين، وهم الأنبياء، ولا علاقة له **بشعب** بني إسرائيل (أنظر نقاش فقرة ٤-٣).

لما كان محرّرو العهد القديم في القرون اللاحقة يعرفون جيدا بأن مصطلح عبيرو كان مستخدما في مصر للإشارة الى العبيد بغض النظر عن أصلهم العرقي، وبالتالي فإنه كان يُطلق على بني إسرائيل أيضاً، فقد قرروا إختطاف هذا المصطلح، الذي كان بصيغة «عبري» لكتّاب العهد القديم، وإعادة إطلاقه كإسم عرقي آخر لبني إسرائيل. من الجدير بالذكر أنّ المصطلح المصري عبيرو توقّف إستعماله حوالي القرن العاشر ق.م، أي قبيل تدوين العهد القديم. لذلك كان كُتّاب العهد القديم قادرين تماما على إطلاق المصطلح على بني إسرائيل حصرا من دون الخوف من خلطهم مع شعوب أخرى.

إلا ان كتّاب العهد القديم وجدوا أنفسهم في مواجهة مشكلة أن بني إسرائيل لا يمكن ان يكونوا قد أصبحوا فجأة «عبريين» في مصر، فعالجوا هذا الامر بإلصاق مصطلح «عبري» بإبراهيم نفسه، جد بني إسرائيل. إذ إذا كان إبراهيم نفسه «عبريّا» (التكوين، ١٤: ١٣)، وإذا كان «عبري» هو مصطلح عرقي، فمن البديهي إذا أن كل بني إسرائيل هم أيضا «عبريون». إلا أن هذا الحل كان فعلا حلا اخرقا، لأنه عنى بأن **كل** أحفاد إبراهيم، وليس فقط بني إسرائيل، هم عبريّون. إلا أن العهد القديم يهمل هذا المضمون تماما حيث لا يوجد فيه عبريين غير بني إسرائيل وحيث يظهر مصطلَحا «عبري» و «اسرائيلي» كمترادفين. وهكذا فإن من غير الممكن ان يكون خلط مُحرّري العهد القديم بين العبيرو وبني إسرائيل قد حدث عفويا. إن جو هذه الاحداث هو جو مؤامرة أكثر منه جو تشويش وخلط غير مقصود.

إن هذه القراءة بالذات لأحداث الماضي تلك تفسّر الحقائق التالية: (١) التشابه الكبير بين مصطلحي عبري وعبيرو؛ (٢) بدء ظهور مصطلح «عبري» في زمن يوسف الذي كان أول من دخل مصر من بني إسرائيل حيث كانت العبودية شائعة؛ (٣) غياب أي أصل لغوي لمصطلح «عبري» في العهد القديم؛ (٤) إن الذكر الوحيد لكلمة «عبري» في العهد القديم قبل دخول بني إسرائيل الى مصر مرتبط بجدّهم إبراهيم؛ (٥) إستخدام العبيرو في مصر عبيدا؛ (٦) صمت العهد القديم المطبق على إستعباد مجموعات عرقية أخرى غير بني إسرائيل في مصر؛ (٧) عدم وجود حاجة حقيقية لمصطلح «عبريين» لوجود المرادفين «بني إسرائيل» و «إسرائيليين»؛ (٨) وأخيرا، إشارة ستيلي مرنبتاح الى بني إسرائيل بمصطلح «إسرائيل» وليس «عبيرو».

من الواضح إذا أنّ مصطلح «عبري» ليس سوى تسمية خاطئة، ولذلك فإن من الخطأ إستخدامه عند وصف بني إسرائيل. وهنا أيضاً نجد خطأ شائعاً ليس له مكان في القرآن العظيم، إذ لا يطلق القرآن العظيم على بني إسرائيل إسم عبريين إطلاقاً.

١٠-٣ أسماء بني إسرائيل في القرآن العظيم

يستخدم القرآن العظيم المصطلحات الثلاثة التالية للإشارة الى الذين أتبعوا موسى: (١) **بَنِي إِسْرَائِيلَ**، (٢) **أَهْلَ الكِتَاب**، (٣) **يَهُود** أو **هُود**. من الواضح أن **بَنِي إِسْرَائِيلَ** هو لقب عرقي يشير الى أن ذلك الشعب هو من سلالة يعقوب الذي كان إسمه الآخر «إسرائيل».

أما لقب «**أَهْلَ الكِتَاب**» فيشير الى الناس الذين كانت بحوزتهم كتب من الله وقت نزول القرآن العظيم. يطلق القرآن العظيم هذا اللقب على كل من اليهود الذين كانت بحوزتهم التوراة، كتاب

موسى، والنصارى الذين كان عندهم الإنجيل، كتاب عيسى. يبيّن إستخدام كلمة «**الكِتَاب**» في عبارة «**أَهْل الكِتَاب**» بصيغة المفرد بدلا من صيغة الجمع، أي بدلا من «أهل الكتب» أو «أهل الكتابين»، للإشارة الى اليهود والنصارى سويّة بأن كل الكتب الالهية تحمل في جوهرها نفس الرسالة الإلهية. وهكذا، تشير عبارة «**أَهْل الكِتَاب**» الى اليهود ولكنها لا تقتصر عليهم فقط. توضح الآيات التالية ما تشير اليه عبارة «**أَهْل الكِتَاب**»:

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (المَائِدَة: ٦٨).

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمْ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (النِّسَاء: ١٥٣).

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (النِّسَاء: ١٧١).

يتّضح من هذه الآيات الكريمة بأن أهل التوراة، أي اليهود، وأهل الإنجيل، أي النصارى، كلّهم يُسمَّون بـــ «**أَهْل الكِتَاب**».

أخيراً، نأتي الى مصطلح **يَهُود** أو **هُود** (مفرد مذكر: **يَهُودي**). إنّ المصطلح المقابل في اللغة العبرية[50] له تقريبا نفس اللفظ: **يِهودي**. يعتقد الباحثون بأن مصطلح يهودي مشتق من إسم أحد أبناء يعقوب الاثني عشر، **يهوذا**، حيث كان مصطلح يهودي يشير اصلا الى عضو في قبيلة يهوذا. ويردّد بعض الكتاب المسلمين كذلك هذا التفسير عند بحثهم لأصل الكلمة (أنظر مثلا الطبري، بدون تاريخ: ١١). ثم أستُخدِم المصطلح للإشارة الى أعضاء مملكة يهوذا التي أسّستها قبيلة يهوذا وأخيه من أبيه بنيامين. وبهذا المعنى الاخير الواسع الذي يشير الى اعضاء مملكة يهوذا تظهر كلمة «يهودي» لأول مرة في العهد القديم بشكل متأخر في سِفر الملوك الثاني (١٦: ٦). أما كيف اصبح مصطلح «يهودي» تسمية لكل أتباع الدين اليهودي فإن الموسوعة البريطانية تقترح بأن هذا حدث

[50] استخدامنا لمصطلح «اللغة العبرية» يعود الى ان هذا هو الأسم الدارج تلك اللغة.

لأن «الناجين من السبي (الذين كانوا في الاصل سكانا في مملكة يهوذا) كانوا بني اسرائيل الوحيدين الذين حافظوا على هويتهم المميَّزة. (اما القبائل العشرة لمملكة اسرائيل الشمالية فقد كان قد تم تشريدهم بعد الفتح الاشوري عام ٧٢١ ق.م وتم ذوبانهم داخلا من قوم آخرين)». أما القرآن العظيم فيعطي أصلاً مختلفاً تماماً للكلمة.

وفقا للقرآن العظيم فإن فعل إسم «يهودي» هو **هادَ** ويعني «تاب أو عاد الى الطريق الصحيح». ويأتي هذا الإسم أحياناً بصيغة الجمع «**الَّذِينَ هَادُوا**» التي تعني «الذين تابوا». هنالك حقيقة مهمة جدا نعرفها من القرآن الكريم وهو أن مصطلح يهود صيغ لأول مرة في التوراة ولم يكن له وجود قبلها. بعبارة أخرى، إن الله نفسه هو الذي صاغ هذا الاسم. وتبيّن الآيات التالية هذه الحقيقة بتأكيدها على أنه لا إبراهيم ولا أي من أولاده أو أحفاده، بما فيهم إسرائيل، يمكن أن يكونوا يهودا أو نصارى لأن كل من التوراة والإنجيل أُوحيتا بعدهم:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥). هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦). مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ (٦٧). إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آلَ عِمْرَان: ٦٨).[٥١]

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ (البَقَرَة: ١٣٥).

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠). تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (البَقَرَة: ١٤١).

إن حقيقة أن أجداد بني إسرائيل أنفسهم لم يكونوا يهوداً لا تترك أي شك في أنّ هذا المصطلح، بخلاف مصطلح «بني إسرائيل»، ليس عرقيا ولكنه يشير الى اولئك الذين آمنوا برسالة موسى واعتنقوا دينه، بغض النظر عن أصلهم العرقي. بالرغم من أن هدف موسى الأساسي بعد عودته الى مصر كان تحرير بني إسرائيل وإخراجهم من مصر فإن مهمته كنبي كانت ذات هدف أوسع وأشمل وأن رسالته لم تستهدف بني إسرائيل فقط. لذلك، فإن أُناسا كنعانيين من غير بني إسرائيل، على

---

[51] أنظر التعليق على كلمة «مسلم» في القسم ١٠-٥.

سبيل المثال، لابد وأن يكونوا قد أهتدوا الى الدين الجديد الذي أُرسِل به موسى وأصبحوا يهودا حالهم مثل حال بني إسرائيل. من المحتمل جدا أن يكون مجال النشاط الإرشادي لنبي معيّن محدودا لأسباب عملية، ولكن ليس لأسباب مبدئية. لذلك، فمثلا عندما سُأل يوسف من قبل سجينان كانا معه في السجن في مصر المُشركة بأن يفسر لهما رؤيتيهما فإنه بدأ أولاً بإرشادهما ووعظهما عن دينه التوحيدي، طبعا على أمل جعلهما يعتنقان الدين الحق:

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ (٣٦). قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالاخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧). وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨). يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩). مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠). يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (يُوسُف: ٤١).

وفعلاً يخبرنا القرآن العظيم عن رجل من قوم فرعون آمن برسالة موسى: «وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» (غَافِر: ٢٨). من المهم ملاحظة أن القرآن لا يصف هذا المؤمن برسالة موسى من غير بني إسرائيل بتعبير «يهودي» بل بكلمة «مُؤْمِنٌ». بل وما هو أوضح من هذا أن نجد القرآن العظيم يستخدم دائما مصطلح بني إسرائيل للإشارة الى شعب موسى خلال كفاح موسى ضد فرعون. ليست هنالك اية إشارة طيلة فترة المواجهة بين موسى وفرعون الى بني إسرائيل بلقب يهود. إن السبب ببساطة هو أن التوراة لم تكن قد أُوحيت بعد الى موسى، ولذلك فإن أتباع موسى لم يكونوا قد سمّوا يهوداً بعد.

إن أبكر حادثة تاريخيّة يسمّي خلالها القرآن الكريم أتباع موسى يهودا هي عندما ذهب سبعون من خيار قوم موسى معه الى الجبل، حيث كان يكلّمه ربه، لكي يسمعوا بأنفسهم كلام الله لموسى.

تكشف واحدة من الآيتين التي تصف هذه الحادثة الأصل اللغوي لكلمة «يهودي»: «**وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥). وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)**» (الأعراف: ١٥٥-١٥٦). في الآية الأخيرة يدعو موسى الله قائلاً «**إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ**» التي تعني «إنا تبنا إليك». وفقا للقرآن العظيم، وقعت هذه الحادثة بعد إستلام موسى **للألواح المكتوبة** من قبل الله. لقد استخدم موسى في دعاءه اعلاه مصطلحاً كان قد صاغه الله في التوراة.

والآن لنلخّص ما تقدم. يشير القرآن العظيم الى بني إسرائيل بثلاثة مصطلحات كل منها ذي أصل لغوي واضح: «**بَنِي إِسْرَائِيلَ** »، و«**أَهْلَ الكِتَابِ**»، و«**يَهُود** أو **هُود**». إلا أن كتاب الله لا يحتوي على كلمة تقابل كلمة «عبري» وهو أمر يعكس حقيقة أن إسم «عبري» لا يشير فعلا إلى بني إسرائيل فقط وإنما هو إسم أختاره لهم كتّاب العهد القديم لغايات غير نزيهة.

وبعد كشف أسطورة كلمة «عبري»، لننتقل الآن الى معالجة أساطير أخرى مرتبطة بمصطلح «نصراني».

١٠-٤ ناصري من الناصرة؟

في النص الإغريقي للعهد الجديد، يُسمّى عيسى «نازورايوس» Ναζωραίος أو «نازارينوس» Ναζαρηνός اللتان تترجمان في الإنجليزية الى كلمة «نازارين» Nazarene. يستعمل كتاب يوحنا (١٨: ٥، ٧؛ ١٩: ٩) وكتاب أعمال الرسل (٢: ٢٢؛ ٣: ٦؛ ٤: ١٠؛ ٦: ١٤؛ ٢٢: ٨؛ ٢٦: ٩) الصيغة الأولى فقط للقب عيسى الإغريقي والتي تبدو مُفضّلة في كتابي متّى (٢: ٢٣؛ ٢٤: ٧١) ولوقا (١٨: ٣٧) كذلك. أما كتاب مرقس فيستخدم دائما الصيغة الثانية للقب عيسى (١: ٢٤؛ ١٤: ٦٧؛ ١٦:٦)[52]، التي تظهر أيضاً في كتاب لوقا (٤: ٣٤؛ ٢٤: ١٩). كما أنّ اللقب الأول مُستخدم مرة واحدة في أعمال الرسل (٢٤: ٥) للإشارة الى أتباع عيسى وذلك عندما اتّهم الخطيب تيرتولّوس بولس بأنه «زعيم فتنة لطائفة النازورايوسيّين».

وفقا لمؤلّف كتاب متّى، فإن لقب عيسى، «نازورايوس» أو «نازارينوس»، مُشتَق من إسم المدينة التي تربى فيها، «الناصرة»، التي تظهر في النص الاغريقي على شكل «نازاريث»

---

[52] أُستخدِمت الصيغة الاولى في مرقس ١٠: ٤٧.

أو «نازاريت» Ναζαρέτ وتُقابل في الانكليزية Nazareth. وبسبب من تحليل مَتّى اللغوي هذا فإن صيغتي لقب عيسى تُتَرجَمان في العربية الى «ناصري» أو «من الناصرة». وهذا هو نص العهد الجديد الذي حلّل فيه مَتّى معنى لقب عيسى «*وأتي وأسكن في مدينة يقال لها ناصرة. لكي يتم ما قيل بالأنبياء إنه سيُدعى ناصريا*» (مَتّى، ٢: ٢٣)، وكما نرى فإن الترجمة العربيّة تستخدم فعلا كلمة «ناصري». Ναζαρέτθ

أمّا القرآن العظيم، فخلافا للعهد الجديد، لا يشير الى عيسى بلقب يعني «الناصري». إن هذه حقيقة قرآنيّة أخرى تكشف معلومات تاريخيّة هامة كما سنرى لاحقا في هذا القسم.

لقد قبل بعض الباحثين تحليل مَتّى اللغوي أعلاه للقب عيسى (Pellett, 1962: 525; Davies & Allison, 1988: 281)، إلا أنّ البعض لفت الانتباه الى مشكلة في هذا الإشتقاق اللغوي للكلمة. فقد أشار بعض الباحثين الى أنه بينما لا توجد مشكلة في إشتقاق «نازارينوس» لغويا من «نازاريث»، فإن الحال يختلف مع كلمة «نازورايوس». ففي الفقرة الخاصة بكلمة «نازارين» Nazarene، والتي تمثّل الترجمة الأنكليزية للقب عيسى الأغريقي، تذكر الموسوعة البريطانية بأن المعنى الدقيق لهذا اللقب غير معروف. إلا أنّ هنالك من يدّعي بأنّه بالرغم من صعوبة إشتقاق «نازورايوس» من «نازاريث» فإنه ليس بمستحيل (مثلاً Moore, 1920: 428; Davies & Allison, 1988: 281). كما أشار كولمان أيضاً الى أن إسم تلك المدينة يرد مكتوبا بصيغ مختلفة في الموروثات التراثية ولذلك فليس من الممكن إستبعاد أحتمال إشتقاق «نازارينوس» من «نازاريث». إلا انه مع ذلك يجد «حفاظ الصيغة الغريبة "نازورايوس" على موقعها في الإغريقية بهذا الثبات بجانب الصيغة الابسط "نازارينوس" التي كانت موجودة اصلا» (Cullmann, 1962: 523) أمرا لا يمكن تفسيره. إلا أنّ هناك اسباب أكثر إقناعاً بكثير تستدعي رفض الإدّعاء بأن عيسى عُرِف بلقب يعني «الناصري»، الذي يمثّل فهم مَتّى للقب نازورايوس/نازارينوس، وكما مُبيَّن أدناه.

ذُكِرَت مدينة الناصرة لأول مرة في العهد الجديد وليس هنالك مرجع مستقل أقدم يذكر تلك المدينة. ولم تُذكَر الناصرة في العهد القديم أو التلمود[٥٣] أو الميدراشيم[٥٤] أو في كتابات المؤرِّخ اليهودي جوزيفوس. إن أقدم ذكر للناصرة في مصدر من خارج العهد الجديد منسوب الى جوليوس

---

[53] التلمود (القرن الميلادي الثالث الى السادس) هو السجل المكتوب لكل من «المشنا»، وهي أقدم الشرائع الحاخامية وسجل النسخة الشفهية للعهد القديم وتعود الى حوالي عام ٢٠٠ م، و«الغمارا» التي تتكون من سجلات لمناقشات حول المشنا.

[54] مفرد ميدراشيم هو ميدراش، وهي تعليقات حاخامية على نصوص العهد القديم ويعود تاريخها الى حوالي عام ٣٠٠ م.

الأفريقي Julius Africanus (١٧٠-٢٤٠ م) وأستشهد به يوسيبيوس القيساري (توفي حوالي ٣٤٠ م). والتفسير المقبول لدى الباحثين بشكل عام لغياب الناصرة من السجلات التاريخيّة القديمة هو أنها كانت مدينة صغيرة مغمورة (مثلاً Pellett, 1962: 524; Moore, 1920: 429). ويُقدَّر عدد سكان الناصرة في عصر عيسى من التحريات الآثارية بأنه كان بين ٥٠-٢٠٠٠ نسمة (Theissen & Mertz, 1998: 165). وبينما يبدو هذا التفسير معقولا، فإن الحجة التي تطرح نفسها هنا هي أنه إذا كانت الناصرة غير ذات أهميّة الى هذا الحد فأي معنى كان سيكون في نسبة عيسى إليها وتسميته بلقب «الناصري»؟ من الطبيعي أنه لا يمكن تعريف شخص ما بنسبته إلى مدينة هي الاخرى مجهولة!

ليست المشكلة الوحيدة هنا هي أن عيسى لا يمكن ان يكون قد نُسِب الى مدينة مجهولة وغير مهمة مثل الناصرة، ولكن المشكلة الأخرى والأكثر أساسية تتناول الفكرة نفسها في أن يكون عيسى قد مُنِح لقباً ينسبه الى مدينة، حتى إذا كانت كبيرة ومعروفة. يشير ديفيز وأليسون (Allison, 1988: 281) الى أنه كان من عادة اليهود تمييز الأفراد بنسبتهم الى المكان الذي جاؤوا منه. إلا أن عيسى لم يكن بأي حال من الأحوال شخصاً عادياً كي ينطبق هذا عليه. من غير الممكن ان يكون عيسى قد لُقِّب على إسم المدينة التي تربّى فيها أو أشتهر فيها وذلك لأن من المُحتَّم أن يكون قد حمل منذ ولادته لقبا يذكِّر الناس بتلك الولادة الإعجازية الفريدة. وهذا فعلا ما يعلمنا القرآن بحدوثه، بل ويكشف بأن الخبر الذي حمل إلى مريم بشرى حملها بإبنها حمل أيضا أسم الوليد ولقبين كان سيُعرَف بهما. أما الإسم الذي أطلقه الله على هذا الطفل المعجزة فهو «عِيسَى»، وأما اللقبين فهما «**الْمَسِيحُ**» و «**ابْنُ مَرْيَمَ**»، وكما في بشارة الملائكة لمريم: «**إِذْ قَالَتْ الْمَلائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالاخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ**» (آل عمران: ٤٥). وهكذا ليس لعيسى في القرآن الكريم لقبا ينسبه الى مدينة ما لأنه كان حمل منذ وقت ولادته لقبين فريدين ميّزاه عن غيره ممن خلق الله من البشر.

إن موضوع معنى لقب المسيح يقع خارج نطاق هذا الكتاب، يكفي أن نشير هنا الى أن هذا اللقب لا علاقة له بمكان ما ولكنّه لقب فريد لم يحمله أحد غير عيسى. في معظم مرات وروده في القرآن، يأتي لقب المسيح مرتبطاً بلقب عيسى الثاني «إبن مريم». سنركّز هنا على هذا اللقب الثاني الذي ورد ذكره ضعف عدد مرات ورود لقب المسيح. من الجلي أنّ «إبن مريم» هو لقب فريد خاص بعيسى يشير الى ولادته الإعجازية والفريدة حيث حملت به أمه من دون أب، ولاشك أن الناس عرفوه بهذا اللقب منذ وقت ولادته.

إن حقيقة حمل عيسى للقبين فريدين ومتميّزين جدا منذ أيامه الاولى تعني بأنه لم تكن هنالك حاجة في أية مرحلة لاحقة من حياته لصياغة لقب ما له. حتى عندما بدأت أخبار معجزاته بالانتشار لم يكن هناك داعي لإعطائه لقباً جديداً لأن لقب «إبن مريم» القديم كان يشير اساسا الى أعظم معجزة في حياته. بل ان استبدال لقبه الفريد «إبن مريم» بلقب عام يربطه بمكان ما كان سيكون امرا اكثر خلوا من اي معنى. إن أي شخص أصله من ذلك المكان كان يمكن أن يُلَقّب نسبة اليه، إلا ان عيسى هو الوحيد الذي كان يمكن ان يُمنَح لقبا مُشتقّا من حقيقة انه لم يلد كنتيجة لعلاقة بين ذكر وانثى. كما أن من الهراء إقتراح أن يكون أتباع عيسى على وجه الخصوص قد استبدلوا لقب «إبن مريم» ذو الدلالة والمُميَّز بلقب غير ذي معنى، باهت، وأجوف ينسب عيسى الى مدينة ما. إن إدّعاء العهد الجديد بأن لقب عيسى كان «الناصري» هو إدّعاء تافه حقاً.

ولكن كيف يمكن تفسير غياب لقب عيسى «إبن مريم» الذي يكشفه القرآن العظيم من العهد الجديد؟ في الواقع إن هذا اللقب ليس بغائبٍ عن العهد الجديد ولكنه موجود بصورة مشوّهة. إن اللقب الحقيقي «إبن مريم» هو أصل اللقب المزيف «إبن الإنسان» الذي نجده في العهد الجديد. ولكن لماذا هذا التغيير؟ حقا، ما معنى إطلاق لقب «إبن الإنسان» على شخص ما طالما كان كل إنسان هو بالتعريف إبن إنسان؟ لقد كان المقصود من هذا اللقب خدمة غرض أكثر تعقيدا من مجرد الإشارة الى عيسى. إذ هَدَفَ الذين صاغوا لقب «إبن الإنسان» الى تأكيد ما اعتقدوه من طبيعة ثنائية لعيسى كإبن الإنسان وإبن الرب. فبلقب «إبن الإنسان» أبرز مخترعو هذا اللقب ضمنياً اللقب الثاني الذي منحه الناس لعيسى، «إبن الرب». إن «إبن مريم» هو لقب فريد حقا أشار ويشير الى عيسى فقط، أما مخترعو لقب «إبن الإنسان» فقد كانوا يهدفون من صياغة هذا اللقب إلى ما يشير الى «إبن الرب» لا الى عيسى.

إن إدعاء العهد الجديد بأن عيسى كان يُعرَف بلقب يعني «الناصري» يواجه مشكلة اخرى لا يمكن قهرها. سبق وان ذكرنا بأن كتاب أعمال الرسل (٢٤ :٥)، بالإضافة الى كتابات متأخرة أخرى، تستخدم صيغة الجمع للقب «نازورايوس» للإشارة الى أتباع عيسى. والآن، إذا فرضنا، لغرض المناقشة، أن هذا اللقب يعني «ناصري» وأن هناك معنى ما في نعت عيسى به، بسبب عيشه في الناصرة، فإنه بالتأكيد لن يكون هناك معنى في إطلاق هذا اللقب على أتباعه أيضا الذين جاءوا من أماكن مختلفة. من البديهي أن إتّباع شخص **ناصري** لا يجعل من الأتباع أنفسهم **ناصريين**! كان كولمان احد الذين لاحظوا بأنه إذا كان لقب عيسى يعني **شخصا من الناصرة**، كما يذكر كتاب مَتّى، فإنه «امر غير أعتيادي أن يكون قد أُشير اليهم [المسيحيون] على أنهم "ناس من الناصرة"» (

(Cullmann, 1962: 523). بسبب من كل ما تقدّم فإن قبول تحليل مَتّى اللغوي للقب لعيسى ليس فيه شيء من الحصافة كما اقترح ديفيز وأليسون (Davies and Allison, 1988: 281).

في سياق اشتقاقه للقب عيسى من كلمة ناصرة، يستشهد كاتب مَتّى بنبوءة من العهد القديم:

فقام واخذ الصبي وامه وجاء الى ارض إسرائيل. ولكن لما سمع ان ارخيلاوس يملك على [أصبح ملك] اليهودية عوضا عن [خلفا لـ] هيرودس أبيه خاف ان يذهب الى هناك. واذ أُوحي اليه في حلم انصرف الى نواحي الجليل. وأتي وأسكن في مدينة يقال لها ناصرة. لكي يتم ما قيل بالأنبياء إنه سيُدعى ناصريا[55] (متى ٢: ٢١-٢٣).

إن مؤلِّف كتاب مَتّى كان في الواقع مؤرخاً غير أمين لسبب بسيط هو أنه يذكر نبوءة غير موجودة على الإطلاق في العهد القديم! لاشك أنّ هذه المعلومة الخاطئة التي لا أساس لها تقوّض مصداقيّة تحليل مَتّى اللغوي. إذ حتى إذا أهملنا المشاكل المذكورة اعلاه في إشتقاق لقب عيسى من الناصرة، فإن هذا الإشتقاق يبقى مُتَّهماً بإفتقاره لأي أساس. في الحقيقة ليس هنالك أي سبب لتفضيل الادعاء بأن لقب عيسى مشتق من الناصرة على أي من الإحتمالات الأخرى الممكنة لأصل الكلمة (أنظر مثلاً الإحتمالات التي جمعها ديفيز وأليسون، Davies and Allison, 1988).

إلا أن هناك حقيقة مهمة اخرى يمكن إستنتاجها من إيراد مَتّى لنص غير موجود في العهد القديم. فقد بيّن راندل هيلمز (Helms, 1989) بأن كتّاب العهد الجديد لم يدّخروا وسعا في الربط بين نصوص من العهد القديم وحوادث في حياة عيسى ليؤكدوا بأن عيسى مَثَّل تصديق نبوءات العهد القديم تلك. إلا أن هذا المنهج كان مُتصلباً وأعمى الى حد أن تاريخ عيسى نفسه كُتب في العهد الجديد بشكل يبيّن بأن عيسى كان تجسيد تلك المقولات والنبوءات القديمة في العهد القديم. وهذا يعني بأنه في الحالة مدار النقاش فإن العكس قد حدث. أي أن لقب نازورايوس/نازارينوس كان مُستَعمَلا أساساً وبالتالي فإن الذي أحتاج مؤلِّف كتاب مَتّى إلى اختراعه في هذه الحالة هو نص في العهد القديم يشير الى اللقب؛ وهذا هو بالضبط ما قام به ذلك الكاتب.

من المعروف الآن انه لا يوجد أي دليل على الاطلاق يربط بين لقب نازورايوس/نازارينوس وبين مدينة نازاريث أو الناصرة. كما أن هناك حججا قوية جدا تعارض مثل هذا الإشتقاق. لقد بيّن القرآن العظيم بشكل ضمني منذ أربعة عشر قرناً بأن إشتقاق نازورايوس/نازارينوس من الناصرة

---

[55] كما اشرنا سابقا، تُتَرجَم صيغتا لقب عيسى الاغريقي الى كلمة «ناصري» في العربية وكأن تحليل مَتّى اللغوي لمعنى هذا اللقب قد حسم هذه المسألة تماما!

ليس صحيحاً وذلك من خلال تحليله اللغوي لكلمة «نَصْرَاني» التي تقابل ذلك اللقب. إضافة الى هذا، فإن الكتاب العزيز واضح تماما في كشفه عن أن كلمة «**نَصْرَاني**»، التي جمعها «**نَصارَى**»، لم تكن لقبا لعيسى نفسه ولكن لقبا لأتباعه. حتى أولئك الباحثين الذين فكّروا في ربط كلمة نازورايوس/نازارينوس بكلمة أخرى غير الناصرة كانوا منطلقين في بحثهم من الفرضية الخاطئة بأن نازورايوس/نازارينوس كان لقب عيسى. إن «**نَصْرَاني**» (نازورايوس/نازارينوس) لم يكن يوما لقبا لعيسى (أنظر أيضا النقاش في قسم ١٠-٥). لقد كان عيسى معروفا فقط بلقبي «إبن مريم» و «المسيح».

إن كلمة «**نَصْرَاني**» وصيغة الجمع «**نَصارَى**» لا تنتميان الى اللغة العربية التي كانت سائدة في عصر نزول القرآن العظيم. بعبارة اخرى، كانت هاتان الكلمتين ولازالتا مجرد اسم لأتباع المسيح ولا تعنيان اي شيء آخر باللغة العربية. إن هذه الحقيقة تنعكس في الشكل الفريد الذي ترتبط به صيغتي المفرد والجمع لنفس الكلمة هاتين. لذلك فلابد أن كلمتي **نَصْرَاني** و**نَصارَى** اللتين كان العرب يستخدموهما وقت نزول القرآن العظيم هما كلمتين غير عربيّتين أو قد تطوّرتا عن كلمتين غير عربيّتين. فلو كان القرآن العظيم قد أستخدم إسم **نَصْرَاني/نَصارَى** للاشارة الى المسيحيين من غير إشارة الى معنى هذه الكلمة لكان من الصعوبة جدا تتبّع أصلها ومعناها. ولكن حمدا لله فإن هنالك مجموعتين من الآيات الكريمة، تتكوّن كل منهما من آيتين كريمتين، يكشف ربطهما سوية بوضوح معنى **نَصْرَاني/نَصارَى**، وكما سنبيّن في ما يلي.

وردت كلمة **نَصارَى** في عدد من الآيات الكريمة. تشير إثنتان من هذه الآيات الكريمة الى أتباع عيسى بعبارة «**الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصارَى**»:

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (المَائِدَة: ١٤).

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (المَائِدَة: ٨٢).

إن تعريف القرآن العظيم لأتباع عيسى بدلالة إعلانهم بأنهم **نَصارَى** قد جاء من حادثة معينة حصلت بين عيسى وأتباعه يصفها القرآن العظيم بالآيات الكريمة التالية:

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آلَ عِمْرَان: ٥٢).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (الصف: ١٤).

يتّضح من هذا بأن الكلمة المقابلة لكلمة **نصارى** في عربية القرآن العظيم هي **أَنْصَار**. أما فعل **أَنْصَار** فهو «نَصَرَ» والذي يعني «دَعَم، أيّد، ساعَد، سَندَ، أعانَ ... الخ». وهكذا فإن **أَنْصَار** تعني «مؤيدين». تبيّن الآيتان الكريمتان أعلاه السياق الديني والمعنى الخاص لكلمة **أَنْصَار** عندما تُستَخدَم في الإشارة الى أتباع عيسى. إن مصطلح **أَنْصَار** يرد في سياق وصف أتباع عيسى بأنهم **أنصار عيسى على الطريق الى الله** والذي غاية معناه «**أَنْصَارُ اللَّهِ**» الذي دعا عيسى الناس إلى عبادته.

إن مثل هذا الاستخدام للفعل **نَصَرَ** يرد في عدة آيات كريمة في القرآن العظيم في سياق الاشارة الى من آمن برسالة النبي محمد ﷺ. فمثلاً تنص الآية الكريمة الاولى من الآيتين التاليتين على أنه بهجرتهم من ديارهم إتّباعا للرسول ﷺ، الذي كان قد هو نفسه قد هاجر بسبب من الإضطهاد الذي تعرّض له، فإن المؤمنين نصروا الله ورسوله. هنا أيضاً نجد بأن نصر الرسول ﷺ يُعتَبَر نصراً لله، أي دعما لما يريده الله. أما الآية الثانية فتحث المؤمنين على نصر الله لكي ينصرهم الله:

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ (الحَشْر: ٨).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (مُحَمَّد: ٧).

يتّضح إذن بأن مصطلح نصارى كان قد تطوّر من كلمة أصلية، ربما آرامية، كانت تعني بالعربية «أنصار» كانت قد أُستعملت بالترابط مع إسم الله لتعني **أنصار الله**. بحلول عصر نزول القرآن العظيم كان عرب الجزيرة قد درجوا على إستخدام كلمتي **نَصْرَاني/نَصارَى** في الاشارة الى تابع وأتباع عيسى على التوالي. إلا ان العرب كانوا جاهلين تماما بمعنى كل من هاتين الكلمتين لأنهما لم تكونا تنتميان الى عربية ذلك الزمان ولأن خلفيّتهما التاريخيّة كانت مجهولة. لقد كشف القرآن العظيم للعرب سرا لم يكونوا هم ولا آبائهم يعرفوه. إلا ان هذا لم يكن سرا خافيا على العرب

فحسب، ولكن حتى على اولئك المسيحيين واليهود الذين كانوا قد فقدوا صلتهم بالإنجيل، الكتاب الذي أسمى الله فيه أتباع عيسى بالنصارى، اي أنصار الله. ليس هنالك دليلا افضل على هذا الجهل من أن مؤلِّف كتاب مَتّى نفسه يورد تحليلا لغويا خاطئا لأصل هذه الكلمة. أما مؤلِّفي الكتب الثلاثة الاخرى من كتب العهد الجديد الاربعة الاولى فيقبلون بشكل ضمني إشتقاق نصارى من كلمة الناصرة. إن هذا امر يقبله المسيحيون بشكل عام مثلما يقبلون إدعاء العهد الجديد بأن نازورايوس/نازارينوس كان لقب عيسى.

سبق وان اشرنا في القسم ٤-٢ الى جهل متفشي آخر يخص المعنى الكامل لأسم الكتاب الذي انزله الله على عيسى. إن هذا الكتاب الذي اسمه في الاغريقية Ευαγγελιον، الذي يُترجَم في الانكليزية الى كلمة Gospel، والذي يرد في القرآن العظيم بصيغة **الإِنْجِيلَ**، وهي كلمات تعني كلها «البشارة»، أكتسب اسمه الالهي من حقيقة أنه جاء ببشرى إرسال النبي محمد ﷺ.

في الحادثة التي تصفها الآيتان ٥٢ من سورة آل عمران و ١٤ من سورة الصف يذكّر عيسى الحواريين بالإسم/الصفة التي كان الله قد أطلقها على أتباعه في الإنجيل. لذلك، عندما سألهم عيسى «**مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ**» أجابه الحواريون«**نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ**». كما هو الحال مع إسم **يَهودي/يَهود** فإن إسم **نَصْرَاني/نَصارَى** أيضاً أُطلِقَ على المسيحيين من قبل الله، وكما تبيّن الآيات الكريمة التالية التي تحاجج اليهود والنصارى بأن إبراهيم لا يمكن ان يكون يهوديا ولا نصرانيا وقد نزلت التوارة والأنجيل بعده: «**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** (٦٥). **هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ** (٦٦). **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ** (٦٧)» (آلَ عِمْرَان: ٦٥-٦٧).

من الملاحظ أن الله وصف كل أتباع عيسى، وليس فقط أولئك الذين عاصروه، بأنهم من «**الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى**» (المائدة: ١٤ و ٨٢). إن هذا في الحقيقة إشارة الى الحدث الأصلي المذكور في الآية ٥٢ من سورة آل عمران والآية ١٤ من سورة الصف، مبيّنا بأن إعلان أي شخص، ذكراً كان ام انثى، نفسه نصرانيا يعني ضمنيّاً إعلان أخذه نفس العهد الذي اخذه الحواريون عندما أعلنوا أمام عيسى أنهم «**أَنصَارُ اللَّهِ**».

مما يجدر ذكره هنا هو أن بعض الكتاب شعروا بضرورة أقتراح وجود معنى ديني لكلمة نازورايوس/نازارينوس وعدم نسبتها (فقط) الى الناصرة. لقد ذكر مور عددا من التخريجات اللغوية المُقترحة، على سبيل المثال، يستشهد مور بتعليق قديم على مَتّى (٢: ٢٣) ينصّ على أن «عيسى

سُمّي بالنازارين ليس فقط لأن بيته كان في الناصرة، ولكن لأنه كان «المنقذ»، [المشتقة من] مِن نَصَرَ» (Moore, 1920: 430).

والآن كيف نفسّر التحليل اللغوي الخاطئ لأصل كلمة نازورايوس/نازارينوس في كتاب مَتّى؟ إن هذا الخطأ متداخل ومتشابك بالتأكيد مع الفهم الخاطئ لهذه الكلمة على أنها أحد ألقاب عيسى. إن مؤلِّف ذلك الكتاب، كمؤلِّفي بقية كتب العهد الجديد، وضع كتابه بعد عدة عقود من عصر عيسى. في وقت الكتابة، كان قد دَرَج إستعمال كلمة نازورايوس/نازارينوس في الإشارة الى أتباع عيسى. ولكن عند حلول ذلك العصر، كانت الكثير من تفاصيل دين عيسى قد فُقِدت لأن الانجيل لم يعد في متناول ايدي معظم الناس، وكانت الخلفية التاريخيّة لمعنى إسم أتباع عيسى، نازورايوس/نازارينوس، إحدى المعلومات التي لم تعد في متناول أيدي معظم الناس بما فيهم مؤلِّف كتاب مَتّى. إلا أن مَتّى رأى بأن التشابه بين كلمتي نازورايوس/نازارينوس ونازاريث (الناصرة) أقرب من أن يكون مجرد صدفة، لذلك فإنه خمّن ببساطة بأن نازورايوس/نازارينوس لابد أن تكون قد أُشتُقَّت من أسم نازاريث، المدينة التي يُفترَض ان عيسى عاش بها.

إن حقيقة أن كلمة نازورايوس/نازارينوس لم تُشتَق على الإطلاق من أسم الناصرة، وحقيقة أن التشابه بين هاتين الكلمتين ليس مجرد صدفة، كما لاحظ مؤلِّفو الكتب الاربعة الاولى من كتب العهد الجديد، تقودانا إلى الاستنتاج المُغري بأن مدينة الناصرة في الواقع هي التي أكتسبت إسمها من كلمة نازورايوس/نازارينوس، وليس العكس كما ورد في العهد الجديد. فلو كانت تلك المدينة الصغيرة فعلا غير مهمة، وهو أمر يتّفق عليه الباحثون، فإنها يمكن ان تكون قد أكتسبت ببساطة إسم «نازاريث» (الناصرة) من كونها مدينة «النازورايوسيّين» (النصارى). وهذا بدوره يعني بأن هذه المدينة الصغيرة ربما تكون قد ذُكرت في مراجع قديمة بإسمها القديم التي عُرفت به في الماضي، إلا انه ليس هنالك دليل على أقتراح بعض الباحثين بأن صمت الكتابات القديمة عن ذكر الناصرة يعني بأنها لم تُؤسّس إلا لاحقاً.

إن هنالك العديد من حالات الخلط الاخرى بين معلومات تاريخية صحيحة وأخرى مزيّفة التي وقع فيها كتّاب العهد الجديد، كما فعل من قبل أنظارهم الذين ألّفوا أسفار العهد القديم. ولعلّ إحدى الحالات التي تستدعي ذكرا خاصا هي الحادثة التي تُعرَف «بالعشاء الأخير». تختلف كتب العهد الجديد الاربعة في تفاصيل ما حدث خلال العشاء الاخير، إلا أننا سنذكر هنا فقط وصف هذه الكتب لكيفية تنظيم هذا العشاء:

وفي أول أيام الفطير تقدّم التلاميذ الى يسوع قائلين له أين تريد أن نعدّ لك لتأكل الفصح. فقال

اذهبوا الى المدينة الى فلان وقولوا له. المعلّم يقول ان وقتي قريب. عندك أصنع الفصح مع تلاميذي. ففعل التلاميذ كما أمرهم يسوع واعدوا الفصح (متّى، ٢٦: ١٧-١٩).

وفي اليوم الاول من الفطير حين كانوا يذبحون الفصح قال له تلاميذه أين تريد ان نمضي ونعدّ لتأكل الفصح. فأرسل أثنين من تلاميذه وقال لهما اذهبا الى المدينة فيلاقيكما إنسان حامل جرة ماء فإتبعاه. وحيثما يدخل فقولا لرب البيت إن المعلم يقول أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذي. فهو يريكما عليّة كبيرة مفروشة مُعدّة. هنالك أعدّا لنا. فخرج تلميذاه وأتيا الى المدينة ووجدا كما قال لهما. فأعدّا الفصح (مرقس، ١٤: ١٢-١٦).

وجاء يوم الفطير الذي كان ينبغي أن يذبح فيه الفصح. فأرسل بطرس ويوحنا قائلا إذهبا واعدّا لنا الفصح لنأكل. فقالا له أين تريد أن نعد. فقال لهما إذا دخلتما المدينة يستقبلكما إنسان حامل جرة ماء. إتبعاه الى البيت حيث يدخل وقولا لرب البيت يقول لك المعلم أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذي. فذاك يريكما علية كبيرة مفروشة. هنالك أعداه. فأنطلقا ووجدا كما قال لهما. فأعدّا الفصح (لوقا، ٢٢: ٧-١٣).

أما يسوع قبل عيد الفصح وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم الى الآب إذ كان قد أحب خاصّته الذين في العالم أحبّهم الى المنتهى. فحين كان العشاء وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعان الاسخريوطي أن يسلّمه (يوحنا، ١٣: ١-٢).

وهكذا نجد كتب العهد الجديد مرة أخرى في تناقضها المعهود مع بعضها البعض. إذ بينما يتفق مرقس ولوقا في وصفهما للحادثة، يقدّم متّى ويوحنا وصفين مختلفين تماما لا أثر فيهما للمعجزة التي يشير اليها مرقس ولوقا.

أما حقيقة هذه المائدة فقد كشفها الله في القرآن العظيم في هذه الآيات الكريمة: «**إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢). قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣). قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤). قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)**» (المائدة: ١١٢-١١٥).

١٠-٥ مسلم: الإسم الشامل

رأينا في الأقسام السابقة بأن الله صاغ إسمي **يهودي** و **نَصْرَانِي** في كتاب التوراة الذي أوحاه الى موسى وفي كتاب الإنجيل الذي أوحاه الى عيسى، على التوالي. خلافا لما ورد في العهدين القديم والجديد، فإن إسمي **يهودي** و **نَصْرَانِي** ليسا من صنع الناس. من المنطقي أن نجد بأنه مثلما مُنِح المؤمنون برسالتي موسى وعيسى إسمين خاصين بهما في كتابيهما المنزلين، كما يخبرنا القرآن العظيم، فقد منح الله المؤمنين برسالة محمد ﷺ إسماً ورد أيضاً في القرآن العظيم. إن هذا الإسم هو «**الَّذِينَ آمَنُوا**»، إشارة الى إيمانهم برسالة النبي محمد ﷺ.

هنالك امرين من الضروري توضيحهما هنا. أولا، أن حقيقة أن كل من الاسماء أعلاه يُطلَق على **كل** أتباع النبي المعيّن تعني بأن حمل شخص ما لأحد هذه الالقاب لا يعني **بالضرورة** أنه تابع متديّن فعلا. بعبارة اخرى، إن كل من يؤمن برسالة محمد ﷺ هو أحد **الَّذِينَ آمَنُوا**، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنه تابع ملتزم أو ممثل حقيقي لدين محمد ﷺ. إن الشرطين القرآنيين الواجب توفّرهما في الشخص ليكون تابعا حقيقيا لمحمد ﷺ هما «الإيمان والعمل الصالح». فإعلان الإيمان لوحده لا يجعل من الفرد تابعا حقيقيا للدين، بالرغم من جعله يُعرَف بالإسم الخاص بتلك المجموعة الدينية. ويتجلى هذا ألامر في الآيات الكريمة التالية:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (المَائِدَة: ٦٩).

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (البَقَرَة: ٦٢).

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (الحَج: ١٧).

من الملاحظ أن نهاية الآية ١٧ من سورة الحج تختلف عن نهاية الآيتين الأخرتين لأنها تشمل «**الْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**» الذين ليس بينهم من «**آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا**» وبالتالي فلا يمكن وصفهم بأنهم «**لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**».

ألامر الثاني يتعلّق بالمعنى القرآني لكلمة «مسلم» التي ترد في الكثير من الآيات الكريمة، بما

في ذلك عدد من الآيات التي مر ذكرها. مرة أخرى خلافا للأعتقاد العام، إن هذا المصطلح لا ينطبق على تابعي النبي محمد ﷺ لوحدهم. إن كلمة «مسلم» تعني الذي «أسلم وجهه لله»، وبالتالي يشمل هذا الاسم كل مؤمن بالله الواحد. لذلك نجد أن النبي إبراهيم وأبناءه وأحفاده (البقرة: ١٢٨، ١٣١-١٣٣؛ النساء: ١٢٥؛ يوسف: ١٠١)، والنبي لوط (الذاريات: ٣٦)، وسليمان (النمل: ٤٢، ٤٤) كلهم يُسَمَّون مسلمين. ووصف الحواريون أنفسهم بالمسلمين (آل عمران: ٥٢؛ المائدة: ١١١)، وكذلك فعل اليهود والنصارى الذين صدّقوا بالتوراة والإنجيل (القصص: ٥٣). كما عبّر المجوس الذين غلبهم موسى عن رغبتهم في أن يكونوا مسلمين (الأعراف: ١٢٦)، وطلب موسى من قومه أن يكونوا مسلمين حقاً وأن يتّكلوا على الله (يونس: ٨٤)، وطلب سليمان من ملكة سبأ وقومها أن يصبحوا مسلمين (النمل: ٣١، ٣٨). وعندما واجه فرعون الموت أعلن أنه أصبح من المسلمين (يونس: ٩٠). في الحقيقة إن مصطلح مسلم يشمل حتى غير البشر من المخلوقات غير المرئية المعروفة بإسم الجن (الجن: ١٤). وهناك بالطبع العديد من الآيات التي تصف الرسول محمد ﷺ وأتباعه بأنهم «مُسْلِمينَ» (مثلاً، البقرة: ١٣٦؛ آل عمران: ٢٠، ٦٤، ٨٤، ١٠٢؛ الأنعام: ١٤). فالإسلام إذن هو دين الأستسلام للرب الواحد الأحد الذي عرّف نفسه لأقوام كثيرة على مر التاريخ بأسماء مختلفة من خلال مختلف الرسل الذين بعثهم.

مثلما تقدّم ذكره من أسماء، فإن إسم مُسْلِم هو من صنع الله الذي استخدمه قبل عصر الرسول الأعظم بأحقاب بعيدة وكذلك في القرآن العظيم، كما تبيّن الآية الكريمة التالية: «**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**» (الحج: ٧٨). من الأخطاء الشائعة بين المفسِّرين هو نسبة الضمير «**هُوَ**» في عبارة «**هُوَ سَمَّاكُمْ**» إلى «**إِبْرَاهِيمَ**» (أنظر مثلاً القرطبي). أولاً، يناقض هذا التفسير حقيقة أن عبارة «**هُوَ سَمَّاكُمْ**» هي إستمرار لعبارة «**هُوَ اجْتَبَاكُمْ**» السابقة لها التي تشير بشكل جلي الى الله. إن الضمير «**هُوَ**» يرد للمرة الثالثة قرب نهاية الآية الكريمة في عبارة «**هُوَ مَوْلَاكُمْ**» حيث يشير الى الله. ثانيا، تشير عبارة «**وَفِي هَذَا**» في قوله تعالى «**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا**» الى القرآن العظيم، فيما تشير عبارة «**مِنْ قَبْلُ**» إلى ما سبق وأن أنزله الله على أنبيائه من كتب، كالتوارة والانجيل، أو غير ذلك من أشكال الوحي. لذلك فإن الادعاء بأن الضمير «**هُوَ**» في قوله ﷻ «**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ**» يعود الى غير الله هو خطأ جلي. ثالثا، هنالك آية كريمة يخبر فيها النبي نوح، الذي عاش بفترة طويلة قبل النبي ابراهيم، قومه بأن الله قد

أمره ان يكون «مِنْ الْمُسْلِمِينَ»: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ» (يونس: ٧٢).

هنالك حقيقة أخرى مهمة يجب الإشارة إليها هنا، وهي ان المصطلحات التي اطلقها الله على أتباع انبياء معيّنين لا تشمل الانبياء انفسهم. فالنبي موسى لم يكن يهوديا، ونبي الله عيسى لم يكن نصرانياً. وكذلك نجد الله يستخدم عبارة «الَّذِينَ آمَنُوا» في خِطاب أتباع النبي الرسول الأعظم ﷺ، رغم أنّ من الواضح أن معظم ما يرد من أوامر عامة في خطاب الله للذين آمنوا تنطبق على رسوله ﷺ أيضا.

قد يبدو للبعض أن عبارة «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ» في خطاب موسى لله تعني ضمنيّاً بأنه كان واحداً من اليهود: «وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥). وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)» (الأعراف: ١٥٥-١٥٦). إلا أن هذا الإستنتاج غير صحيح. إذ ان موسى لم تصبه «الرَّجْفَةُ» مع اولئك الرجال من قومه الذين كانوا معه حين كلّمه الله، حيث ترينا الآية الكريمة موسى وهو يتضرّع الى الله بينما قومه مُسجّون موتى. بل ان سبب موت قوم موسى هو طلبهم سماع كلام الله لموسى، وهو أمر لم يكونوا يمتلكون المَلَكة الخاصة التي يتطلّبها، بينما كان الله قد مكّن موسى مسبقا من ذلك. كما يجب أيضاً ملاحظة تعمّد موسى الفصل بين نفسه وقومه في مناشدته لله «قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ»، فلم يقل مثلا **أهلكتنا من قبل** بدلاً من «أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ». لذلك فإنه عند دعاءه «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ» كان موسى يتضرّع الى الله نيابة عن قومه الموتى. أما تضمين موسى لنفسه في الدعاء فهو إستخدام لقربه من ربه ﷻ كوسيلة عسى ان يستجيب الله لدعائه بإعادة الحياة الى قومه الموتى وهو ما فعله الله فعلا. فيما يلي شرح مفصل من تفسير الشيخ عبد القادر الكيلاني:

> موسى، على نبيّنا وعليه وعلى سائر النبيين الصلاة والسلام، جاء الى قومه ومعه التوراة فيها الأمر والنهي. قالوا له: «ما نقبلُ منك حتى نرى وجهَ الله ونسمع كلامه». فقال لهم: «إني ما أراني وجهه فكيف يُريكم (وجهه)؟» فقالوا: «إذا لم تُرِنا وجهه ولم تُسمِعنا كلامه ما نقبل كلامه». فأوحى الله عز وجل الى موسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام: «قُل لهم إن أرادوا أن يسمعوا كلامي فليصوموا ثلاثة أيام. فإذا كان اليوم الرابع، فليتطهّروا ويلبسوا ثياباً (جدداً) طاهرة، ثم آتِ بهم حتى يسمعوا

كلامي». فأخبرهم موسى بذلك، ففعلوا. ثم جاءوا الى الموضع الذي كان فيه يناجي ربّه عز وجل من الجبل، وكان قد اختار من قومه سبعين رجلاً من علمائهم وزهّادهم. فخاطبهم الحق عز وجل، فصُعقوا كلّهم، وبقي موسى على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام وحده. فقال: «يا ربّ، أمَتَّ خيار أُمّتي» وبكى. فرحِم اللهُ عز وجل بكاءه فأحياهُم. فقاموا على أرجلهم وقالوا: «يا موسى، لا طاقةَ لنا على سماع كلام الله، فكُن أنت الواسطة بيننا وبينه». فكلّم اللهُ عز وجل موسى، وهو يُسمِعهم ويُعيد عليهم قولَه. وإنّما قَدِر موسى على سماع كلام الله عز وجل لقوّة إيمانه وتحقيق طاعته وعبوديّته؛ ولم يقدِروا أن يسمعوا منه عز وجل لِضَعفِ إيمانهم. فلو قبلوا منه ما جاءهم من التوراة، وأطاعوا في الأمر والنهي، وتأدّبوا، ولم يختبروا ويجرؤا على ما قالوا، لقدروا على سماع كلام الله عز وجل (الكيلاني، ١٩٨٩: ١٧).

لقد رأينا سابقاً في القسم ١٠-٣ بأن القرآن العظيم يدحض الأدعاء بأن إبراهيم أو أي من أبناءه أو أحفاده كان يهودياً أو نصرانياً، مذكّراً أصحاب ذلك الادّعاء بأن كلا من كتابي التوراة والإنجيل اللذين جاءا بإسمي **يهودي** و **نصراني** أُوحِيا بعد زمن طويل من عصر أبراهيم وأبناءه الأنبياء. إنّ هذه حجة مبنيّة على مسألة عملية. أما الحقيقة العميقة والعامة التي يؤكّدها هذا الدحض القرآني فهي أن أي نبي لا يمكن أن يكون يهودياً أو نصرانياً ولكن فقط «مسلماً». هناك الكثير من الآيات الكريمة التي تصف أنبياءا بأنهم مسلمين، بما فيهم إبراهيم وأحفاده: «**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٣١). **وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** (١٣٢). **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** (١٣٣)» (البَقَرَة: ١٣١ -١٣٣). إن إبراهيم وأولاده وأحفاده، الذين كانوا جميعا أنبياء، وُصِفوا في التوراة والإنجيل بأنهم «مُسْلِمينَ»، وهذه الحقيقة هي **الشهادة** على أن القرآن حق التي كشف القرآن العظيم بأن أهلَ الكتاب كانوا يكتمونها: «**أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**» (البَقَرَة: ١٤٠).

وتؤكّد الآية الكريمة التالية أن الاسماء الخاصة لأتباع الأنبياء لا تنطبق على الأنبياء انفسهم: «**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ**» (المَائِدَة: ٤٤). بالرغم من أن هؤلاء الأنبياء كانوا

يستخدمون التوراة لتعليم وإرشاد الشعب اليهودي فإن الله يميّز في هذه الآية الكريمة بين اولئك الأنبياء وأقوامهم بتأكيده على أن الأنبياء كانوا من «**الَّذِينَ أَسْلَمُوا**» لا من «**الَّذِينَ هَادُوا**» كأقوامهم. إن كلمة «مسلم» تنطبق على كل مؤمن بالله الواحد الاحد ﷻ.

الإستنتاج

لنراجع أولاً بشكل مختصر قصة الخروج كما يرويها القرآن العظيم ووقائع التاريخ. في حوالي منتصف القرن السابع عشر ق.م أُخِذَ يوسف الطفل الى الدلتا الشرقية في مصر التي كانت تحت حكم الهكسوس، حيث ارتقى الى منصب رفيع، بحيث كانت سلطته، على الارجح، تالية لسلطة الملك مباشرة. ثم أتى كل من والديه وأخوته الأحد عشر وعوائلهم للسكن في نفس تلك المنطقة. إلا أن طرد الهكسوس على يد الفرعون أحموس الأول في حوالي منتصف القرن السادس عشر ق.م حوّل بني إسرائيل الى عبيد، مثل الكثير من الأجانب الآخرين في مصر، فنُقِلوا أفرادا وجماعات الى مختلف أجزاء مصر الفرعونية وحسب الحاجة للأيدي العاملة.

في أوائل العقد الثالث من القرن الثالث عشر ق.م جُمع عبيد من بني إسرائيل، وعبيد آخرين، من أنحاء مصر المختلفة وأُرسِلوا الى منطقتهم القديمة في الدلتا الشرقية حيث كان رمسيس الثاني قد قرّر بناء مدينة جديدة على أنقاض مدينة أفاريس القديمة التي كانت يوما عاصمة الهكسوس وموطن أجداد بني إسرائيل الأوائل. بعد بناء العاصمة الجديدة باي-رمسيس، أُعيد توزيع العبيد على أنحاء مصر الاخرى لتلبية الحاجة للأيدي العاملة من العبيد، فيما تُرك بعض العبيد، بما في ذلك بعض بني إسرائيل، لمتابعة بعض الخدمات الضرورية المطلوبة هنالك وللمشاركة في أعمال بناء أخرى. وكانت عائلة موسى إحدى عوائل مجتمع بني اسرائيل الصغير في باي-رمسيس.

في وقت لاحق، علم فرعون بشكل ما بولادة وشيكة لطفل من بني إسرائيل يصبح عندما يكبر قائدا لقومه المُستَعبَدين ويقوّض حكم فرعون ويُفني جيشه. ولمنع هذا السيناريو المريع من الحدوث، أطلق فرعون حملة وحشية لقتل كل ذكر يولد لبني إسرائيل. إلا أن موسى الذي كان هدف هذه المذبحة نجا منها بفضل الله. إذ عملا بما علّمها الله ﷻ، أرضعت أم موسى طفلها وعندما شعرت بإقتراب الخطر على حياته وضعته في تابوت وألقته ليطفو في النهر. ثم ألتقط قوم فرعون موسى ورُبِّيَ في قصره.

حين كان لموسى ٢٠-٢٢ سنة من العمر تدخّل يوما في قتال بين أحد أبناء قومه ومصري قاتلا هذا الاخير. على أثر ذلك حيكَت خطة لقتل موسى من قبل بعض رجال بلاط فرعون مما أضطر موسى الى الهرب الى مدين. عاش موسى في مدين ٨-١٠ سنين قبل ان يتركها مع عائلته. في الطريق، كلّم الله موسى وأمره بالعودة الى مصر لدعوة فرعون الى الإيمان بالله وتحرير بني

إسرائيل من العبودية لكي يرحلوا معه الى الأرض المقدسة التي كان قد كتب الله لهم أن يسكنوها لقرون.

بعدما رفض الطاغية فرعون طلبا موسى أراه موسى المعجزات التى منحها الله له. كما هزم موسى السحرة الذين جمعهم فرعون لينافسوه إعتقادا منه بأن معجزات موسى لم تكن سوى سحراً. بعد ذلك أمر الله موسى ان يستقر وأخوه هارون في الدلتا الشرقية وأن يجعلا محل سكناهم مركز تجمّع لبني إسرائيل الذين كانوا منتشرين في كل أنحاء مصر.

لما وجد فرعون عاجزا عن إيذاء موسى وهارون الذَين كانت تسندهما القدرة الإلهية، بدأ حملة جديدة لقتل الذكور من مواليد بني إسرائيل الجدد لمنعهم من إتّباع موسى. من المرجّح أن هذه المذبحة الثانية توقّفت عندما بدأ قوم فرعون يعانون من سلسلة من العقوبات الإلهية على شكل كوارث. بعد آخر كارثة قدّم فرعون تنازلا بأن وعد موسى بأن يترك بني إسرائيل يذهبوا معه إذا دعا موسى الله أن يوقف العقاب. ولكن عندما حدث ذلك أخلَفَ فرعون وعده. نفد صبر فرعون مع موسى وقومه فأتّخذ قرارا بتفريق شمل بني إسرائيل في الأرض مرة أخرى. إلا أن الله أجهض خطة فرعون بأن أمر موسى ان يخرج بقومه من مصر تحت جنح الظلام.

عندما أكتشف فرعون مغادرة موسى وقومه دون موافقته، جمع جيشاً وفي خلال حوالي أسبوعين، على الارجح، كان هو وجيشه في اثر الهاربين. ما كان سيكون للعدد الصغير من الهاربين من بني اسرائيل أية فرصة للنجاة من الجيش الفرعوني المتفوّق عدة وعددا. لحق فرعون وجيشه ببني إسرائيل الذين كانوا قد وصلوا الى ساحل البحر. هنا تدخل الله مرة أخرى ليمكّن موسى من شق البحر ليعبره مع قومه الى الجهة الأخرى. عندما لحقهم فرعون وجيشه على الطريق اليابس الذي كان قد ظهر وسط البحر عاد البحر الى حالته طبيعته وأغرق فرعون وقومه. حين وجد فرعون نفسه على وشك الموت غرقاً أعلن إيمانه برب موسى، إلا أن هذا جاء بعد فوات الأوان. أنقذ الله جثة فرعون الغريق ليتركها عبرة للناس من بعده. وفعلا رأى ويرى هذه الجثة أعداد هائلة من الناس من مختلف الازمان والامكنة. وهكذا فإن تاريخ خروج بني إسرائيل من مصر هو نفس تاريخ موت رمسيس الثاني.

بعد خروجهم من مصر، خلق بنو إسرائيل العصاة الكثير من المشاكل لموسى. فمثلاً قادهم عصيانهم مرة الى رفض الأمر الإلهي بالدخول الى الأرض المُقدَّسة، وهو قرار التمرّد وعدم الاخلاص الذي عاقبهم عليه الله بحرمانهم من دخول الأرض المُقدَّسة لمدّة أربعين عاماً جعلهم يتيهون خلالها في الارض.

بالإضافة الى تفسيره لقصة موسى في القرآن العظيم ومقارنتها مع وقائع تاريخيّة موثوقة من مصر القديمة، يسلّط هذا الكتاب الضوء على كشف القرآن العظيم لمعلومات غير صحيحة في كل من العهدين القديم والجديد ذات العلاقة بقصة موسى. أولاً، لم تقع هناك أية مذبحة للمواليد الجدد من الذكور في بيت لحم بهدف قتل عيسى الطفل كما يدّعي مؤلّف كتاب متّى. لقد لُفِّقَت هذا القصة تقليدا للمذبحة الحقيقية التي حصلت عند ولادة موسى. ثانياً، إن إدعاء العهد القديم بأن مصطلح «عبري» هو إسم عرقي يشير الى بني إسرائيل هو إدعاء زائف تماما. ثالثاً، إن تحليل العهد القديم اللغوي لأصل كلمة **يَهودي/يَهود** هو خاطئ. إن هذا الاسم لم يُشتق من «يهوذا» أحد أبناء يعقوب ولكن من الفعل «هاد» الذي يعني «تاب او اهتدى». رابعاً، إن مصطلح «**نَصْرَاني**» هو الآخر لم يُشتَق من «الناصرة» حيث يُعتَقَد بأن عيسى عاش ولكن من الفعل «نصر». أُستُخدِم مصطلح «**نَصْرَاني**» أساسا في سياق خاص ليعني «نصير الله». خامساً، كان مصطلحا «**يَهود**» و «**نَصارَى**» لقبا أتباع موسى وعيسى، على التوالي، إلا أنهما لم يكونا لقبين لموسى وعيسى نفسيهما. سادساً، لم يكن لقبا «**يَهودي**» و «**نَصْرَاني**» من إبتكار البشر ولكن الله هو الذي أوجدهما. إن لقب «**مُسْلِم**» أيضاً هو من صياغة الله، إلا أنه مصطلح عام يشمل كل من يؤمن بالله، تحت أي إسم من أسمائه التي أطلقها على نفسه ﷻ.

لم يكن هدف هذا الكتاب الرئيس مجرّد تبيين عدم دقة قصة النبي موسى في العهد القديم. إذ أنه لأمر معروف منذ فترة طويلة بأن هذه الرواية، بل وروايات العهد القديم بشكل عام، هي مليئة بتناقضات داخلية، أي تحتوي على معلومات تغالط بعضها، وتناقضات مع حقائق تاريخيّة ثابتة. لم تكن هذه الدراسة معنيّة بإلتقاط كل معلومة خاطئة في رواية موسى في العهد القديم، ولكن كان هدفها تشخيص فقط الأخطاء التي أهمل القرآن العظيم ذكرها فلم تظهر فيه، أو التي ناقضها. إن هذا البحث لم يتطرق الى الأخطاء الواردة في تفاصيل اخرى من قصة موسى في العهد القديم لم يعالجها القرآن العظيم. وبسبب صلة قصّة عيسى في العهد الجديد بقصة موسى في العهد القديم، فقد عالج هذا الكتاب بعض مظاهر تلك القصة أيضا. وهنا أيضا نجد أنّ العهد الجديد مليء بتناقضات داخلية ومغالطات لمعلومات تاريخية موثّقة، بينما نجد معلومات القرآن العظيم غاية في الدّقة.

لو كان القرآن العظيم قد نُقِل من العهد القديم، كما يدعي البعض، لوجدت بعض هذه الاخطاء طريقها الى الرواية القرآنيّة. فلِمَ، على سبيل المثال، يصف القرآن العظيم بني إسرائيل بأنهم شعب صغير العدد، في الوقت الذي يدّعي فيه العهد القديم بأن عددهم كان ٢-٣ ملايين والذي هو رقم مُضخم ومُبالغ فيه لا يقبله أي باحث؟ لابد من ملاحظة أن الصورة التي تعرض بني إسرائيل على

هيئة شعب كبير العدد الى الحد الذي جعلهم يشكّلون خطرا على المصريين هي صورة جذّابة لعقول الناس الجاهلين بالحقائق التاريخيّة حتى أن بعض المفسِّرين المسلمين أنفسهم قبلوها! ولماذا لم يُماشي القرآن العظيم أعتقاد كتّاب العهد القديم، والذي هو في الواقع اعتقاد منطقي، بأن جثة فرعون أبتلعتها مياه البحر، لينص خلافا لذلك على أن جثت فرعون أُنقِذت؟ ولماذا يذكر القرآن هذا عن فرعون بالذات ولكن لا يقول الشيء نفسه عن بشر آخرين ممّن أهلكهم الله؟ ولماذا يظهر إسم هامان، الذي نستطيع اليوم ربطه بإسم الإله المصري آمون، في قصة موسى في مصر المملكة الجديدة وليس في بلاد فارس العهد القديم؟ لماذا يهمل القرآن تماما التحليل اللغوي الخاطئ، ولكن الجذّاب في نفس الوقت، لأصل كلمة موسى في العهد القديم؟ ولم كان أي كاتب بشري سيعزف عن إستنساخ **موتيف** المذبحة ليلصقه بقصة ولادة عيسى كذلك؟ إذا فقد كان العبريّون هم بني إسرائيل أنفسهم وأن عيسى كان «الناصري» لأنه أتى من مدينة الناصرة **المجهولة!** إن القرآن العظيم لا يقبل هذه والكثير غيرها من القصص الخاطئة في العهدين القديم والجديد. كيف يمكن ان تكون قد حصلت عملية الترشيح وتنقية المعلومات هذه؟ إن الحقائق تفنّد بشكل تام الاعتقاد الشائع بأن القرآن العظيم مُستَنسَخ من العهدين القديم والجديد. إن هذا الإدعاء الذي عمره ١٤ قرنا هو غالبا وليد الجهل بمحتويات القرآن العظيم، وأحيانا الجهل بمحتويات العهدين القديم والجديد أيضا.

إن تماسك وتناسق نص القرآن العظيم هو مظهر أخر من مظاهر إعجازه. فخلافا للعهدين القديم والجديد، لا يذكر القرآن العظيم شيئاً ليعود فيناقضه بعد بضع صفحات. لقد بيّنت هذه الدراسة أيضا عدم وجود معلومة تاريخيّة قرآنيّة تناقض حقائقا تاريخيّة مُثبَتة وأن القرآن العظيم يكشف الكثير من المعلومات التاريخيّة الجديدة. إن القرآن العظيم لا يمكن أن يكون سوى من تأليف المؤرخ الكامل والمثالي خالق التاريخ نفسه الذي لا يخطئ، الله، الذي وصف القرآن العظيم بالآية الكريمة التالية:

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (النساء: ٨٢).

صدق الله الخالق العظيم العليم الحكيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

المراجع العربية

الشيخ عبد القادر الكيلاني (١٩٨٩). **جلاء الخاطر من كلام الشيخ عبد القادر**. تحقيق ونشر السيد الشيخ محمد الشيخ عبد الكريم الكسنزاني الحسيني، بغداد: شركة عشتار للطباعة والنشر والتوزيع المحدودة.

ابن الاثير، علي محمد الشيباني (١٩٢٩). **الكامل في التاريخ**، ج ١، ادارة المطبعة المنيوية.

حجازي، محمد محمود (١٩٥٤). **التفسير الواضح**، ج ١١-٢٠، دار الكتاب العربي بمصر.

الجلالين، المحلي والسيوطي، **تفسير الجلالين**، بيروت، دار المعرفة.

ابن كثير، إسماعيل (١٩٨٥)، **قصص الانبياء**، دلهي، إشاعة الاسلام.

ابن كثير، إسماعيل (١٩٨٨)، **تفسير القرآن العظيم**، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن خلدون، عبد الرحمن (١٩٦٦). **تاريخ ابن خلدون**، القسم الاول، المجلد الثاني، بيروت: دار الكتاب اللبناني.

المراغي، احمد مصطفى (١٩٤٦أ). **تفسير المراغي**، ج ١-٥، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده.

المراغي، احمد مصطفى (١٩٤٦ب). **تفسير المراغي**، ج ١٦-٢٠، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده.

النجار، عبد الوهاب (١٩٨٦). **قصص الانبياء**، بيروت، دار الكتب العلمية.

القرطبي، محمد بن احمد الانصاري (١٩٤١). **الجامع لاحكام القرآن**، ج ١٣-١٤، مصر: دار الكتب المصرية.

الرازي، فخر الدين (١٩٠٦). **مفاتح الغيب (المشتهر بالتفسير الكبير)**، المطبعة العامرة الشرقية.

ابو السعود (١٩٠٦). **تفسير ابي السعود**، ج ٧، المطبعة العامرة الشرقية.

طبارة، أ (بلا تاريخ). **اليهود في القرآن**، بيروت، دار العلم للميلايين.

الطبري، محمد بن جرير (١٩١٠). **جامع البيان في تفسير القرآن**، مصر: المطبعة الكبرى الاميرية ببولاق.

الطبري، ابو جعفر (بلا تاريخ). **تاريخ الامم والملوك**، ج ١، المطبعة الحسينية المصرية.

الطباطبائي، م (بلا تاريخ). **الميزان في تفسير القرآن**، طهران، دار الكتب الاسلامية.

الطبرســـي، ابـــو علي الفضل (١٩٦١). **مجمع البيان في تفسير القرآن**، المجلد الخامس، بيروت: مكتبة الحياة.

ابن كثير، ابو الفداء (١٩٨٨). **تفسير القرآن العظيم**، المجلد الثالث، بيروت: دار الكتب العلمية.

المراجع الانكليزية

ANET (1950). *Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament*, edited by J. B. Pritchard, Princeton: Princeton University Press.

ANETS (1968). *The Ancient Near Eastern Supplementary Texts and Pictures Relating to the Old Testament*, edited by J. B. Pritchard, Princeton: Princeton University Press.

Bimson, J. J. (1991). Merneptah's Israel and Recent Theories of Israelite Origins. *Journal for the Study of the Old Testament*, 49, 3-29.

Breasted, J. H. (1912). *Development of the Religion and Thought in Ancient Egypt*, London. (cited in Syed, 1984)

Brown, R. E. (1993). *The Birth of the Messiah: A Commentary on the Infancy Narratives in the Gospels of Matthew and Luke*, New York: Doubleday.

Bucaille, M. (1995). *The Bible, The Qur'an and Science: The Holy Scriptures Examined in the Light of Modern Knowledge*, translated from the French by A. D. Pannell & M. Bucaille, New Delhi: Millat Book Centre.

Cazelles, H. (1973). *The Hebrews*. In: D. J. Wiseman (ed.), Peoples of Old Testament Times, Oxford: The Clarendon Press, 1-28.

Clayton, P. A. (1994). *Chronicle of the Pharaohs: The Reign-By-Reign Record of the Rulers and Dynasties of Ancient Egypt*, Slovenia: Thames & Hudson.

Colenso, J. W. (1862). *The Pentateuch and the Book of Joshua, I*, London. (cited in Houtman, 1993: 70)

Cullmann, O. (1962). *Nazarene. In: The Interpreter's Dictionary of the Bible: An Illustrated Encyclopedia, K-Q*, New York: Abingdon Press, 523-524.

Davies, W. D. & Allison, D. C. (1988). *A Critical and Exegetical Commentary on the Gospels According to Saint Matthew, vol. 1: Introduction and Commentary to Matthew*, Edinburgh: T. & T. Clark Limited.

Dever, W. G. (1977). Palestine in the Second Millennium BCE: The Archaeological Picture. In: J. H. Hayes & J. M. Miller (eds.), *Israelite and Judaean History*, London: SCM Press, 70-120.

Dever, W. G. (1992). How to Tell a Canaanite From an Israelite. In: H. Shanks (ed.), *The Rise of Israel*, Washington: Biblical Archaeological Society, 27-56.

Dever, W. G. (1997). Is There Any Archaeological Evidence for the Exodus?. In: E. S. Frerichs & L. H. Lesko (eds.), *Exodus: The Egyptian Evidence*, Indiana: Eisenbrauns, 67-86.

EI (1965). *The Encyclopedia of Islam, vol. II*, Leiden: E. J. Brill.

EI (1971). *The Encyclopedia of Islam, vol. III*, Leiden: E. J. Brill.

Feldman, L. H (1965) (tran.). *Jewish Antiquities, vol. xviii-xx*, Massachusetts: Harvard University Press.

Greenberg, M. (1955). *The Hab/piru*, New Haven, Connecticut: American Oriental Society.

Halpern, B. (1992). The Exodus From Egypt: Myth or Reality? In: H. Shanks (ed.), *The Rise of Ancient Israel*, Washington, DC: Biblical Archaeology Society, 87-113.

Harris, J. E. & Weeks, K. R. (1973). *X-Raying the Pharaohs*, New York: Charles Scribner's Sons.

Hayes, J. H. (1977). The History of the Study of Israelite and Judaean History. In: J. H. Hayes & J. M. Miller (eds.), *Israelite and Judaean History*, London: SCM Press, 1-69.

Helms, R. (1989). *Gospel Fictions*, New York: Prometheus Books.

Houtman, C. (1993). *Exodus, vol. I*, translated from the Dutch by J. Rebel & S. Woudstra, Kampen: Kok Publishing House.

Houtman, C. (1996). *Exodus, vol. II*, translated from the Dutch by S. Woudstra, Kampen: Kok Publishing House.

Husain, A. (1994). *Moses Versus Pharaoh*, India: Adam Publishers.

Hyatt, J. P. (1971). *Commentary on Exodus*, London: Oliphants.

Irvin, D. (1977). The Joseph and Moses Stories As Narrative in the Light of Ancient Near Eastern Narrative. In: J. H. Hayes & J. M. Miller (eds.), *Israelite and Judaean History*, London: SCM Press, 180-209.

Josephus, F. (1965). *Jewish Antiquities, vol. i-iv*, translated by L. H. Feldman, Massachusetts: Harvard University Press.

Josephus, F. (1965). *Jewish Antiquities, vol. xviii-xx*, translated by L. H. Feldman, Massachusetts: Harvard University Press.

Josephus, F. (1974). *The Jewish War*, translated by G. A. Williamson, UK: Penguin.

Kempinski, A. (1985). Some Observations on the Hyksos (XVth) Dynasty and Its Canaanite Origins. In: S. Israelit-Groll (ed.), *Pharaonic Egypt: The Bible and Christianity*, Jerusalem: The Magnus Press, 129-137.

Kitchen, K. A. (1966). *Ancient Orient and Old Testament*, London: the Tyndale Press.

Kitchen, K. A. (1977). *The Bible in its World: The Bible and Archaeology Today*, The Paternoster Press: Exeter.

Kitchen, K. A. (1982). *Pharaoh Triumphant: The Life and Times of Ramesses II King of Egypt*, Warminster: Aris & Phillips ltd.

LEM (1954). *Late-Egyptian Miscellanies*, translated by R. A. Caminos, London: Oxford University Press.

Levenson, J. D. (1997). *Esther: A Commentary*, Kentucky: Westminster John Knox Press.

Lewis, B. (1948). *Land of Enchanters: Egyptian Short Stories From the Earliest Times to the Present Day*, London: The Harvill Press.

Malamat, A. (1997). The Exodus: Egyptian Analogies. In: E. S. Frerichs & L. H. Lesko (eds.), Exodus: *The Egyptian Evidence*, Indiana: Eisenbrauns, 15-26.

McCarter, P. K. (1992). Panel Discussion. In: H. Shanks (ed.), *The Rise of Ancient Israel*, Washington, DC: Biblical Archaeology Society.

Miller, J. M. (1977). The Israelite Occupation of Canaan. In: J. H. Hayes & J. M. Miller (eds.), *Israelite and Judaean History*, London: SCM Press, 213-284.

Montet, P. (1974). *Lives of the Pharaohs*, London: Spring Books.

Moore, G. F. (1920). Nazarene and Nazareth. In: F. J. Foakes Jackson & K. Lake (eds.), *The Beginnings of Christianity, Part I, vol. 1: Prolegomena I; the Acts of the Apostles*, London: Macmillan & co., 426-432.

Noth, M. (1962). *Exodus: A Commentary*, translated from the German by J. S. Bowden, London: SCM Press.

Partridge, R. B. (1996). *Faces of Pharaohs: Royal Mummies and Coffins From Ancient Thebes*, London: The Rubican Press.

Pellett, D. C. (1962). Nazareth. In: *The Interpreter's Dictionary of the Bible: An Illustrated Encyclopedia, K-Q*, New York: Abingdon Press, 524-526.

Petrie, W. M. F. (1924). *Religious Life in Ancient Egypt*, London. (cited in Syed, 1984)

Pritchard, J. B. (1950) (ed.). *Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament*, Princeton: Princeton University Press.

Redford, D. B. (1967). *The Literary Motif of the Exposed Child (cf. Ex. ii 1-10)*, Numen, 14, 209-228.

Redford, D. B. (1992). *Egypt, Canaan, and Israel in Ancient Times*, Princeton: Princeton University Press.

Redford, D. B. (1997). Observations on the Sojourn of the Bene-Israel. In: E. S. Frerichs & L. H. Lesko (eds.), *Exodus: The Egyptian Evidence*, Indiana: Eisenbrauns, 57-66.

Rendsburg, G. A. (1992). The Date of the Exodus and the Conquest/Settlement: The Case for the 1100s, *Vetus Testamentum*, 42, 510-527

Rogerson, J. & Davies, P. (1989). *The Old Testament World*, Cambridge: Cambridge University Press.

Siddiqi, M. (1994). *The Qur'anic Concept of History*, India: Adam Publishers.

Steindorff, G. (1905). *Religion of the Ancient Egyptians*, New York. (cited in Syed, 1984)

Syed, S. M. (1984). Haman in the Light of the Qur'an. *Hamdard Islamicus*, 7(4), 83-92.

Theissen, G. & Mertz, A. (1998). *The Historical Jesus: A Comprehensive Guide*, translated from German by John Bowden, London: SCM Press.

Thompson, S. (1946). *The Folktale*, New York: Holt, Rinehart, & Winston. (cited in Irvin, 1977)

Thompson, T. L. (1977). The Joseph and Moses Narratives: Historical Reconstructions of the Narratives. In: J. H. Hayes & J. M. Miller (eds.), *Israelite and Judaean History*, London: SCM Press, 149-166.

Van Seters, J. (1966). *The Hyksos: A New Investigation*, New Haven: Yale University Press.

Ward, W. A. (1997). Summary and Conclusions. In: E. S. Frerichs & L. H. Lesko (eds.), *Exodus: The Egyptian Evidence*, Indiana: Eisenbrauns, 105-112.

Weinstein, J. (1997). Exodus and Archaeological Reality. In: E. S. Frerichs & L. H. Lesko (eds.), *Exodus: The Egyptian Evidence*, Indiana: Eisenbrauns, 87-103.

Widengren, G. (1977). The Jewish Community Under the Persian. In: J. H. Hayes & J. M. Miller (eds.), *Israelite and Judaean History*, London: SCM Press, 515-538.

Williamson, G. A. (1974). *Introduction. The Jewish War*, translated by G. A. Williamson, UK: Penguin.

Yurco, F. J. (1997). Merneptah's Canaanite Campaign and Israel's Origin. In: E. S. Frerichs & L. H. Lesko (eds.), *Exodus: The Egyptian Evidence*, Indiana, Eisenbrauns, 27-55.

HISTORY TESTIFIES TO THE INFALLIBILITY OF THE QUR'AN

Early History of the Children of Israel

Louay Fatoohi & Shetha AL-Dargazelli

DAR AL-HIKMA

Publishing and Distribution

LONDON

إن تشخيص التناقضات الداخلية التي يحتويها كتابا العهدين القديم والجديد ليس بالأمر الصعب. ففي القرنين التاسع عشر والعشرين كشفت بيانات من الحفريات الآثارية في مناطق مذكورة في العهد القديم الكثير من العيوب في رواية ذلك الكتاب للتاريخ، بما في ذلك روايته للتاريخ المبكر لبني إسرائيل. واختلفت ردود أفعال الأكاديميين على هذا الأمر. حيث اختار البعض رفض أجزاء العهد القديم وقبول البعض الآخر التي اعتقدوا بأن من الممكن مطابقتها مع الحقائق التاريخية المثبتة. إلا أن باقي الباحثين قرروا ببساطة بأن حادثة خروج بني إسرائيل من مصر والحوادث الأخرى ذات الصلة هي من روايات الخيال في العهد القديم. أما ما لم يختلف عليه الباحثون فهو لا موثوقية العهد القديم.

في بحثهم عن جواب للسؤال عن تاريخية أو لا تاريخية الخروج وغيرها من ادعاءات العهد القديم حول تاريخ بني إسرائيل المبكر، استعان الأكاديميون بكل معلومة أمكنهم استخلاصها من نص آثاري أو مصنوعة آثارية. ولكن خلال التاريخ الطويل للاهتمام الأكاديمي بهذا الموضوع، كان نصيب الرواية القرآنية عن التاريخ المبكر لبني إسرائيل الاهمال المستمر. إن هذا الكتاب يعالج هذه الحالة السلبية ويبيّن أهمية نتائج دراسة الرواية القرآنية لحادثة الخروج.

يتوصل هذا الكتاب الى ثلاثة استنتاجات. أولاً، بعكس رواية العهد القديم، تتميّز الرواية القرآنية لحادثة الخروج بالتجانس والخلو من أية تناقضات داخلية. ثانياً، لا يحتوي القرآن على أي ادعاء يتناقض مع وقائع تاريخية مثبتة. من الحقائق ذات الدلالات المهمة جداً هو أن هذا الكتاب الذي أنزل قبل أربعة عشر قرناً كشف معلومات تاريخية لم يتوصل إليها الانسان إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين. أما الاستنتاج الثالث الذي لا يقل أهمية فهو أن القرآن يحتوي معلومات توسع معلوماتنا التاريخية وتجيب على أسئلة عمرها قروناً. بعبارة أخرى، يحتوي القرآن على معلومات لا توجد في مصدر آخر. بالإضافة إلى إلقائه الضوء على الدقة المذهلة للوصف القرآني لتاريخ بني إسرائيل في مصر، يكشف هذا الكتاب معلومات قرآنية مثيرة عن حياة النبي عيسى (عليه السلام). إن النظرة الشائعة في الغرب بأن القرآن قد أقتبس من العهد القديم ليست أكثر من هراء لا معنى له.

إن نقاشات هذا الكتاب لا تقودها العاطفة والحماسة وليست مجرد إطناب لا أساس له. إن المناهج التي تم اتباعها في الوصول إلى استنتاجات الكتاب قد تم تفصيلها بوضوح ليكون في الامكان تقييمها بشكل مستقل. إن التحدي الذي تطلقه استنتاجات هذا الكتاب واضح تماماً: إذا لم يكن في الامكان البرهنة على خطأ هذه الاستنتاجات، فان معناها الوحيد هو أن القرآن لا يمكن أن يكون قد كتب من قبل أي أحد غير الله، المؤرّخ الكامل.



DAR AL-HIKMA
London